لؤي عبد الإله

كوميديا الحب الإلهي

الأعمال الكاملة 1

رواية

ألف ياء
ALF YAA

كوميديا الحب الإلهي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المؤلف: لؤي عبد الإله
الكتاب: كوميديا الحب الإلهي (رواية) ـ الأعمال الكاملة 1
صدرت النسخة الرقمية: أيار/ مايو 2025
صدرت الطبعة الأولى عن دار المدى، دمشق ـ سوريا 2008

- **الناشر: "ألف ياء AlfYaa"**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub وMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ**"ألف ياءAlfYaa"**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبِّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
"ألف ياء AlfYaa" ناشرة للكتاب فقط.

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأعمال الكاملة 1

لؤي عبد الإله

كوميديا الحب الإلهي

رواية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الإهداء

إلى ذكرى ليلى نورلاند

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الفهرس

تقديم.....9
القسم الأول: أزرار ملونة (1) 11
القسم الثاني: ترويض الغيوم.....31
القسم الثالث: أزرار ملونة (2) 71
القسم الرابع: صالح وروايته 97
القسم الخامس: بيداء في متاهتها (1) 143
القسم السادس: ''المبدع''(1) 169
القسم السابع: بيداء في متاهتها(2) 197
القسم الثامن: ''المبدع''(2).....217
القسم التاسع: بيداء في متاهتها (3) 239
القسم العاشر: الأسماء الإلهية (1).....289
القسم الحادي عشر: خطوط متوازية 299
القسم الثاني عشر: الأسماء الإلهية (2) 357

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

تقديم

وفق رؤية ''محيي الدين بن عربي''، كانت عناصر العالم قبل ظهورها إلى الوجود جاثمة كممكنات في العماء، حيث يفصلها عن الذات برزخ الأسماء الإلهية. في ذلك السكون الأبدي، كان التوق يعتور ممكنات الوجود للتحرر من ظلمات العدم واكتساء حلة الوجود، كذلك هي الحال مع الأسماء الإلهية التي ظلت تتوق لرؤية أحكامها متحققة في الممكنات.

عبر حكاية رمزية، يخبرنا الشيخ الأكبر عن ذلك اللقاء الذي جرى بين الأسماء الإلهية والممكنات، وما ترتب عنه من حوارات بين الأسماء الفعالة في عملية الخلق الأولى. وقبل أن اسردها لكم، دعوني أخبركم بالحكاية التي تسللت إلى خاطري أثناء انغماري بكتاب الشيخ الشهير: "الفتوحات المكية"، إذ على الرغم من تجاهلي إياها لفترة طويلة، ظلت تفاصيلها تتناسل، ضاغطة للظهور، كممكنات تجاوزت حاجز العدم، إلى حيز واجب الوجود.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

القسم الأول

أزرار ملونة (1)

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

كلما اجتاز ''عبدل'' حديقة "ريجنت بارك" بسيارته تسرب إليه ذلك الحنين غير القابل للتعريف؛ الشعور بغصة تجعل صدره يضيق قليلا بأنفاسه، ولعلي أبالغ إذا قلت إن صورة كلب من فصيلة اللابدوك ستحضر إلى ذاكرته، مصحوبا بامرأة ممتلئة ترتدي ثوبا صيفيا، يهبط باتساق حتى ركبتيها، وعلى رأسها قبعة من القش مائلة قليلا إلى اليسار، كم تبدو من بعيد، كلوحة منجزة على يد رينوار وهي تمشي بجوار البركة رافعة رأسها قليلا، موزعة ابتساماتها على العابرين الذين يظهرون إعجابهم بكلبها الأنيق.

شعر ''عبدل'' حينما رآها لأول مرة بانذهال شديد: الشعر الأصفر المسبل حتى الرقبة، اللون التبني المحايد لثوبها والمطرز بنقوش يابانية عند الحواف، الحذاء الصيفي الأبيض الذي اظهر أظافرها المطلية بلون أرجواني، وأخيراً تلك السلسلة الذهبية التي تنتهي في رقبة الكلب الذي ما انفك يركض بدأب شديد للحاق بخطوات سيدته الرشيقة.

قبل اجتيازه البوابة لمغادرة الحديقة، عنّ في نفسه هاجس للذهاب إلى المقهى المفتوح، وهناك فاجأه مشهد ''جوانا'' البهي. ها هي أمامه تجلس وحدها، على الطاولة المنخورة بالأمطار وضعت كأس عصيرها، والى جوارها جلس ''بيب'' نصف نائم. كان ضوء الشمس يتسلل بخدر بين وقت وآخر من خلال الغيوم البيضاء. ولم يتطلب الأمر أي جهد من ''عبدل'' للتوجه صوب طاولتها: "هل بالإمكان الجلوس؟"، "بالتأكيد"

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

حينما يسترجع ''عبدل'' صورة أبيه في ذاكرته، تطل دائما أمامه ملامح عابسة وساخرة في آن واحد، ولعلها تعبير عن مشاعر خيبته بابنه البكر، بل هذه المشاعر انتقلت ضد الأم التي اعتبرت مسؤولة وراثيا عن بوادر انحرافه. ألم يقض عمها خمسة أعوام في السجن بسبب سرقة أموال الدولة؟

لا يستطيع ''عبدل'' أن يتذكر تلك الحادثة التي رسّخت موقف أبيه ضده، على الرغم من تكرار ذكرها على مسامعه مئات المرات، وغالبا ما يرويها المتقدمون في السن من عائلته كمزحة أو لإثبات حكم قاس عليه.

لم يكن عمر ''عبدل'' يتجاوز الخمسة أعوام حينما وقعت الحادثة. آنذاك كان اسمه الكامل "عبد الوهاب"، ولم يأت اختيار ذلك الاسم إلا بعد الاحتكام إلى القرآن الكريم حينما فتحه الأب لتقع عيناه على الاسم الإلهي: ''الوهّاب''.

بعد سلسلة زيارات قام بها أصدقاء الأب له في البيت، شكا له بعضهم من اختفاء زر أو زرّين من سترهم التي كانوا يخلعونها عند دخولهم غرفة الضيوف، ولم يأت اكتشاف الحقيقة إلا عن طريق الصدفة المحض؛ كان الأب يبحث عن نظارتيه الطبيتين التي ظن أن أحد أطفاله خبأهما في درج ما، وحينما فتح تلك العلبة المهملة التي كانت تظهر بيد ''عبدل'' من وقت إلى آخر، ظهرت له حفنة من الأزرار الملونة. بين مشاعر الخجل العميق غير المبرر له والغضب الشديد سأل طفله عن سبب سرقته للأزرار، فجاءت إجابته بصيغة طفولية محببة حقا: "حتى ابيعها."

كيف سيكون مسار ''عبدل'' لو أن أباه تعامل معه بقليل من الدعابة؟ لو أنه اكتشف قدراته الكامنة التي نمّت عنها سرقته

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

البريئة؟ بدلا من ذلك انفجر غاضبا في وجه أمه، اقسم تحت سيل عباراته النارية بتغيير اسم ابنه إلى العكس.

في الصباح التالي، أدرك الأب بعد استرجاع هدوئه، خطأ تسرعه في إطلاق القسم: أن يجعل ابنه عبدا للنهّاب. ألن يكون ذلك تدميرا كاملا لمستقبله؟ أن يحوله أضحوكة أبدية للجميع؟ مع ذلك، فالقسم هو القسم، ولردعه عن تنفيذ قسمه، تدخل الكثير من أقاربه دون جدوى، لكنه في الأخير، وبعد توسلات الأم الباكية، وافق على استشارة إمام مسجد المحلة، وجاء الحل مرضيا للجميع: ليُبقِ الأب من اسم ابنه المقطع الأول، وبإمكانه أن يردد في قلبه أي اسم يشاؤه بعد ''عبدل''.

* * *

لم يتطلب الأمر وقتا طويلا كي يضع ''عبدل'' تحفظاته جانبا تجاه ''جوانا''، إذ جاءه صوتها صاخبا ومفرطا بطفوليته، فما كان يدور في ذهنها ينعكس مباشرة فوق لسانها. ما إن أبدى ''عبدل'' إعجابه بكلبها حتى اندفعت تتحدث عن مآثره، كأن ''بيب'' طفل معجزة اكثر منه كلبا. استرجعت بعض حيله التي كان يقوم بها للبقاء في فراشها كل ليلة، عدا عن قدراته الخارقة في التمييز بين الأصدقاء. منذ فترة طويلة، أصبحت ''جوانا'' تعتمد على فراسة كلبها في قبول الغرباء أو رفضهم، ولا بدّ أن رضاه عن ''عبدل'' والمضي في هز ذيله فرحا قد شجع سيدته للانبساط معه اكثر بكثير مما توقعه.

لا استبعد أن يكون ''عبدل'' قد قرر في لقائه الأول بجوانا الاقتران بها، إذ في غمرة حديثها عن أصدقائها الكثيرين تلمس تلك العزلة العميقة التي تعيشها، ففقدانها لما يمكن تسميته

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بالحذق الاجتماعي، يجعلها موضوعا للشفقة أو الاستهزاء، وفي بلد مثل إنجلترا، يصبح الفرد العاجز عن تقنين التعبير عن مشاعره، في الأخير، شخصا مخبولا يطلق عليه اسم "غريب الأطوار"، ولا استبعد أن تكون ''جوانا'' قد حازت هذا اللقب بين بعض من تعتبرهم أصدقاء حميمين لها.

عرف ''عبدل'' في اللقاء الأول الكثير عن ''جوانا'': شيئا عن طفولتها، عن عملها، عن أسرتها، عن هواياتها. ولم يحتج إلى بذل أي جهد سوى التظاهر بالإنصات الشديد لها. أخرجت له دفترا أنيقا من حقيبتها، فتحته بحذر شديد له: "أنظر.. هذا توقيع شون كونري، وهذا لرينغو ستار.. هل تصدق أنني شاهدتهما عن قرب.. ألا تجدني محظوظة جدا.. تصور: جيمس بوند الأصلي يقول لي شكرا"

* * *

حينما اقلّب في ملامح ''عبدل'' و ''جوانا'' تحضرني جملة ''سوفوكليس'' الشهيرة: "الشخصية قدر". الشيء الوحيد الذي يمكن إضافته هو أن القدر حضر أولا عبر حادثة ما. في حالة ''عبدل'': سرقته لبعض أزرار الملابس في سن الطفولة المبكرة، ظنا منه أن ذلك سيفرح أباه، لكن الحالة مختلفة بالنسبة لجوانا: بعد قضاء سنوات عديدة على فقدانها السمع اكتشفت أمها الحقيقة. ولم يتطلب الأمر سوى نقلها إلى سويسرا ووضعها في مدرسة داخلية خاصة تقع فوق جبال الألب، ومثلما توقع الطبيب، استرجعت ''جوانا'' سمعها بفضل ارتفاع مكان إقامتها الشاهق، ورجعت إلى لندن بعد ثلاثة أعوام. لا بدّ من القول إنها تعلمت في منطقة الألب عدة مهارات مكّنتها من العمل في إحدى روضات الأطفال الراقية: قليلا من الفرنسية،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الرسم والعزف على البيانو، بشكل يناسب متطلبات الأطفال. الشيء الوحيد الذي فقدته نتيجة التأخر في اكتشاف عاهتها، هو القدرة على التأقلم مع الوسط الخارجي، لعدم اكتسابها تلك الشفرة الاجتماعية التي يمتلكها كل شعب، والتي بواسطتها تتحدد طرائق التواصل التلقائي بين أفراده. لعل فشلها في التأقلم، ينتقل لا شعوريا إلى مزاجها المتقلب بين المرح الصاخب لحد الجنون والكآبة الحادة التي تدفعها للانغلاق في حجرتها عدة أيام، لتندفع بعد ذلك إلى الآخرين بشكل مفرط يتعارض مع روح التحفظ والكياسة اللذين يتميز بهما أبناء الطبقة الوسطى الإنجليزية.

لم تكن ''جوانا'' قادرة على تحديد طبيعة الآخر واهتماماته حينما تنغمر معه في أي حديث، فكأن الجميع نسخ متشابهة، وهذا ما يدفعها للانجراف في التنقل من موضوع إلى آخر بنفس الحمية، ومن مجال شعوري ما كالبكاء إلى الضحك الهستيري، ولعلها وجدت في إنصات ''عبدل'' الكبير لأحاديثها والتواصل معها عبر طرح الأسئلة التي تنم عن شغفه بحكاياتها، شيئا خارقا للمألوف، جعلها تسترجع قدرا كبيرا من الثقة بالنفس. لأول مرة شعرت ''جوانا'' بأهميتها خارج دائرة العمل. فمع ''عبدل'' كانت تقضي الساعات متحدثة عن تلاميذها الصغار وقدراتهم الفردية، عن بعض الآباء المزعجين وطلباتهم اللحوحة في تعليم أبنائهم القراءة والكتابة حتى قبل تجاوزهم الثلاثة أعوام.

* * *

حدث لقاء ''عبدل'' بـ ''جوانا'' الأول قبل انتهاء فترة الإقامة الممنوحة له بيومين، مع ذلك قرر البقاء بشكل غير شرعي في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بريطانيا، متجنبا في الوقت نفسه، نقل مشاعر القلق التي كانت تنتابه إليها. بدلا عن ذلك راح يتجنب الاتصال بها تلفونيا، على الرغم من نجاحه في شدها إليه.

لم يستغرق انتظاره طويلا. جاءه صوتها، عبر التلفون، مفعما بفرح طفولي، بعد مضي يومين على لقائهما الأخير. دعاها للذهاب إلى مطعم يطل على نهر التيمز، وتعزف فيه موسيقى الجاز. كان الجو ساحرا حقا، مناسبا للمزاج الحالم الذي تعيشه ''جوانا'' غالبا. وتحت وطأة كأسين من النبيذ الأحمر، اندفعت فوق حلبة الرقص بحركات متقنة، وحينما مرر ''عبدل'' أصابعه فوق وركها تلمس الخبايا التي ظلت مهملة من قبل الرجال تحت أسباب لا صلة لها بمتع الحواس الحقيقية، وبعد فاصل الموسيقى الهادئة، اندفعت موسيقى السامبا لتخرج مرافقته قليلا عن طورها. ولعل الخوف من التصادم بجوانا المنفلتة وسط الحلبة دفع الراقصين الآخرين إلى الانسحاب واحدا اثر واحد، ليكتفوا بمتابعتها، وعلى وجوههم ارتسمت مشاعر الشفقة أو السخرية. آنذاك كان العرق ينسكب بغزارة فوق وجه ''جوانا'' ملطخا أصباغ الماكياج بعضها ببعض، لكن ''عبدل'' لم يأبه بمن حوله، بل جعلها تشعر في تلك الدقائق أنهما وحدهما في تلك الصالة شبه المعتمة، وان الفرقة لا تعزف إلاّ لهما. في الطريق المجاور للنهر، همست ''جوانا'' بصوت مختنق: "ما رأيك لو أكملنا السهرة في بيتي؟"

* * *

منذ سن مبكرة، ظهرت لدى ''عبدل'' صفتان جعلتاه متميزا لا عن أخوته فحسب بل عن جميع أقاربه: قدرته على التخطيط الصامت والبعيد الأمد للوصول إلى أهدافه، ونجاحه في كسب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

المال، فإن يكن أبوه لم يترك بعد وفاته شيئا سوى البيت الذي ورثه عن أسلافه وتقاعده الضئيل، فإن ''عبدل'' بدأ باكتناز النقود قبل تجاوزه العشرة أعوام. أول خطوة قام بها خارج عالم الطفولة هو وضع كل ألعابه في سلة وعرضها للبيع قرب المسجد. كم سببت تلك المبادرة حرجا للأب الذي لم يكن ليحترم أي عمل خارج دوائر الدولة، لكنه مع مرور الوقت أصبح مقتنعا بأن ابنه البكر ليس إلاّ عقوبة سماوية، حلت به عن إثم قام به أحد أجداده، ولعل هذه القناعة جعلته مستعدا لتقبل كل ما يصل عن ''عبدل'' من أفعال "شيطانية" غريبة. ألم تكن حادثة الأزرار الملونة رسالة واضحة من الغيب عما سيؤول إليه ابنه. مع ذلك كانت هناك قناعة متخفية أخرى في أعماق الأب عن تأثير تبديل اسم طفله على شخصيته. وإذا كان هو قد التزم بتنفيذ قسمه خوفا من غضب الرب فإنه في الوقت نفسه رفض منحة الرب التي جعلت ابنه عبدا للاسم الإلهي: ''الوهّاب''.

* * *

هذا الاكتشاف المبكر لقدرته على تحويل الأشياء إلى نقود منح ''عبدل'' شعورا عميقا بالانفصال عن الآخرين، فمباهجه الحقيقية تكمن في تلك الدقائق التي يختلسها بعيدا عن أعين أفراد أسرته، حيث يمضي متلمسا الأوراق النقدية المحشورة في علب كرتون مخفية داخل جرار مقفل دائما.

لم يمض وقت طويل على بيع لعبه حتى حلت العطلة الصيفية، وبدلا من الانغمار في اللعب مع صبيان محلته، أبدى ''عبدل'' لأبيه رغبته في العمل لدى جارهم النجار. ولم يُظهر الآخر سوى ترحيب بطلب الأب، خصوصا أنه لن يدفع أي أجر لابن صديقه. كان شرطه الوحيد أن يجرب ''عبدل''

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أسبوعا واحدا، وحال انقضاء تلك الفترة، عبّر النجار للأب عن رضاه الكبير بعمل ''عبدل''، بل هو أشار إلى قدرته الهائلة في التعلم السريع: "ابنك موهوب.. أتمنى لو أن أبنائي عندهم ربع شطارته."

كان الهدف وراء انكباب ''عبدل'' على تعلم النجارة، رغبة بعض زملاء المدرسة في الحصول على مضارب للعبة المنضدة بسعر زهيد، وما أن بدأت السنة الدراسية الجديدة حتى كان ''عبدل'' قد هيأ من فضلات الخشب التي تركها النجار مجموعة أنيقة من المضارب المصقولة بالوارنيش. لكن رغبات التلاميذ لا تقف عند حد. ها هو يحفزهم لشراء صناديق ومكبرات صوت وطاولات صغيرة وأشياء أخرى.

في ذلك العمر المبكر، كان ممكنا تلمس تلك الإرادة القوية التي تختفي وراء جسد ''عبدل'' الضئيل، ولا بدّ أن العمل الشاق الذي انكب عليه منذ ذلك الوقت منح كيانه عند بلوغه سن المراهقة صلابة ومرونة يحسده عليهما الكثير من زملائه. وليس مستبعدا أن تكون الغيرة وراء إطلاقهم أسماء شائنة عليه، ظلت مرافقة له طويلا: ''عبد الشيطان''، ''عبد المال''.. لكن ذلك لم يزعج ''عبدل'' كثيرا، إذ ظل معنيا اكثر من أي شيء آخر بالمشاريع التي ستدر عليه النقود. إضافة إلى أن شعوره بالتفوق على زملائه جعله في أعماقه يحتقرهم: أليسوا هم الذين يدفعون له لا العكس. كأن اتجاه حركة النقود هو الذي يحدد التفوق والامتياز.

اشتكت الأم لزوجها ذات مرة من استغلال ''عبدل'' لأخوته الصغار؛ كيف يشغّلهم طوال ساعات النهار في صقل ألواح الخشب بالورق المرمّل مقابل قطع حلوى صغيرة. لكنه على

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الرغم من توبيخ أبيه الحاد لم يتراجع عن حجته: "أنا أعلمهم حرفة.. أحسن من أن يضيعوا وقتهم بلا فائدة."

* * *

ينتابني الشك كثيرا بمشاعر الوجد التي كانت تتسرب إلى أنفاس ''عبدل'' عند مروره بحديقة "ريجنت بارك"، إذ ما زالت ''جوانا'' تسكن قريبا منها، مواصِلة نفس نمط حياتها، وعلى الرغم من القطيعة التي وقعت بينهما بعد الطلاق، فإنها بالتأكيد ستفرح للقاء ''عبدل'' لو أنه بادر بالاتصال تلفونيا بها ودعوتها لمقهى. مع ذلك، فهو لن يتردد في الهروب من عينيها لو أنها ظهرت في هذه اللحظة أمامه. يمكن القول إن ما كان يخلق ذلك الانشداد لديه هو الألق الذي ما انفكت تصنعه الذاكرة حول بعض لحظات عيشه مع ''جوانا''، خصوصا لحظات اللقاء الأول الحافل بالسحر. وهو بتجنبه لها الآن يسعى إلى الاحتفاظ بصورة الماضي حية في ذاكرته.

أو لعله الندم، أحيانا، وراء هذا التوق: الندم على عدم الاستمرار معها فترة أطول. تحضره من وقت إلى آخر، الأمسية الأولى التي قضاها مع ''جوانا'' بعد عودتهما من مطعم الجاز. فحال وصولهما إلى بيتها حل سكون غريب بينهما. اكتفت بإشعال الشموع ووضع أسطوانة السوناتات الليلية" لشوبان كخلفية واطئة قادمة من مكان بعيد. غمر ''جوانا'' هدوء مشرّب بحزن شفيف مخالف تماما لذلك الاندفاع الأهوج الذي تلبسها في المطعم.

تسترجع ذاكرته، بشغف، حجرة نوم ''جوانا''؛ لون الجدران الأرجواني، وستائر المخمل ذات اللون الأحمر الغامق. وحينما

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أمرّ باطن كفه فوق ثديها الأيمن الجسيم، تسرب إلى جسدها تيار كهربائي، جعلها تختض لا إراديا. تحركت يداها تتلمسان شعره ووجهه وأذنيه بعشوائية. كانت عينا ''جوانا'' مغمضتين وشفتاها متباعدتين قليلا، تنمّان عن ابتسامة طائشة، خلقت في نفسه خوفا من المضي أبعد، لكن ذراعيها القويتين لم تعطياه الفرصة للإفلات. بدت لـ''عبدل'' صورة جسده فوق مرآة الخزانة الطويلة كسمكة ضئيلة بين أذرع أخطبوط عملاق. كانت ''جوانا'' منهمكة آنذاك بين الضحك الهستيري والبكاء الصاخب؛ بين الانقباض والانكماش: حالما يقترب ''عبدل'' من الولوج تندفع ساقاها العبلاوان بإقصائه عنها لكنه ما إن ينكمش على نفسه حتى تعيداه إلى موقعه، فيشعر بالاختناق. فوق المرآة لمح ''عبدل''، وبشكل خاطف، قدميها متشابكتين بإصرار فوق ظهره، قبل أن يأخذه مدّ الشهوة مرغما إلى أحضانها.

عند الضحى استيقظ تدريجيا على هسهسة العصافير، مختلطة بموسيقى بيانو حزينة. وفي صالة الاستقبال شاهد ''جوانا'' جالسة وراء آلة البيانو، تعزف الكونشرتو الثاني لـ''رحماننوف''، والذي تحفظه عن ظهر قلب. جلس متأنيا على مقعد قريب من النافذة، متطلعا بدهشة إليها، كأنه يواجه امرأة لا صلة لها بتلك التي كان معها مساء البارحة. فلا بدّ أنها استيقظت مبكرا، واستطاعت أن تأخذ حماما وتمشط شعرها بضفيرة واحدة، قبل أن يصحو. كان الكلب ''بيب'' يجلس على كرسي، يتابع بشغف عزف سيدته، وحال انتهائها قفز بحماسة صوبها.

* * *

على الرغم من المشهد الآسر الذي عاشه ''عبدل'' ذلك

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الصباح، فإنه لم يترك في نفسه أثرا كبيرا، اللهم إلاّ تأكيد قناعته بأن ''جوانا'' متحرقة للارتباط به. لعله الرجل الأول الذي أخذ أنوثتها مأخذ الجد، واظهر إعجابا محضا بها.

عبر تلك الدقائق التي تشرق الآن في ذاكرته، كان منغمرا في التفكير بالخطوة الأخرى التي عليه اتخاذها. تذكر آنذاك ما رددته ''جوانا'' له، بأسلوب طفولي جارف، قبل لقائهما الجسدي الأول، عن ولعها بالعزف على البيانو قبل غروب الشمس، وكيف يثقل العابرون خطاهم وهم يمرون من جنب النافذة، ليلقوا نظرة على تلك الأميرة المستغرقة في كونشرتو ''رحماننوف''، كأنهم يتابعون مشهدا سينمائيا تتخلله الشموع.

لعلها، تلك الوحدة العميقة التي لا تجد ''جوانا'' الكلمات المناسبة للتعبير عنها، وراء ذلك السعي المحموم للاستعراض الذي يتحكم في تصرفاتها، كأنها، من دون أن تعلم، ظلت بسلوكها العفوي، تعمق مشاعر النفور منها لدى معارفها، في الوقت الذي هي تطمح للعكس.

قبل وفاة أمها، كانت ''جوانا'' تشعر أنها الطفلة المعجزة التي تحدّت عاهة فقدان السمع، إذ يكفيها أن تنظر في عيني الأم لتسترجع طاقة الإعجاب بنفسها. ولا بدّ أن العيش المشترك مع أمها عمّق لديها روح التمرد الصبياني والمشاكسة، وجعلها توقن أن هذا الوضع سيدوم إلى الأبد.

حينما التقت ''جوانا'' ''عبدل'' أول مرة، كان قد مضى على فقدانها الأم اكثر من خمسة أعوام، وفي البيت الذي ورثته عنها لم تجر أي تغييرات كبيرة عدا إعادة تأثيث حجرة الأم المطلة على "ريجنت بارك" لتأجيرها للطلبة الأجانب.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لم يأت قرار مجيء ''عبدل'' إلى لندن إلا نتيجة حوار سمعه في المقهى بين صديقين. يقيم أحدهما في بريطانيا، وعند استفسار الآخر عن الحياة هناك، اخبره المهاجر عن امتيازات الضمان الاجتماعي في حالة البطالة: الإيجار المدفوع والراتب الأسبوعي والطب المجاني.

قبل خروجه من المقهى، كان القرار مختمِرا في ذهن ''عبدل'': السفر مباشرة إلى لندن. كأنه تخيل وجود كنز مرمي في الطريق هناك، يلتقط المارة منه أنى شاءوا، وإن هو تأخر قليلا سينفد كله.

في تأمل النزوة التي حرضت ''عبدل'' على السفر وروح التخطيط للمستقبل تحضرني هذه الفكرة: يمكن وضع الناس ضمن ثلاث خانات من الذكاء: الذكاء المستجيب للحظة الحاضر، والآخر المستجيب للمستقبل، والثالث المستجيب للماضي، ولا يبدو أن بالإمكان امتلاك أكثر من ذكاء واحد. أين يمكن وضع ''عبدل'' ؟ بالتأكيد ضمن الخانة الثانية، ولعل هذه الفئة من الناس تمر بالحاضر دون أن تعيشه إلاّ كمنصة للمستقبل. النمل في عمله الدؤوب هو افضل الأمثلة القريبة لهم. أما بالنسبة للخانة الأولى فتسكن فيها فئات عديدة، منها الشهوانيون، وفي الخانة الثالثة يقيم أولئك المتخبطون في الحاضر، الذين لا يمتلكون ذكاء إلاّ في إدراك الماضي. هل يمكننا أن نضع الروائيين ضمن هذه الخانة؟ أليست حركتهم صوب الماضي شبيهة بحركة فراش العث صوب النار؟

سبَّب قرار ''عبدل'' المفاجئ بالسفر سخطا شديدا في نفس أبيه عليه، جعل ضغطه يرتفع بشكل خطير، وألزمه البقاء في الفراش أسبوعا. ولا بدَّ أن حادثة الأزرار الملونة عادت، مرة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أخـرى، إلـى ذاكرتـه بعـد دفنهـا فتـرةً طويلـة، خصوصـا أن ''عبدل'' أظهر طاعـة غريبـة لـه فـي الأشـهر الأخيـرة، جعلتـه يشك بكل هواجسه وتطيراته. كم جعلته موافقة ابنـه البكر علـى التقدم لخطبـة ''بيـداء'' سـعيدا. كأنـه كـان يـرى بـذلك الـزواج تجديدا لعرى الصداقة التي جمعتـه منذ الطفولـة بوالـد ''بيداء''. إذ على الرغم من المسافة الطويلة الفاصلة بينهمـا، ظـلا يلتقيـان علـى الأقـل مـرة واحـدة كـل سـنة. فـي شـبابهما كانـا يتـزاوران أكثر، يصطحب كل منهما أسرته إلى بيت الآخر أثناء العطلات المدرسية لقضاء عدة أيام.

لا بد أن اقتران ''عبدل'' بـ''بيداء'' سيمنحهما فرصة للالتقاء أكثـر؛ سيشـكلان أخيـرا عائلـة واحـدة، مثلمـا تعاهـدا فـي مراهقتهمـا، لكـن ابنـه العـاق خـرب أخيـرا كـل شـيء، بقـرار السفر، على الرغم من إصراره علـى الارتبـاط بـ''بيداء'' حـال إكمال دراسته الجامعية في بريطانيا.

* * *

مـا زالـت ذاكـرة ''عبـدل'' تصـر علـى شـقرة شـعر ''جوانـا'' وخضـرة عينيهـا، علـى الـرغم مـن بقائـه معهـا أكثـر مـن أربعـة أعوام. صحيح أنه لم يكن يرافقها قط إلى صالون التزيين، لكن اللمعـة التـي كـان شـعرها يكتسيه بعد عودتهـا منـه يفضـح لونـه الاصـطناعي. مـع ذلـك لا يمكـن استبعاد انغـلاق ''عبـدل'' علـى نفسه إلى الحد الـذي يجعلـه عـاجزا عـن رصـد ملامـح ''جوانـا'' المتغيرة. بل حتـى بصمات الـزمن التـي كانـت تظهـر واضـحة فوق وجهها كل صباح، بعد اختفـاء الماكيـاج، لـم تكـن تثيـر فـي نفسـه أي دهشـة: دهشـة تجـاه الفـارق بـين الصـورة البهيـة التـي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

انعكست في مخيلته عند مشاهدته الأولى لها والصورة الحقيقية الباهتة التي كانت تظهر له بعد الحمام.

يراها ''عبدل'' الآن، قريبة في ملامحها لجين مانسفيلد، فيخفق قلبه كلما مر بحديقة "ريجنت بارك". كأن ذاكرته مسحت بشكل كامل تلك الأوقات التي كان يقضيها كل يوم وهو يستمع إلى حكاياتها المتكررة عن مشاكل عملها، أو حينما يحل الليل ويكون عليه مضاجعتها، فيضطر، قبل التوجه صوب الفراش، إلى احتساء نصف قنينة ويسكي. كم ساعده ''بيب'' في الإفلات من التصاقها به، أحيانا، حينما كان يقترح اصطحاب الكلب إلى الحديقة.

حينما وصله جواز السفر البريطاني بالبريد لم يخبر ''جوانا'' بالأمر. بدلا من ذلك، أمضى ''عبدل'' الليل في مرقص بحي سوهو برفقة مومس، ولعلها المرة الأولى، في حياته، التي سمح بانفتاح حافظة نقوده دون حرج.

في طريقه إلى البيت كانت الخطة واضحة في ذهنه للتخلص من جوانا.

* * *

بعد انتهاء إجراءات الطلاق لم يتردد ''عبدل'' طويلا في اتخاذ قرار الزواج من ''بيداء''. كان أحد الأسباب وراء قراره هو الرغبة العميقة المتجذرة في لا شعوره لإثبات خطأ تصور أبيه السلبي حوله، إضافة لذلك الشعور بالخدر الذي يلامس أطرافه كلما حضرت ''بيداء'' في مخيلته. فعلى الرغم من غياب التماس الجسدي بينهما كان ظهورها أمامه يصعّد في روحه ذلك الشعور بقوة الامتلاك: لعله خجلها المفرط، قوامها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الأهيف، غمازتاها اللتان تذكرانه بالتفاح المتورد. كانت ذاكرته تستحضر ''بيداء'' في اللحظات الثقيلة التي يقضيها مع ''جوانا''، مستبدلا إياها بزوجته قبل بلوغه لحظة الذروة، وسط الظلمة التي تجمعهما ووسط صرخات ''جوانا'' الهستيرية.

لم يستغرق العرس طويلا في بغداد. كان ''عبدل'' يُمَنّي النفس بتعويض ما فاته من متع جسدية حتى وصولهما إلى لندن. هناك، وبعيدا عن أهلها، سيُدخلها إلى أسرار الجنس التي كشفتها له ''جوانا''، لكنه بدلا من البقاء منقبضا سيمنح جسده الحرية لاعتصار كل خلايا المتعة من جسد ''بيداء'' الغض. ولا بدّ أن ما سيدفعه من مصاريف القبول الدراسي الباهظة لها، ستعوضها مسرات الحب اليومية معها. قبل سفره إلى بغداد درس ''عبدل'' بتأن أفضل الطرق التي عليه اتباعها لجلب ''بيداء'' إلى لندن، ولجعل زواجهما يبدو ثمرة تعارف تلقائي بعد قدومها لغرض الدراسة.

* * *

عند ذهابهما إلى البلدية لإجراء مراسيم الزواج حضرت معهما للشهادة ''شهرزاد'' و''صالح''. كانت ''بيداء'' في بداية حملها، مما أجبرها على تركيز الماكياج فوق وجهها لإخفاء الشحوب عن ابنة عمتها. في الطريق إلى البلدية أيقظ الخريف البريطاني في روحها توقا غريبا، جعلها تندفع في بكاء صامت، وحينما التفت ''عبدل'' إليها مستفسرا راحت تكفكف دموعها بحافة قميصها. أشارت بيدها ضاحكة لشجرة متلفعة بألوان زاهية: "إنها تشبه العروس"

كان هدف ''عبدل'' من تكرار عقد القران في لندن إقصاء

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الشبهات عن مخططاته المسبقة تسهيلا لحصول ''بيداء'' على الإقامة الدائمة في بريطانيا. مع ذلك، أقنع ''عبدل'' نفسه، خلال الأشهر التي سبقت الذهاب إلى البلدية، أنهما صديقان يعيشان بلا زواج. كم سبّب هذا الوهم تصعيدا لشهواته صوب ''بيداء''، ولا بدّ أنها ستصاب بالشلل لو قرأت ما في رأسه، فكل ما قامت به من طاعة لنزواته تحققت تحت شعور عميق بتأدية دور الزوجة المثالية.

لاحظ ''عبدل'' أن ''بيداء'' تكرر غسل يديها كلما التقيا بـ''شهرزاد'' و''صالح''، وحينما استفسر عن السبب أنكرت ذلك. عند وصولها إلى لندن أبدت ''بيداء'' تلهفا كبيرا للقاء ابنة عمتها. في زيارتهما الأولى لها، أثار ديكور بيتها واللوحات المعلقة على الجدران رهبة في نفسيهما. خصوصا بالنسبة لبيداء، التي لم تلتق عيناها إلاّ بالأثاث في بيت أهلها أو عند الأصدقاء. انتابها شعور أنها في متحف، وأن عليها أن تكون حذرة في حركتها. بدت لها ابنة عمتها، تحت وطأة ذلك الشعور، لا صلة لها بتلك الفتاة المليئة بالمرح، التي غادرت العراق قبل عقدين. استدركت ''شهرزاد'': "هذا الأثاث من اختيار زوجي.. هو فنان". وحينما قرأت الفضول في أعينهما أضافت: "ستيفن مات منذ سنوات"

لكنهما في زيارتهما الثانية لها التقيا بـ''صالح''، وعلى الرغم من قلة كلامه، لاحظت ''بيداء'' حرصه على إرضاء ''شهرزاد''، إضافة إلى مشاركته في إعداد العشاء ثم قيامه بغسل الصحون. استأذن ''عبدل'' بالانصراف، بعد أن وقعت عيناه على الساعة الجدارية. كان في حوزتهما ربع ساعة فقط للحاق بآخر مترو، في وقت كان الكل منغمرا بحديث صاخب عن الوطن وما آلت إليه أوضاع الناس فيه. بدت ''شهرزاد''

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مشدودة لحكايات الآخرين وتطمح بالمزيد. قالت بإلحاح: "لماذا لا تبقيان الليلة هنا؟ غرفة ''هيلين'' فارغة"

وسط أواخر الليل استيقظت ''بيداء'' على صوت متقطع شبيه بمواء قطة، يتسرب عبر الجدار المجاور لها، وحينما أصخت السمع، ميزت نحيبا نسائيا متقطعا يتصاعد عن تعشق جسدين ببعضهما البعض. حضرت إلى مخيلتها، للحظة واحدة، صورة ''شهرزاد'' وصديقها، لكنها طردتها بإصرار. إذ لم تترك ملامح ''صالح'' وحركاته في نفسها إلاّ شعورا بالاطمئنان، بل بدا لها في لحظات شروده، طفلا أُقصي قسرا عن أمه. اجتاحتها آنذاك مشاعر أمومة تجاهه، مثلما هي الحال تجاه أخوتها الصغار.

ظنت ''بيداء'' في البدء، أن حضور ''صالح'' إلى بيت ''شهرزاد'' هو لإصلاح عطب في التدفئة أو الكهرباء، لكنه عند بقائه معهم للعشاء ظنته واحدا من مرضاها، وحين قدّرت أنه لن يغادر إلى بيته ليلا حسبته خطيبا محتملا لـ''شهرزاد''، على الرغم من غياب خاتمي الخطوبة عن أصابعهما. استقرت قناعة عميقة في أعماق ''بيداء'' أن ''صالح'' كان ينام في غرفة الجلوس فشعرت بالراحة. تسرب إليها الكرى وسط شخير ''عبدل'' المنتظم.

استيقظت على أصوات وضحكات قادمة من غرفة الجلوس. كان عقربا الساعة المنضدية قد تجاوزا العاشرة. توقعت أن تجد الجميع جالسين على طاولة الطعام بانتظار قدومها فشعرت بالارتباك. نهضت مسرعة صوبهم. لكنها لم تجد سوى ابنة عمتها و''عبدل''. بدت ''شهرزاد'' متألقة ببجامتها الزهرية اللامعة، والشريط المطاطي الأسود الذي وضعته على جبهتها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ظنـت أن ''صـالح'' قـد غـادر البيـت، لكنهـا عنـد توجههـا إلـى الحمام شاهدته خارجا من حجرة ''شهرزاد''.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

القسم الثاني

ترويض الغيوم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منذ سنوات كفت ''شهرزاد'' عن استخدام كاميرتها، وكفت عن تصفح البوم صورها. وحينما زارتها ''بيداء'' لأول مرة في لندن مع ''عبدل''، أعطتها علبة خشبية مصقولة بالوارنيش ومنقوش فوق غطائها أسد بابل. "إنها هدية بابا لك" قالت ابنة خالها.

ولم تكن الهدية داخل الصندوق سوى حفنة صور قديمة التقطها الخال لها مع أفراد من عائلته في فترات مختلفة من طفولتها وصباها. تستطيع أن تقرأ الآن، على حافة بعضها، تواريخ تعود إلى الخمسينات. أكثر ما أدهشها تلك الصور الملتقطة في مدرستها. وحينما حاولت تذكر الشخص الذي أخذها انكمشت ذاكرتها اقصى ما تستطيع لتتركها أمام لغز عصي على الحل.

لا إراديا، أخذت ''شهرزاد'' تلك الصور ودفعتها بين صفحات الألبوم الضخم ثم أعادته إلى مكانه داخل خزانه الملابس، بعيدا عن عينيها، ومخفيا وراء أكداس من وثائق وأوراق قديمة.

إضافة إلى الصور، بعث الخال إليها بدفتر صغير ذي غلاف من المقوى الأسود. أدهشها أن تكون أوراقه عرضية. ولم تدرك سبب وجوده مع الصور داخل العلبة الخشبية. هل يكون الخال قد كتب رسالة إليها فيه؟ ما أثار استغرابها قدم ذلك الدفتر. فكثافة سواد الغلاف تضاءلت لتحول لونه في بعض المواقع إلى رمادي باهت، بينما كانت تنبعث منه رائحة أليفة لها وغريبة في آن: رائحة تلك الكتب القديمة الصفراء في بيت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

جدها. فحتى مع انطفاء ملامح ذلك الماضي عن ذاكرتها ظلت تلك الرائحة تهب أحيانا من وقت إلى آخر من نقطة مجهولة في روحها لتتركها في حالة دوار خفيف.

وضعت الدفتر، من دون فتحه، وسط الأسطوانات المصفوفة فوق رف في غرفة الجلوس. ستقرأه في وقت آخر. لكن هاجسا أيقظها عند منتصف الليل. ها هي تجد خطواتها تمضي بها صوبه، كأنها مُسرنَمة. ولم تدرك ما كانت تطالعه إلا بعد استرجاع صحوها كاملا. إنها أمام دفتر أوتوغرافات، وفي الكثير من صفحاته لصقت صور مراهقات يحيطها قلب بحافات مزهرة، وتحتها كتبت سطور بخط اليد.

جذبتها إحدى الصفحات: "صديقتي الأعز. اذكريني كلما دق الزمان أوتار قلبك وسأذكرك كلما تردد صداها في قلبي..." في صفحة أخرى واجهتها فتاة جميلة بشعر طويل يهبط على جانبي وجهها الدائري: "إلى اللقاء في المستقبل البعيد. متأكدة أنني سأتذكرك دائما".

قلبت صفحات دفتر الأوتوغرافات مرارا، سعيا لاستفزاز ذاكرتها. لكنها لم تحصد سوى فراغ مدهش. توقفت عند عبارة مكتوبة بخط أنيق: "ما الذكرى إلا صوت عذب يتردد صداه في مغاور كهوف الحياة". وفي اسفل الصفحة كتب التاريخ: 15 نيسان 1957. هل تكون هذه الصور لزميلاتها في مدرسة الراهبات؟ وهل يعود هذا الدفتر ذو الإطار المذهَّب لها؟ لعل الخال هو الذي اشتراه لها آنذاك هدية، تماشيا مع تقليد كان سائدا في بغداد: بدلا من الركض وراء المشاهير (على قلتهم آنذاك) كان الكثير من الطلبة يلاحقون رفاق دراستهم وأساتذتهم كي يتركوا آثارهم فوق دفاتر الأوتوغرافات المستوردة من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

إنجلترا. "ما الذكرى إلا ناقوس يدق فوق ظلمات النسيان..."

من أين كانت تلك العبارات الطنانة تستورد؟ لا بد أن هناك كتابا خاصا بها تتبادله زميلاتها لتجميل أسلوبهن، فما كن يكتبنه فوق تلك الصفحات سيبقى خالدا حسب ظنهن.

تتعرف الآن على أسماء صديقاتها وملامحهن من الدفتر الذي نسيت تماما وجوده، من دون أن تسترجع أي لحظة عيش معهن.

كيف وصل إلى يد خالها؟ لا بد أنه ذهب إلى بيتهم قبل استيلاء الانقلابيين عليه والتقطه مع أشياء ثمينة. سمعت من أمها آنذاك أنهم مدينون لأخيها بالكثير، فبفضله استرجعوا مصوغات ذهبية ونقودا، مكنتهم من البقاء في لندن حتى عثور الأب على عمل.

كان دفتر الأوتوغرافات الشيء الوحيد الذي نسي الخال إيصاله إليهم، لكنه، بعد عبور مياه كثيرة تحت الجسر، تذكره.

ها هو مستلق على الطاولة أمامها. فتمضي في تقليب صفحاته. تتوقف عند تلك العيون المبتسمة التي ما فتأت تحثها على عدم النسيان، فينتابها شعور بالذنب لخذلهم. تلمست بأناملها تلك الخدود الناعمة والشعور المصففة بعناية، لعل حاسة اللمس تساعدها على إيقاظ لحظة واحدة من ذلك الماضي الذي بدا قريبا جدا إليها، لكنه ظل منغلقا بإصرار مطلق على نفسه.

* * *

تذكّرني حالة ''شهرزاد'' بكتاب "رسالة الغفران" الذي سبق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

"الكوميديا الإلهية" بثلاثة قرون. وفيه يوصل المؤلف ''أبو العلاء المعري'' صديقه اللغوي ''ابن القارح'' إلى الجنة.

لكن الأخير على خلاف سكانها، يستمر في حرفته القديمة: التحقق من صحة هذا البيت الشعري أو ذاك، والتثبت من معنى هذه الكلمة أو تلك، من المبدعين أنفسهم.

يكتشف ''ابن القارح'' أن أولئك الشعراء الكبار الذين كرس حياته الأرضية لاستجلاء قصائدهم وتحليلها وحفظها من النسيان، نسوا هم أنفسهم إبداعاتهم. بدلا من ذلك استغرقوا كليا في ملذاتهم. فالفردوس وفق المعري هو المكان الذي تشبع فيه الرغبات الحسية مباشرة حال بروزها في الذهن.

برر كل منهم سبب النسيان بطريقة مختلفة عن غيره، فشاعر عظيم مثل ''الشماخ بن ضرار'' الذي اعتبر ''الأصمعي'' قصيدته الزائية أجود ما كتبه العرب على الزاي يجيبه غير مبال حينما يذكّره ''ابن القارح'' بها وبقصيدة مشهورة أخرى له على الجيم: "لقد شغلني عنهما النعيم الدائم فما اذكر منهما بيتا واحدا."

تتعمق خيبة ''ابن القارح'' حينما يلتقي بمبدع نظام العروض ''الخليل بن أحمد'' ويسأله عن أربعة أبيات راقصة كان اللغويون في الدار العاجلة يعتبرونها له. يجيبه الأخير: "لا أذكر شيئا من ذلك. ويجوز أن يكون ما قيل حقا". "أفنسيت وأنت أذكر العرب في عصرك؟" يسأله ''ابن القارح'' يائسا، فيقول ''الخليل'' بصوت مرتعش: "إن عبور الصراط ينفض الخَلَد مما استودع".

حينما يواجه بطل ''المعري'' ''آدم'' يكتشف أن أبا البشر هو الآخر تعرض إلى النسيان عند وصوله إلى الجنة. لكنه نسيان

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

من نوع آخر. فحينما يسأله عن بيتين من الشعر المكتوب بالعربية نسبا إليه ينكر ذلك بشدة. "كنت أتكلم بالعربية وأنا في الجنة، فلما هبطت إلى الأرض نقل لساني إلى السريانية" قال ''آدم'': "فلما ردني الله سبحانه وتعالى إلى الجنة عادت علي العربية" على ضوء ذلك لم يكن ممكنا أن يكتب شعرا بالعربية بعد فقدانه لها على الأرض.

لا استبعد أن يكون ''ابن القارح'' قد تساءل في أعماقه: هل تذكر ''آدم'' شيئا من حياته في الجنة بعد إقصائه عنها وحلول السريانية محل العربية على لسانه ؟ وبعد عودته إليها من الأرض، واسترجاعه العربية، هل يتذكر الآن شيئا من حياته في دار الفناء؟

تخيل اللغوي ''ابن القارح''، وهو يتأمل حال أبيه ''آدم''، الذاكرة وعاء ضخما مملوءا بالكلمات. ما الذي سيحدث لها لو تلبست عناصرها الأولية لغة أخرى؟ هل ستختفي تماما أم تصبح ذبذبات صوتية تغافلنا عبر الأحلام لتذكرنا بكينونتها الجديدة؟

بعكس أهل اللغة في الفردوس، يتمتع شعراء الجحيم في رسالة الغفران، بذاكرة حادة تمكنهم من مناقشة كل كلمة جاءت في شعرهم وما كانوا يعنون بها. ها هو يلتقي بمن يعتبره البعض أعظم شاعر للعربية: امرؤ القيس. فيسأله عما كان يعنيه بكلمة "البكر" في هذا المقطع: "كبكر المقاناة البياض بصفرة". وهل يجب رفع أو نصب أو جر كلمة البياض؟ فيمضي الشاعر الجاهلي مجيبا بذاكرة مثيرة للدهشة عن أسئلة اللغوي الشهير.

وهنا يأتي سؤال لم يقدم المعري جوابا له: هل كان إدخال

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

''ابن القارح'' إلى الجنة بذاكرة مملوءة عقابا له؟ أن يكون ما بينه وبين الغفران فترة اختبار عليه أن يقطعها قبل أن يتمتع بفردوس النسيان؟

* * *

اشترت ''شهرزاد'' قبل أسبوع آخر البوم لفرقة "بِينْك فْلويْد"، "أتمنى لو كنت هنا." لكنها لم تجد الوقت الكافي للاستماع إليه إلا اليوم.

منذ سنوات توصلت إلى هذا الاستنتاج: هناك اختلاف جوهري بين الراحة والسعادة. فهي تضع كل الامتيازات التي تتمتع بها ضمن خانة الراحة مثل البيت الأنيق المجاور لغابة هايغيت، السيارة الجديدة، والراتب الضخم. أما خانة السعادة فمخصصة لتلك اللحظات القليلة التي يذوب المرء فيها كليا بمحيطه حينما يشمله النسيان.

أنصتت مرارا إلى أول أغنية في الأسطوانة: الماس المجنون. قال لها ريتشارد أقرب أصدقاء ''ستيفن'' إليها، عبر الهاتف: إنها أعذب رثاء لصديق.

لكن صوت الموسيقى الفضائية ايقظ في ذاكرتها كبرق عابر ذلك المشهد: ها هي تتسكع مع ''ستيفن'' في حي سوهو. مطر خفيف ينث برقة عليهما، من سماء رمادية قريبة من اليد، تصلهما من احد البارات أغنية البيتلز الجديدة: كل ما تحتاج إليه هو الحب، فيزداد اقتراب جسديهما إلى بعضهما البعض. وفي مقهى البارتيزان انضما إلى حشد من المعارف والأصدقاء. كانت هناك نشارة خشب فوق الأرضية، وعلى أحد الجدران علقت لوحة ملاحظات مغطاة بمختلف النشرات.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

انتهزت فرصة انشغال ''ستيفن'' في الحديث مع شخصين للتوجه إليها، كانت هناك إعلانات عن مظاهرتين قادمتين. إحداهما للاحتجاج على الحرب الفيتنامية والأخرى للمطالبة بإجازة الماريوانا، بينما انتشرت فوق سطح اللوحة إعلانات عن أمسيات موسيقية وشعرية؛ عن محاضرات في شتى المواضيع الغريبة. تتذكر ذلك الإعلان عن محاضرة مخصصة لإثبات وجود الصحون الطائرة.

هل تذكر حينما كنت شابا، كنت تشرق مثل الشمس

استمر في الإشراق أيها الألماس المجنون

والآن هناك نظرة في عينيك، تجعلهما شبيهتين بثقبين أسودين في السماء

الالتصاق: هذه الصفة النسائية المحض. حتى حينما كانت يداهما تنفصلان عن بعضهما البعض، تظل قادرة على تلمس تلك الجسور اللامرئية المتخارجة عن جسدها مثل أذرع الأخطبوط لتتشبث بستيفن: تغمرها رائحة جسده فتشتهيه في تلك اللحظة. تتبع عيناها بشغف متصاعد تقاطيع وجهه المتبدلة في كل لحظة، بينما تظل أناملها تستطعم بشرة راحته الوردية. وحينما تغمض عينيها كانت تراه بالعين الثالثة بشكل أوضح وأجمل. ولعله شعر ذات مرة بما كان يعتمل في مكنون روحها حينما استعار جملة ميلورز بطل عشيق الليدي تشاترلي مع تحوير قليل لها: بعد كل النكاح المكثف الذي خضناه، حبيبتي، يجب أن نكون قد دخلنا الآن أرض العفة. فما كان منها إلا نكزته بكوعها، في وقت رمته بنظرة تفتعل الغضب وهي تقاوم ضحكة انفجرت في أعماقها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

فاجأتها كلمات الأغنية التي تحمل عنوان الألبوم: "أتمنى لو كنت هنا" فأعادت المقطع مرارا:

كم أتمنى، كم أتمنى لو كنت هنا

نحن لسنا سوى روحين ضائعين، يعومان

في وعاء سمك زجاجي، عاما بعد عام

راكضين فوق الأرضية القديمة نفسها، وماذا وجدنا؟

المخاوف القديمة نفسها

لكن ''ستيفن'' فضل الخروج من الوعاء الخاص بهما، حتى قبل رحيله النهائي. "احتاج إلى كمية هواء أكبر. أنا لا استحقك"، ردد جملته متجنبا النظر في عينيها.

* * *

يحكي لها ريتشارد عن أمه المصابة بالزهايمر، كيف أنها غافلت الممرضين في دار العجزة وخرجت إلى الشارع. وبدلا من العودة إلى بيتها الذي سكنته خلال الأربعين سنة الأخيرة من حياتها، حيث يقيم ابنها الأصغر ريتشارد الآن، ذهبت إلى بيت آخر، وحينما فتح صاحبه الباب، واجهته امرأة مسنة صارمة الملامح. "أي خدمة مدام؟" سألها بلطف، فلم يكن من أمه إلا أن تجيبه بنبرة متهكمة: "أي خدمة؟ ماذا تفعل هنا في بيتي؟"

قال ريتشارد بعد أن لمح استغرابا على وجهها. "هل تعرفين إلى أين ذهبت أمي؟ إلى بيت طفولتها. كانت على قناعة مطلقة بأنها غادرته قبل ساعة واحدة فقط." وفي دار العجزة ظلت تبكي بجزع على فقدان بيتها حتى غمرها النسيان الرحيم مرة أخرى.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

اكتشفت، وهي تستمع إلى ريتشارد، تشابها غريبا بينها وبين امه: في الكثير من أحلامها عن الماضي، تشاهد نفسها في بيت الطفولة العريق، قبل انتقال أسرتها إلى مسكن حديث يقع خارج أسوار بغداد القديمة.

كانت في سن السابعة حينما غادرت ذلك البيت إلى الأبد. مع ذلك ظلت تشاهده، في هيئة متاهة تتغير تفاصيلها مع كل حلم، لكن أصول لعبتها ثابتة. ها هي تقطع "المجاز" الطويل الفاصل بين الباب الخشبي العتيد والحوش الفسيح المغطى بالطابوق الأصفر، فتشعر بالانفراج لانتقالها بسلام من عتمة النفق المطبقة إلى الفناء المشرق بضوء النهار، المتسرب من مربع السماء المكشوفة فوقه. تمضي في التجول داخل حجراتها. تفاجئها تلك التُحفيات القادمة من شتى أنحاء العالم: كنبات وطاولات من خشب الأبنوس مطعمة بالعاج، تماثيل من الرخام الأبيض، تخوم من الخزف الصيني النادر، مجوهرات ومصوغات ذهبية... لكنها تبدو غير معنية بها. هناك شيء خاص بها تبحث عنه: هل هو محفظة، حقيبة، أم ثوب محدد؟

في كل مرة يقودها البحث إلى الطابق الأول وهناك يحل الليل حينما تكون وسط إحدى حجراته، فتغرق في عتمة الليل المفاجئة. أحيانا كانت تخرج من الغرفة وتقف عند حافة الدرابزون المطل على الحوش، لكنها تواجه ظلاما كثيفا. يتسرب القلق في أنفاسها: كيف سأخرج من هنا؟ بالمقابل تبدأ أصوات هامسة بالتصاعد حولها فيغمرها ذعر شديد.

كانت على وشك السفر إلى بغداد، حينما وصلتها برقية مفاجئة من أبيها، أجبرتها على إلغاء الفكرة: نحن قادمون

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

جميعا لقضاء الصيف معك. ولم يكن حضور الأب إلا جزءا من عمله. سيصل الملك إلى لندن في منتصف تموز، وعليه تنظيم برنامج استقباله وإقامته مسبقا.

مضت تسعة أشهر عليها آنذاك منذ مغادرة أسرتها. كم افتقدت أبويها واخويها خلال أول أسابيع الفراق. إنها المرة الأولى التي تبتعد عنهم أكثر من يوم. وفي مدرستها الداخلية ظلت عيناها تتعقبان حركة الزمن البطيئة فوق تقويم عام 1958 الملون. هناك طريق طويل ينتظرها قبل أداء امتحانات التأهل إلى الجامعة. تتذكر الآن ذلك الطقس الذي ما فتئت تكرره كل ليلة قبل النوم: إخراج الصورة المؤطرة التي تجمعها بأفراد أسرتها الصغيرة من الكومودينو المجاور لها لتمضي في التحديق بتقاطيعهم واحدا واحدا.

مع ذلك لم تتمكن من الالتقاء بهم عند وصولهم سوى مرة واحدة. كانت الامتحانات على الأبواب، وإن هي فشلت فيها ستلغى منحتها الدراسية الحكومية. قال الأب مُطَمْئنا: إنهما أسبوعان فقط وتنتهين منها. وعلى صفحة شهر تموز في تقويمها رسمت دائرة باللون الأحمر حول الرقم 18 آخر أيام امتحاناتها. كتبت تحته: يوم الانعتاق.

لذلك لم تعلم بوقوع ما حدث في يوم الرابع عشر إلا بعد أربعة أيام.

في طريقها إلى لندن، ظلت أفكارها مشتتة. كانت عيناها تتابعان المروج الخضراء وأعمدة الكهرباء المتحركة خارج القطار، بينما ظلت سحب بيضاء تغطي السماء، باستثناء فراغات زرقاء تتغير مساحتها باستمرار. من وقت إلى آخر كانت تلتقط التماعا مفاجئا للخضرة حينما تتمكن حزمة أشعة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

شمسية من الإفلات لحظة، فتنير المشهد أمامها. هل انتهت حقا من الامتحانات اليوم؟ أخبرها الأب أنها سترافق الأميرة فاضلة أثناء زيارة خطيبها الملك فيصل الثاني. ولا بد أن الأخير وصل الآن إلى لندن. فموعد مغادرته بغداد: الثامن من تموز.

في جناح الفندق المخصص لأسرتها، واجهها صمت غريب؛ بدلا من الاحتفاء بقدومها، ظهرت الأم بثوب أسود وعينين حمراوين، بينما راح أخوها الأصغر يتحرك من مكان إلى آخر باضطراب واضح، غير مدرك لما كان يحدث أمامه.

تحدثت الأم أخيرا وهي تنهنه دموعها: "وقع انقلاب عسكري ببغداد."

"لكن الملك هنا؟" سألت بنبرة واثقة من تسلمها جوابا واحدا: نعم. بدلا من ذلك، راحت أمها تهز رأسها بالنفي.

* * *

لم يكن ذهابها مع ''ستيفن'' إلى مؤتمر "ديالكتيك التحرر" إلا تحت دافع الفضول. المكان: راوند هاوس ثانية. لكنه بدا أنظف وأكثر ترتيبا من المرة السابقة. وأمام المدخل امتدت الأيدي إليهما عارضة منشورات بالوان مختلفة. اعجبها إعلان أصفر عن تأسيس جامعة لندن المضادة. وتحت قائمة أسماء المشرفين عليها، كتب بخط كبير: لا متطلبات رسمية.

تتذكر أنها وضعت في حقيبة كتفها آخر رواية صدرت لأغاثا كريستي: "ليلة لا نهاية لها". ومن وقت إلى آخر، كانت أصابعها تتسلل إليها بحذر، فتعيدها إلى مسار الحكاية، بعيدا عن صوت المحاضر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كان ''ستيفن'' يناكدها كلما رآها تقرأ كتابا لكريستي: "أنت مدمنة عليها... لا بد أن هناك شيئا مشتركا ما بين الأطباء والقتلة."

لكن محاضرا واحدا جذبها إليه بقوة: ''ستوكلي كارمايكل''. ولعل ذلك بسبب الاستياء الذي راح يطغى على وجوه المستمعين، مع تصاعد حدة نبرته الزاجرة. أعجبتها وسامته. بدا لها ممثلا يؤدي دورا: انتم ونحن. السود مقابل البيض؛ العالم الثالث مقابل الغرب؛ ''فيتاغورس'' لم يبتكر الهندسة: إنهم المصريون؛ و''الإسكندر المقدوني'' بكى في سن السادسة والعشرين لعدم وجود شعوب أخرى يقتلها. "لا شيء يستطيع الأبيض الليبرالي أن يعلمني إياه. وإذا أراد أن يعلّم شخصا آخر فليذهب ويعلّم أولئك البيض الذين هم بحاجة إلى التحضر."

ظلت افتتاحية "ليلة لا نهاية لها" تتردد فوق لسانها آنذاك: "في بدايتي نهايتي"، حتى حينما بدأ البعض بالخروج احتجاجا، بينما راح آخرون يدمدمون سعيا لإيقافه. كانت تيمة المؤتمر تحرير الذات من الداخل. وها هم يجدون أنفسهم متهمين أمام وكيل نيابة شديد الصرامة.

لا بد أن ''كارمايكل'' استشهد بزعيم ثوري معاصر حينما تحدث عن أهمية الكراهية في النضال ضد الأعداء. هل يمكن أن يكون ''تشي غيفارا''؟ وكيف علقَت كلماته في ذاكرتها حتى بعد تسع سنوات؟

"الكراهية كعنصر من النضال، كراهية العدو المتواصلة التي تقسرنا على تجاوز الحدود الطبيعية للإنسان، وتحولنا إلى مكائن قتل فعالة وعنيفة وباردة"

هل كان هذا النوع من الكراهية وراء ما فعله العباسيون

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بـالأمويين عنـد اسـتيلائهم علـى الحكـم ؟ فهـم لـم يكتفـوا بإبـادة الأحيـاء مـنهم بـل انقضّـوا علـى رفـات أمـواتهم. تحضـرها تلـك الصورة المشوشة التي تسربت من بغداد لبقايا جثة معلقة بحبل إلى سقف، وتحيطها وجوه مبتهجة. رددت الأم بفزع: يقولون إنه الوصي ''عبد الإله''.

عند وصولها إلى الفندق كان الأب معتكفا في حجرة النوم. انـدفعت للـدخول عليـه، فـارتفع صـوت الأم محـذرا: "لا تفتحـي الباب. سيغضب علي كثيرا."

ظلـت خـلال اليـومين اللاحقـين تصـغي إلـى حـديث أمهـا المتواصل عما جرى في صباح ذلك اليوم المشؤوم، بينمـا كـان صوت الأب يصلها أحيانا، عند ترتيله آيات معزية من القرآن: "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا".

"إنهـا الطـواويس التـي جلبوهـا إلـى قصـر الرحـاب قبـل شهرين،" قالت الأم، "أصواتها القبيحة كانت نذير شؤم".

بـدا لهـا الأب عنـد خروجـه أخيـراً أصـغر حجمـا، بينمـا تضاعفت الغضون فوق جبهته. كانت عيناه الحمراوان تزوغان عن الالتقاء بعينيها. هل شعر آنذاك بالخجل منها؟ الخجل مما حدث، أو الخجل من وضعه أمامها بالبيجاما، مجردا تماما من عزته. أو لعله الخجل من انهيار تلك الأحلام الوردية التي ما انفك يكررها على مسامعها: "سنستعيد قريبا كل الأراضي البـور التـي نجمـت عـن تحطـيم المغـول لنظـام الـري." أو "سيصبح العراق فردوس الشرق الأوسط بعد انتهاء شبكة السدود. ستستيقظ بابل وأور ونينوى من سباتها، ويعود بهاء الماضي لبغداد."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بدلا من ذلك راح يكرر عبارة نشرها قادة النظام الجديد: العهد البائد.

التفت إليها فجأة: "نحن أصبحنا جزءا من العصر الحجري. بلا أي أثر أو ذكر. مجرد وهم."

* * *

أخرجت ألبوم صورها المنتفخ تحت هاجس مُلِح. على غلافه الأحمر المقوى تجمعت طبقة غبار خفيف تمكن من التسرب عبر باب الخزانة بفضل ركون الدفتر طويلا هناك. كيف كان الناس، قبل عصر التصوير الفوتوغرافي، يتوثقون من حقيقة ماضيهم؟ تستطيع التمييز داخل الألبوم بين نوعين من الصور: تلك المثبتة فوق ورقة سميكة وترتبط فيما بينها بتسلسل زمني، وأخرى طارئة أقحمت نفسها خارج السياق. هناك أربع صفحات مخصصة لصور ''هيلين''، تخترقها صورة جانبية باهتة بحجم أكبر للملك فيصل الثاني وعند حافتها اليسرى يسكن توقيعه بحبر اسود وتحته التاريخ: 2 مايس 53. قرأت على ظهر الصورة بخط أبيها: عيد التتويج.

كان مقررا أن يسافر الملك الشاب إلى لندن قبل وقوع الانقلاب بأسبوع. لكن وزير المالية التمس منه تأخير سفره لبضعة أيام فقط. فهناك قوانين مهمة، تخص الاتحاد الهاشمي الوليد، على وشك الصدور وتحتاج إلى توقيعه.

تحت صورة الملك القتيل رقدت صورة تجمع ''ستيفن'' وأعضاء فرقته، خالية من أي إشارة لتاريخها. لا بد أنها التقطت بعد فترة قصيرة على تعارفهما، فوق منصة مسرح جامعي بلندن. تنجذب عيناها إلى جزماتهم الجلدية وسترهم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الشبيهة بسترة ماوتسي تونغ الشهيرة، لكن بألوان أكثر صخبا. كم ظل اسم الفرقة يتغير قبل استقراره على اسم واحد. عند لقائها الأول بستيفن كانت فرقتهم تدعى "الباحثون عن الطريق"، لكنهم اكتشفوا وجود فرقة أخرى تحمل الاسم نفسه، فحذفوا عبارة "الباحثون عن"، مكتفين بـ "الطريق". ولم يمض سوى أسبوع حتى برزت أمامهم فرقتان بالاسم نفسه، فانتقلوا إلى الكلمة الأولى فقط: "الباحثون". ومع تكرر الحالة انتقلوا إلى الاسم النقيض الذي أصبح علامتهم الفارقة المتبناة: "الضالون عن الطريق".

من صفحة أخرى، ظهرت حافة صورة مختلفة. ها هي عائلتها تسترجع من جديد استقرارها في أبو ظبي. على ظهرها كتب الأب بخط رقعة أنيق: إلى ابنتنا العزيزة. بانتظار قدومك إلينا.

بعد فقدانه لكل شيء، بدأ الأب من الصفر في لندن، مترجما للعقود التجارية بين الشركات البريطانية والدول العربية، ثم جاء العرض عبر أحد زبائنه الأثرياء المتنفذين في الإمارة، للمشاركة في بناء مؤسساتها الوليدة. ما زالت تحفظ مقطعا من رسالته الحماسية الأولى التي بعثها من أبو ظبي: "يذكّرني الوضع هنا بأول خطوات الدولة العراقية في العشرينات، حينما كنت لم أزل شابا، لكن من دون مكائد أو ضغائن. هل تصدقين أنني ممتلئ اليوم بحيوية الشباب وثقتهم الجارفة بالمستقبل ؟ لا اخفي عنك أن هناك غصة دائمة على بلدي وأنا أتابع الانقلابات والمذابح الدورية فيه. هل هي لعنة أبدية ؟"

صورة أخرى لها محاطة بحشد من المتظاهرين. لا بد أنها أخذت في ساحة الطرف الأغر. بدت كأنها سائحة وسط الوجوه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الصـارمة. تسـتطيع قـراءة بعـض اللافتـات المرفوعـة: امنعـوا القنبلة؛ اصنعوا الحب لا الحرب؛ النصر للفيتكونغ.

منـذ اتفـاق السـلام، هـبط هـدوء غريـب علـى أيـام السـبت. تتساءل أحيانا أثناء تنزهها في أماكن التجمع السابقة: أين ذهب آلاف المشاركين فـي الاحتجاجـات ضـد حـرب فيتنـام ؟ كم ظل منظموهـا دؤوبـين علـى عملهـم لسنوات ؟ ذهبـت ذات مـرة مـع ''ستيفن'' للمشاركة في التحضير لاعتصام تعده "لجنة التضامن مع فيتنام". لا بد أن المكان هو بيت أحد المنظمين الساكنين فـي منطقـة هـاكني. أدهشـها التعـاون بـين الحاضـرين الشـباب. بـدوا كأنهم خلية نحل في تقسيم المهام بينهم. علمت من بعد أنهم من تنظيمـات يسـارية متنازعـة: فوضـويون وتروتسـكيون وموسكوفيون ونقابيون وغرامشيون.

كان أحدهم يعد اللافتات الكرتونية المثبتة فوق عصي خشبية رقيقـة. التقطـت عيناهـا أحـد الشـعارات الغريبـة ضـد النابـالم: "اسكب غالون بترول فوق طفلك. دعه يحترق." كـان صـوت بـوب ديـلان يـأتي واهيـا مـن غرفـة أخـرى ممزوجـا بضـحكات نسائية مسترخية.

فـي طريـق عودتهمـا إلـى البيـت أبـدت دهشـتها لعمـل الفوضـويين المنظم. قـال ''ستيفن'' بنبـرة محايـدة ظاهريـا: إنهـا الفوضـى الخلاقة حبيبتي.

* * *

لـم يـأت لقاؤهـا الأول بسـتيفن إلا بفضـل تعاضـد جملـة مصـادفات غريبـة، جعلتهـا تتشـبث بالتواصـل معـه، كـأن هنـاك قـوى شـاركت فـي صـياغتها. قـوى غامضـة، رؤوم، كرسـت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

نفسها لإخراجها عن سياق مستقبلها المرسوم لها بدقة، وما عليها إلا أن تغمض عينيها، وتسلمها القياد.

كان فصح 1964 رماديا وباردا بشكل استثنائي، وفي الخارج ظل المطر دؤوبا وغزيرا، تعمق نقراته الرتيبة فوق زجاج النوافذ شعورا بأزليته. كم تكشف هذه الصورة الملتقطة لها مع طبيب آخر وممرضتين نوعا من الكآبة الخاصة بالطقس البريطاني: حالة تجمع ما بين الاستسلام الكامل له واليأس من مشاهدة الشمس ثانية. تستطيع تلمس تلك المشاعر المشتركة فوق الأعين، حتى مع أضواء النيون الساطعة وحلول قيامة الأحد والابتسامات المصطنعة أمام الكاميرا.

لعلها ندمت قليلا آنذاك لموافقتها على طلب زميلتها الإيرلندية. قبل حلول الجمعة الحزينة بيومين فقط، التمست ''ماري'' منها تغطية فترة نوبتها المجدوَلة لعطلة الفصح. فصديقها وافق أخيرا على زيارة أسرتها في يوم القيامة. قالت ضاحكة: إنها فرصة ذهبية قبل أن يبدل رأيه. وكان عليها السفر إلى دبلن مساء الخميس لتهيئة الجو المناسب في بيت أهلها.

لكن ندمها الحقيقي كان ضياع فرصة سفرها إلى أبو ظبي. تخيلت نفسها مرارا جالسة هناك في شرفة تطل على الخليج، تحت سماء صافية وشمس مشرقة تماما.

كان مقررا أن تتم خطبتها في تلك الرحلة إلى طبيب أكمل هو الآخر دراسته في إنجلترا، ثم حصل على عقد عمل مغرٍ في أبو ظبي.

حينما أخبرها الأب في رسالته الأخيرة عن طلب ''سمير'' ليدها منه، لم تجد سببا في داخلها لرفضه. فعلى قلة لقاءاتها به

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

خلال زياراتها لأهلها، ظلت مشاعرها تجاهه محايدة. كان الحديث بينهما يدور دائما بحضور أفراد من أسرتها، ودائما يدور حول دراستها أو حول عمله. أخبرها ذات مرة أنه يطمح للاستقرار في إنجلترا بعد تكوين ثروة مناسبة في أبو ظبي. لعل ذلك يقتضي عشرة أعوام عمل أخرى هناك.

بعد ترتيب نوبات عملها مع زميلين وحصولها على إجازة من إدارة المستشفى وصلتها برقية عاجلة من الأب، جعلتها تلغي فكرة السفر: الخطبة تأجلت. توفي جدّ ''سمير'' أمس.

بدلا من ذلك، اتفقت الأسرتان على قضاء العطلة الصيفية في لندن، بعد انتهاء فترة الحداد. هنا ستتم الخطبة وعقد القران معا، وحال انتهاء فترة تطبيقها الطبي في منتصف أيلول، ستسافر نهائيا إلى أبو ظبي.

تنتقل أصابعها إلى إحدى الصور التي جلبتها ''بيداء'' لها: ها هي جالسة على سلم قصير يربط ما بين مبنى المدرسة والحديقة، وإلى جوارها جلست أربع فتيات. لا بدّ أنهن كن الأقرب إليها. أدهشتها استدارة رؤوسهن المتماثلة قليلا لمواجهة الكاميرا. كم بدت تلك النظرة الحالمة الحزينة متماثلة أيضا فوق أعينهن. بمَ كُنَّ يُفكّرن؟ وأي حديث دار بينهن قبل الجلوس على السلالم والاستسلام كليا إلى عدسة الكاميرا؟ راودتها فكرة غامضة: إنها على متن قطار سريع في رحلة ذهاب فقط، وكل لحظة هي صورة فوتوغرافية تبتعد عنها أكثر فأكثر.

يظهر ''ستيفن'' أمامها في صورة أخرى. أين التقطتها له؟ على الأكثر في حديقة "ريجنت بارك"، ومن ملابسه تستطيع

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تحديد الموسم: إنه الصيف. قميص من حرير اصطناعي بياقة قصيرة وسروال تشارلستون عريض النهايتين.

عند دخولها القاعة، لم تنتبه إليه مباشرة. انشغلت تماما في فحص المرضى الأربعة المقابلين له، ولا بد أنه وجد الوقت الكافي آنذاك لحفظ تقاطيع وجهها.

ظلت عيناها منشغلتين بقراءة سجل ''ستيفن'' الطبي، حتى عند توقفها جنب سريره، بينما انشغلت ممرضتها بحديث ودي معه. "عيد فصح سعيد... تبدو اليوم أحسن بكثير."

كيف تستطيع الآن العثور على الكلمات لوصف ما عصف بها لحظة رفع رأسها صوبه. وصلها صوته أولا كنفحة هواء دافئ، لا صلة له بذلك الصباح الكابي الساكن وراء زجاج النافذة المغلقة، لا صلة له بآهات المرضى العجائز وراءها. شعرت بارتعاش في جسدها، لحظة تصادم بصريهما، دفعها إلى شد اللوحة أكثر إلى صدرها، سعيا لإخفاء ما اعتراها.

سأل ''ستيفن'' أثناء قياسها لضغط دمه: "متى سأخرج من المستشفى؟" قالت وهي تتجنب النظر إليه بينما أمسكت يدها اليمنى بكوع ذراعه اليسرى: "غدا إذا أحببت."

قبل مغادرة سريره وقعت عيناها عرَضا على الكومودينو المجاور له. حيث استقر دفتر للتخطيطات وكتاب ذو غلاف من المقوى. شدها فضول لمعرفة عنوانه، ولم تصدق عيناها أولا حينما التقطت "الليالي العربية". حضرتها للحظة سلسلة المصادفات التي آلت إلى ذلك اللقاء. "الليالي العربية": هل هي خاتمة لها أم بداية لسلسلة أخرى؟

"في بدايتي نهايتي".

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

سألته بطريقة كأنها لا تنتظر إجابة منه: "أين وصلت مع كتابك؟"، "أنا في بداية حكاية علاء الدين، لحظة عثوره على المصباح السحري". قال بعد صمت قصير.

استدرك، مذكرا إياها بأنه لم ينس اسمها الذي أعلنت الممرضة عنه، عند وصولهما إليه: "ما الذي سيجري لعلاء الدين على يد المغربي الساحر؟"

* * *

حتى بعد انجلاء الغموض عما حدث في بغداد، ظلت الأم حريصة على إعداد وجبات الطعام في أوقاتها، وظلت شديدة الحرص على العناية بالزوار المعزين.

هل كانت جاهلة بحقيقة انقطاع سبل العودة إلى العراق أمامهم؛ بحقيقة ضياع كل ممتلكاتهم هناك؟ أم لعله ذلك الاستسلام القدري الذي تشربت به منذ طفولتها؟ في كل خطوات حياتها كانت هناك أيد رؤوم تنقلها من حال إلى حال أحسن، ولا بد أن هذه الأيدي لن تتخلى عنها فجأة الآن.

"قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا." كم أصبحت تلك الآية ملازمة فوق لسانها آنذاك، بعد أن كررها الزوار كثيرا. لا تتذكر متى انفجر الأب في وجهها. لا بد أن أمها كانت تحمل صينية طعام صغيرة، وواقفة بجانب باب غرفة النوم المغلقة، حيث راحت تطرقه بإصرار. ومن غرفة الطعام سمعت ''شهرزاد''، أصوات ارتطام صحون وملاعق بعضها ببعض. ارتفع صوت أبيها بطريقة لم تسمعها من قبل. كان غاضبا، متحشرجا ومهزوما تماما: "هل فهمت من هم رجال العهد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

البائـد؟ إنهـم نحـن الأشـرار الـذين يجـب إزالـة أي أثـر لهـم، ومحوهم من ذاكرة الأحياء..."

حـاول الأب تنظيم حفل تـأبيني لضـحايا الانقلاب فـي مسـجد ريجنـت بـارك، لكـن إدارتـه رفضـت، وحينمـا تمكـن أخيـرا مـن حجز قاعة متواضعة في أطراف لندن، فوجئ بعدد الحاضـرين الضئيل.

قـال الأب بعـد عودتـه إلـى الفنـدق بنبـرة هازئـة: "أيـن ذهـب مئات الطلبـة المبعوثين الـذين كـانوا يحضـرون بانتظـام حفـلات السفارة ؟"

لكنها ذهبت معه إلى حفل تأبيني آخر جرى في كنيسة.

وفي هذه المرة، كانت القاعـة المتواضـعة مملـوءة بـالمعزين، بـل احتشـد آخـرون وقوفـا بـالقرب مـن البـاب. مـا أدهشـها كثـرة عصـي المشـي التـي حملهـا عـدد كبيـر مـن الحاضـرين، أثنـاء تقدمهم الثقيل صـوب مقاعدهم. بـدوا لهـا فـي كبريـائهم وثيـابهم العريقـة جـزءا مـن عـالم أوشـك علـى الاختفـاء: إمبراطوريـة لـم تكن الشمس لتغيب عنها.

لـم يحضـر إلا عـدد قليـل مـن العـراقيين ضـاعوا وسـط ذلـك الحشد الكبير من المسؤولين البريطـانيين السـابقين. تمكـن أبوهـا أن يميز بعضا مـن أولئـك الـذين عملـوا فـي العـراق بعـد تأسـيس النظـام الملكـي، حتـى بعـد انقضـاء عقـود علـى عـودتهم إلـى بريطانيا. هل قرأت فوق عينيـه توقـا لـزمن منطفـئ آخـر، وهـو يشـير إلـى شـيخ نحيـل وشـاحب لكنـه مـا زال يحـتفظ بقامـة مسـتقيمة؟ "إنـه الكولونيـل بِيـرْس جـويس،" قـال أبوهـا، "هـل حـدثتك عنـه؟ كـان مـن الـذين قـاتلوا مـع ''لـورنس'' إلـى جانـب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الملـك ''فيصـل الأول'' و''نـوري السـعيد'' ضـد العثمـانيين، وشارك في تدريب الجيش العراقي."

بـدا الجـو علـى رصـانته خفيفـا. ولعـل ذلـك بفضـل خاصـية يتميـز بهـا الإنجليـز: القـدرة علـى جعـل الحقـائق البشـعة تختفـي بطريقة سحرية، عن طريق التظاهر بعدم وجودها.

كانـت للخطبـاء علاقـة مـا علـى الأقل بواحـد مـن المغـدورين الثلاثة، الـذين كـان الانقلابيـون حريصـين جـدا علـى قتلهم معـا. وبدلا من التحدث عن هول اليوم الأخير من حياتهم، استرجعوا لحظـات جمعـتهم بهـم فـي أوقـات هانئـة أخـرى. لعلهـم كـانوا حريصـين علـى رسـم صـورة مشـتركة لهـم تتسـم بـأهم صـفة إنسانية يظن الكثير من الإنجليز أنهـا امتيـاز خـاص بهم: روح الدعابة.

تشـكل فـي نفسـها، للحظـة، انطبـاع غـامض: كـأن الضـحايا بريطانيون لا صلة لهم بالعراق.

بدت الخطب لها نوعا من الإمتاع. أو ربما نوعا من العزاء. وسيلة لامتصاص ذلك الحزن المشترك في نفوس الحاضرين. وها هي اللغة تعيد الموتى إلى الحياة بطريقة ما: كائنـات أثيريـة شاركت ذات يوم في تجميل حياتهم، وما زالت حاضرة معهم.

هل جاءتها هذه الفكرة وهي تتطلـع فـي الوجـوه المحيطـة بهـا عند الخـروج إلـى الباحـة الخلفيـة؟ خـلال سنوات قليلـة لـن يبقـى الكثير من الحاضرين على قيد الحياة.

تقدمت امرأة أنيقة صـوبهما برفقـة أحـد منظمـي الحفـل. بـدت لها بعصاها وقبعتها العريقتين جزءا من مـاض لا وجـود لـه إلا فـي روايـات جـين أوسـتن. بـدا جسـدها شـديد الهشاشـة تَعْتَـوِرُه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

رعشة العمر المتقدم. "الليدي ريتشموند،" قال المرافق وهو يقدمها إلى أبيها، "إنها أخت ''جيرترود بيل''".

* * *

شعرت عند وصولها إلى المستشفى صباحا برغبة عارمة في زيارة المرضى الداخليين، لكنها ظلت تؤجل جولتها بينهم. شيء ما اخترق مسار حياتها وعليها أن تتخلص منه قبل استفحاله. لم تنم ليلتها السابقة، أو لعلها نامت بشكل متقطع، على إيقاع نقرات المطر.

كيف تستطيع تبرير التحول الذي طرأ عليها آنذاك؟ كم مرة قلَّبت ملف ''ستيفن'' الطبي؟ سبب البقاء في المستشفى: آلام شديدة في البطن؛ العارض: التهاب حاد في الزائدة الدودية؛ العلاج: تدخل جراحي طارئ؛ العمر: 21 سنة. أصغر منها بعامين؛ المهنة: موسيقي.

مثلما توقعت، لم تجده في القاعة. كان سريره فارغا ومرتبا بانتظار قدوم مريض آخر. مع ذلك، وعلى عكس ما توقعته، غمرها شعور بخيبة من نوع خاص. خيبة تحقق ما توقعت حدوثه.

كيف سيكون رد فعلها لو أنه انتظر قدومها؟ على الأكثر، سينطفئ ذلك التوق المجنون الذي لم تعرف له مثيلا من قبل.

حينما عادت إلى العيادة وجدت فوق مكتبها مظروفا كبيرا. وعلى واجهته قرأت اسمها الكامل بخط يد مرتبك.

كانت صورة غريبة لها بقلم الفحم. بدت بملابسها وحليها المنتقاة من عصور قديمة أشبه بـ''شهرزاد'' الأصلية، ولعل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ذلك الرجل الخالي من الملامح والجالس فوق سرير عال كان ''شهريار''. بين يديها وضِع مصباح علاء الدين الشهير، بحجم أكبر مما هو عليه في الحكاية، وأمامها وقف المارد مغلفا بالضباب. ومثلما هو الحال في القصص المصورة نُقشت كلماته داخل إطار صغير قريب منه: شبَّيك لُبَّيْك... عبدك بين يديك.

على ظهر الصورة كتب ''ستيفن'' كلمات قليلة مرفقة برقم هاتف: سيكون رائعا لو التقينا لتناول القهوة معا.

لكن لقاءهما لم ينته بالقهوة.

ها هي لندن أخرى تنفتح أمامها معه. فتستجيب لها روح أخرى ظلت جاثمة بين ضلوعها، تنتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على مسار حياتها المستقيم.

يقودها ''ستيفن'' إلى أماكن لم تظن يوما أنها موجودة على أرض الواقع.

نادي "الأجسام الطائرة المجهولة".

تتبعه إلى ذلك السرداب المعتم في توتنهام كورت رود. وحينما تتردد قدماها في الهبوط أكثر صوبه، تسحبها يد ''ستيفن'' برفق مُطَمْئنةً.

اندفعت نبضات قلبها بعنف لحظة عبورها الباب على موسيقى صاخبة. انتابها شعور أن ما يفصلها عن الشارع العام لا مجرد عشرة سلالم قصيرة بل أميال تحت الأرض.

تستطيع حتى الآن في لحظات صفاء نادرة أن تشم رائحة هواء الصالة المشبع بدخان الحشيش، رائحة نفاذة ظلت تلازمها أينما ذهبت مع ستيفن.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

فاجأها عدد الحاضرين. كانوا في كل مكان. جلس بعضهم على الأرضية الخشبية. وبعضهم حول الطاولات، بينما انشغل آخرون بالرقص في حلبة صغيرة. تتذكر تلك المرآة الكروية فوق رؤوسهم، حيث انعكست فوقها أشعة ضوئية ملونة، في هيئة بقع مشعة تنتشر، بين لحظة وأخرى، فوق ملابسهم ووجوههم وأذرعهم المتحركة.

بعد فاصل الاستراحة، اعلن عريف الحفل بحماسة عن العرض اللاحق: "عالم آرثر براون المجنون".

دب نشاط مفاجئ في عروق الحاضرين.

بل حتى أولئك الذين كانوا جالسين على السلالم الموصلة إلى الشارع، التماسا لهواء نقي، عادوا مسرعين على صراخ المغني: "أنا إله نار الجحيم، وأنا أجلبك إليها". ليمضي في الغناء بإيقاع رتيب، شبيه بنبضات القلب، بينما راح وجهه المكسو بالأصباغ يتحرك كروبوت بانتظام سريع يمينا ويسارا، ومعه راحت ذراعاه تتحركان باتجاه معاكس.

سكنها خوف على المغني وهي تراقب النار الحقيقية المنبعثة من قمة خوذته المعدنية. كانت في هيئة تاج مزود بقرنين، فجعلته شبيها بصور الشياطين التي تخيلها رسامو القرون الوسطى، حيث النيران تحيط بها. لكنها الآن نيران وهمية صنعها مهندس إضاءة بارع، جنبا إلى جنب، مع دخان وهمي عائم فوق المنصة الخشبية.

اندفع المحيطون بها يرددون لازمة الأغنية بصوت عال كلما عاد آرثر براون لها: "النار، سآخذك إليها لتحترق.. النار، سآخذك إليها لتتعلم... سأراك وأنت تحترق"، بالمقابل حل الانخطاف ببعضهم إلى درجة مضت أجسادهم عندها تتلوى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

في تلك المنطقة المعتمة المجاورة للمنصة، صعودا ونزولا بحركة إيقاعية لا إرادية. ومن موقعها بدوا لها صورا مظللة، ذات خلفية منذرة بحلول الساعة.

حينما سألها ''ستيفن'' عن رأيها بذلك العرض اكتفت بهز رأسها: "كان حسنا". لا بد أنه قرأ انطباعا سلبيا على وجهها جعله يدافع عن الأغنية من دون سعي لقسر قناعته عليها: "يعتبرها البعض هجاء ساخرا للرأسمالية، ولإنسانها ذي البعد الواحد المحكوم بعبودية العمل والاستهلاك." أضاف متداركا: "إنها في نهاية المطاف إمتاع فقط."

لكن استهلاكا من نوع آخر فتح ''ستيفن'' بابه لها. فبدلا من محلات شارع أكسفورد الفاخرة، كانت ترافقه في جولات السبت بين أسواق السلع المستعملة.

تتلمس فوق صورتين ملصقتين في صفحة واحدة من ألبومها، التحول الكبير في موضات الشعر والملابس والحلي والأحذية والماكياج.

يجب أن يوحي كل شيء بعاديته ووقتيته، على عكس ما توحي به المنتجات الصناعية من فخامة وديمومة.

بدلا من الشعر القصير الذي يتطلب شده بـ "الرولات" كل ليلة للحفاظ على تموجاته، ساد الشعر المتروك على طبيعته إلى مستوى الكتف؛ وبدلا من التنورات الطويلة المصنوعة من أقمشة ناعمة وغالية، حلت محلها تنورات ضيقة وشديدة القصر من قماش الدنيم الخشن.

لعل سروال الجينز الذي ظهر في إحدى الصورتين هو الأول الذي ارتدته في حياتها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

علّمها ''ستيفن'' كيف تجعله ضيقا: الجلوس به وسط حوض مملوء بالماء. وللتخلص من قيمة الكمال السطحي الذي توهم الرأسمالية بوجوده في سلعها، علّمها كيف تشرطه في أماكن بارزة ثم تعيد شد خيوطه.

الهدف من كل ذلك إزالة التميز. أو بالأحرى التميز عبر التظاهر بعكسه.

لكن ''ستيفن'' ورفاقه لم يعتبروا عقار "أل أس دي" سلعة رأسمالية تلبي حاجة مصطنعة، بل وسيلة لرحلة تؤول إلى فردوس من نوع خاص: فردوس موت الأنا المؤقت، كما يسميها أندرو، عازف الجيتار الأول في فرقة ستيفن، حينما تزول الحواجز ما بين الذات والعالم الخارجي. أو كما قال ''ستيفن'' إنه حفار قبر النظام الرأسمالي، فبفضله سيصحو البشر على قيودهم.

ذهبت معه لزيارة صديق، سافر والداه الثريان لقضاء عطلة كريسماس في إيطاليا، وتركا له شقتهما الفاخرة في تشيلسي.

وهناك شاهدت عددا من أصدقاء ستيفن.

في صالة الاستقبال الفسيحة انقسم الحاضرون إلى ثلاث مجموعات. ضمت إحداها عددا من الذكور الذين جلسوا في زاوية منعزلة. بدوا لها كأنهم تحت سلطان منوم مغناطيسي، وهم يتابعون باندهاش شديد ذبابة كبيرة تتحرك فوق السقف من دون أن تسقط.

تتذكر تلك الأغنية التي ظلت تتكرر عبر سماعات مخفية داخل الجدران. أثار صراخ النوارس فيها شعورين متعارضين: اضطرابا خفيا منها وانشدادا قويا لها. تمكنت من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تمييز صوت جون لينن على الرغم من غرابته: بدا كأنه قادم عبر جدار، وهو يخاطب أولئك الذين نزلوا للتو إلى قاع اللاشعور بفضل عقار أل أس دي: اغلق عقلك، استرخ وعُم فوق التيار، إنه ليس احتضارا، إنه ليس احتضارا."

من مكان مجهول ظهرت لهما فتاة، يتبعها شاب. بدا كلاهما مسترخيين. أو لعل خجلا ما انتابهما عند عودتهما إلى الصالة. إذ كيف يمكن تبرير شد أذرعهما على صدريهما؟ سألت إحدى الجالسات الفتاة عند اقترابها من الكنبة الكبيرة: كيف كان مستوى الأورغازم؟ فما كان منها إلا أن مدت يدها اليمنى لتحركها يمينا ويسارا، كطير محلق، قبل أن تطلق عبارتها بفرنسية ثقيلة: نُصْ نُصْ.

لا تستبعد أنها قرأت اسم ''ولهلم رايخ'' لأول مرة في تلك الشقة حينما وقعت عيناها على كتابه: وظيفة الأورغازم، ملقى فوق إحدى الطاولات. وفي مقهى بارتيزان شاهدت اسمه ثانية. كان هناك إعلان عن محاضرة حول طاقة الأورغون، بمناسبة مرور عشرة أعوام على وفاة مكتشفها.

كانت القاعة غاصة بالحاضرين. ولم تكتشف مباشرة أنها في الكنيسة نفسها التي احتضنت حفل تأبين ضحايا 14 تموز. بدا المكان أصغر من صورته في ذاكرتها، أحدث، وأكثر إضاءة. لكن شعورها بقدم تلك المناسبة تعمق أكثر فأكثر وهي تتلفت حولها. ماذا سيحدث لأولئك المسنين لو أنهم شاهدوا آنذاك فتيات يرتدين سراويل أو تنورات "ميني جوب"؟ لا بد أن أكثر من نصفهم سيصاب بسكتة قلبية فورا.

مع ذلك فوجئت بالمحاضر مرتديا بدلة أنيقة وربطة عنق زرقاء.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بدا لها ممثلا تجاريا لشركة أكثر منه أكاديميا.

أورغون: اشتقاق من أورغازم: لحظة الذروة. حينما يحرر الذكر المنتفخ، قدرا من اللبيدو، سبق لرايخ أن قاسه في الثلاثينات، فوجده مشحونا بالكهرباء، ثم اطلق عليه لاحقا اسم طاقة الأورغون.

تلفتوا حولكم. هناك في اقصى الكون، تولد مجرة ما بفضل تراكب تيارين عملاقين من هذه الطاقة. يكفيكم أن ترصدوا حركة المجرات اللولبية لتكتشفوا تفاعل تيارات الأورغون. كذلك هو الحال مع نشوء الأعاصير.

طاقة الأورغون وراء كل عمليات الخلق في الكون. فهي تبطن كل الظواهر الحية والجامدة.

لكن المحاضر ذهب خطوة أبعد: الجماع هو التعبير الأساس لوظيفة تراكب هذه الطاقة في الطبيعة الحية، تياران منفصلان من طاقة الأورغون يجريان معا ثم يتراكبان في لحظة الأورغازم، ليتحررا خارج الجسدين، مُطلقين معهما كمّا كثيفا من المشاعر.

كذلك يمكننا التحكم بكمية الغيوم حسب حاجتنا للأمطار بفضل هذه الطاقة.

صنع رايخ أجهزة لترويض الغيوم.

أظهر المحاضر صورا عبر بروجكتر: "انظروا إلى هذه الغيمة قبل تسليط الجهاز صوبها، ثم انظروا إلى الفراغ الذي تركته وراءها بعد ذلك."

"لكن ما الذي يمكن فعله للأراضي العطشى؟" سأل أحد الحاضرين، "هل فكر رايخ بها؟" "بالتأكيد،" قال المحاضر،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

"نسيت أن أخبركم أنه صنع أجهزة ترويض أخرى للغيوم تنقلها من مكان إلى آخر."

* * *

جذبتها صورة أخرى محشورة وسط الألبوم: هي و''بيداء'' و''عبدل''، عند بوابة بلدية "كِنغز كروس". لا بد أن ''صالح'' التقطها بعد مغادرتهم مكتب تسجيل الزواج مباشرة. قال ''عبدل'' بحماسة وهو يسلمه كاميرته: "سأبعث بنسخة منها إلى أهل ''بيداء''. إنها صورة عائلية."

لازمها شعور غريب منذ لحظة دخولها المبنى. هل هو مزيج من ضيق وندم؟ لم تخبر العروسين أنها هي الأخرى حضرت إلى هنا مع ''ستيفن'' قبلهما بسنوات، وأن المكان لم يتغير عما كان عليه آنذاك: الكنبات الصفراء والورود الاصطناعية نفسها.

"كل شيء هنا يشبه مكاتب دفن الموتى باستثناء مصابيح النيون،" قال ''ستيفن'' متهكما، "هذا أقصى ما يستطيع الإنجليز فعله في التعبير عن أفراحهم"

لكن أصدقاءه جلبوا فرقة موسيقية نحاسية، لتعزف هنا أمام مبنى البلدية، بعد تسجيل زواجهما، بقرب البقعة التي التقطت فيها هذه الصورة.

تتذكر قدوم شرطيين صوبهم، ولا بد أن أكثر الحاضرين اعتادوا على غارات الشرطة، بين الحين والآخر، بحثا عن المخدرات عندهم. أما في هذه المرة، فاكتفى الزائران بتوزيع الابتسامات ومصافحة الأيدي مقابل تقليص وقت الموسيقى وانصراف الحشد المحتفل من الشارع بفترة أقصر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ظل مشهد رجال الشرطة المرافقين لمظاهرات لندن مثيرا لاستغرابها. كأن هناك اتفاقا مشتركا بين الطرفين لتقديم عرض منظم وخال من العنف، ليعود الجميع في آخر النهار إلى حياتهم السابقة.

حدثت مواجهة وحيدة أمامها: حينما حاول المتظاهرون احتلال السفارة الأميركية تضامنا مع الفيتكونغ. كانت تقف في الصفوف الخلفية مع ''ستيفن'' وريتشارد. ومن موقعها شاهدت، لأول مرة، عددا هائلا من رجال الشرطة حول المبنى. لم تصدق عينيها حينما رأت بعضهم يندفعون بقوة على ظهور الخيول صوب الحشود، ولم يمض وقت طويل قبل قدوم سيارات الإسعاف.

في الليل سكنتها الهواجس. لا بد أنها شاهدت في منامها صورا قديمة من بغداد: شوارع مهجورة، مفروشة بأحجار صغيرة استخدمها المتظاهرون ضد الشرطة؛ واجهات زجاجية مهشمة؛ أسلاك كهرباء مقطوعة؛ سيارات محروقة.

لكن دهشتها تضاعفت في صباح اليوم اللاحق، حينما وجدت كل شيء على حاله في منطقتها، بينما لم تكرس صحف الأحد للمظاهرة أكثر من صفحة واحدة. لا تتذكر في أي صحيفة شاهدت تلك الصورة: فتاة تجاهد للإفلات من قبضة رجلي شرطة يحملانها في وقت ارتفعت تنورتها الأنيقة إلى أعلى، كاشفة عن جوربيها ورباطيهما وسروالها الداخلي.

لم تسقط الحكومة مثلما كان الحال عليه في العراق بعد كل مظاهرة، ولم تُعلن الأحكام العرفية، ولم يُقتل أحد.

بل إن جمهورا عريضا تعاطف مع الخيول التي أصيبت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

خلال المواجهات. قال ''ستيفن'' بعد أيام إن الشرطة تسلمت مئات الرسائل تستفسر عن صحتها.

ظل أبوها أسيرا لكآبة حادة أشهرا بعد الانقلاب. كانت تصلهم، من وقت إلى آخر، أخبار المحاكمات لموظفي الدولة الكبار. سمعوا أنهم اصبحوا أبطالا لمسلسل هزلي يتابعه الناس بشغف على شاشات التلفزيون.

قال الأب: "الهدف الحقيقي هو فرض النسيان لمرحلة بأكملها."

لكنه فاجأها ذات مرة بفكرة غريبة: ""مس بيل'' أخطأت في جلب فيصل الأول من الحجاز وفرضه على العراقيين." قال متحسرا: "ستكون النتيجة مختلفة لو سمحت لعراقي قوي باعتلاء العرش: طالب النقيب مثلا... إنه حبها الأعمى له وراء مصائبنا اليوم."

* * *

غمرها هاجس غريب حينما التفتت إلى ستيفن، حال إعلان عريف الحفل عن خبر مفاجئ: وفاة ''برايان ابستاين''.

كانا يحضران حفلة لجيمي هيندريكس في مسرح سافيل. ولم تعرف أهمية المتوفى أو سبب الآهة المشتركة التي أطلقها الجمهور معا، قبل أن يهمس ''ستيفن'' في أذنها: إنه صانع ظاهرة البيتلز.

قرأت لاحقا عن سبب الوفاة، عبارة تجميلية، ظلت تتكرر آنذاك مرارا: "تناول جرعة عقار مفرطة"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

هل كان إفراطا في حبوب الامفيتامين؟ في الـ "أل أس دي"؟ في الحبوب المنومة؟

عزا الطبيب الجنائي أيضا، موت مس بيل إلى تناول جرعة مفرطة من عقار منوم اسمه دايَل.

"كان ذلك في صيف 1926، ببغداد،" قال الأب، "قبل يومين فقط من عيد ميلادها الثامن والخمسين" لعل القرار جاء في ساعة متأخرة من الليل، إذ كيف يمكن تفسير طلبها من الخادمة ''ماري'' أن توقظها عند السادسة؟

قال ''ستيفن'': "ابستاين حوّل البيتلز من نكرة إلى أشهر فرقة على سطح الأرض"

أخرجت صورة أعطاها الأب: فيصل الأول لحظة تنصيبه ملكا، يحوطه ثلاثة ضباط بريطانيين كبار. أشار أبوها آنذاك إلى رجل ستيني طويل ونحيل بملابس تشريفات أنيقة: "إنه برسي كوكس رئيس المفوضية البريطانية للعراق"

لعل فيصل الأول كان يفكر في تلك اللحظة بها: ما الذي دفع السكرتيرة الشرقية إلى المحاججة بقوة بين مسؤولي الاحتلال البريطاني لصالح تنصيبه ملكا على بلد لم يره من قبل حتى في أحلامه؟

لعله كان يبحث بين الحاضرين عن عينيها لكسب قدر من الطمأنينة، وسط عالم غريب عليه. ها هي ترشقه بابتسامة تضامن وهزة رأس: أنا هنا معك. لا تخش أي شيء. أنا عملت كل شيء من أجلك. هذا البلد الذي خِطتُ أجزاءه بعضا ببعض ورسمت حدوده وفرضت خارطته على العالم هو لك أمير أحلامي.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لكن الملك الجديد بدأ يبرم شيئا فشيئا من صانعه. مثلما هو الحال مع البيتلز.

بعد انتهائها من كتابة دستور لمملكته المتبناة وتشكيل مجلس نواب وحكومة وتصميم علم خاص، أصبح وجودها في العراق فائضا عن الحاجة.

كذلك هو الحال مع ابستاين، الذي أصبح مجرد موظف مالي لدى أعظم ما ابتكر: فرقة البيتلز.

يحضرها هذا السؤال باستمرار: لماذا لم تعد مس بيل بعد تتويج فيصل الأول إلى إنجلترا؟ بدلا من ذلك، قبلت بمنصب أول أمينة متحف عراقي أنشأته بنفسها على ما عثرت عليه من تُحفيات

حارسة آثار بدلا من صانعة ملوك.

كتبت ''مس بيل'' إلى أبيها بعد التتويج بأشهر قليلة: "قد تثق بشيء واحد: لن اشترك في صنع الملوك ثانية، إنه عمل جد مجهد"

حضرتها كلمة تمقتها كثيرا: التقاعد.

ما الذي سيفعله المرء بعد أن يصوغ أقدار أجيال لم تولد بعد؟ العناية بالزهور؟ الحياكة؟ سرد الحكايات الخرافية للأطفال؟

أن يرضى بقدره الجديد كإله متقاعد؟

تكتشف الآن لحظات سعادة أخرى ظلت تعيشها كل يوم من دون أن تدري: لحظات استغراقها الكلي في فحص مرضاها. إنها هنا من أجل هدف واحد: هزم الألم بانتزاعه من شخص مجهول تماما بالنسبة إليها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

هل تستطيع القول إن مستشفاها هو العالم الوحيد الذي تجد نفسها جزءا حقيقيا منه؟

في وصيتها تبرعت مس بيل بكل ما تملكه لإنشاء معهد متخصص في الآثار العراقية؛ هل ستتبرع هي أيضا بثروتها المتواضعة للمستشفى؟

* * *

وقعت عيناها على صورة خارج الألبوم. لا بد أنها وضعتها فوق التلفزيون ثم نسيتها. برزت ''بيداء'' أمامها ببطن هائلة لا تتناسب مع هيئتها. قال ''عبدل'' ضاحكا: هذه هي الصورة الوحيدة التي تظهر حملها. هل تعرفين أنها ظلت تمانع قبل ذلك؟

حينما زاراها أول مرة ظلت ذاكرتها عاجزة عن استرجاع أي صورة لطفولة ابنة خالها. لكنها اكتشفت فجأة شيئا غريبا شدها إليها: إنها تشبه أمها بشكل مثير للدهشة: العينان والشعر واستدارة الوجه ولون البشرة، بل حتى نبرة الصوت والتردد والرقة. كانت الأم تقول من وقت إلى آخر بفخر: انتم أخذتم كل شيء من أبيكم. لكنها لم تخبر ''بيداء'' باكتشافها. ولم تخبرها بقوة انشدادها إليها.

كان ''ستيفن'' يقول متشكيا: أنت لا تعبّرين عن مشاعرك بالكلمات. كيف أعرف إذا كنت راضية أو غاضبة على تصرفاتي؟

لعلها اقتنعت منذ سنوات أن المشاعر عصية على اللغة. خصوصا حينما لا تكون عبر اللغة الأم، وحينما تذوي الأخيرة، يصبح الصمت أفضل حاوية لها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أو ربما يعود ذلك إلى قناعة ترسخت في نفسها حتى قبل مغادرتها بغداد: اللغة مقبرة المشاعر. حالما تضعها في كلمات تتحول إلى جثة.

مع ذلك كانت أمها تكرر على مسامعها: أنت هكذا منذ طفولتك. لم تكوني تشكين من أي ألم، لكنك كنت عنيدة جدا أيضا، إذا قلتِ لا، يعني لا.

انشغلت أمها منذ سنوات ما بين لوس أنجلس وأبو ظبي؛ بين الابن والأب. فأخوها استقر هناك بعد إكمال دراسته الجامعية، أما أختها فانتقلت مع زوجها الطبيب إلى فرانكفورت.

كم أصبحت لقاءاتهم أبعد فأبعد. حينما تتكلم أختها الآن تقول: نحن الألمان. وحينما تلتقي ''هيلين'' بطفليها لا تجد معهما لغة للتفاهم.

لكن الكل ظلوا ملتزمين بالتواصل عبر بطاقات التهاني الخاصة بأعياد الميلاد وحلول السنة الجديدة، وملتزمين باستخدام صياغات جاهزة مكررة: كل عام وانتم بخير؛ عيد ميلاد سعيد؛ بلقائكم يتم الفرح والسرور...

ايقظ ظهور ''بيداء'' المفاجئ فيها شعورا غريبا: الانتماء إلى بقعة ما من العالم. هناك في بغداد، ظل أقاربها يولدون ويكبرون؛ يتزاوجون وينجبون؛ يمرضون ويموتون. وعبر الصور التي جلبتها ''بيداء'' معها كانت تستطيع تتبع أقدار أولئك الذين تركتهم وراءها. في صورة ترى طفلا ما، فتسأل عن اسمه وصلته العائلية بها، وفي أخرى تراه رجلا.

أهداها ''عبدل'' كاسيتات مغنين لم تسمع عنهم من قبل. ولم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تكـن تفهـم كلمـات أغـانيهم الريفيـة إلا بمسـاعدته أو بمسـاعدة ''بيداء'' أو ''صـالح''.

تلاقت أعينهم مندهشـة حينمـا سـألت عـن مغـن شـاب صـعد نجمه قبل مغادرتها بغداد: ناظم الغزالي. قال ''عبدل'' ضـاحكا: لقد مات منذ قرن. وماذا حدث لذلك المغني الأنيق الذي شاهدته علـى شاشـة التلفزيـون آنـذاك: حمـدان السـاحر؟ قـال ''صـالح'': اختفى مع مغنين آخرين بعد ثورة 14 تموز.

لم يمض علـى لقائهـا الأول بـ''صـالح'' طـويلا: قبـل وصـول ''بيداء'' إلى لندن بشهرين فقط.

حينما دعتها ''ماري'' إلى حفلة عشـاء، لـم تخبرهـا شـيئا عـن الضيوف، باستثناء قدوم قريبة لها تعمل مدرّسة في معهد تقني.

لكنها أخفت نصف الحقيقة عنها.

فهي كعادتها، تحب عمل المقالب الظريفـة بـالآخرين، لتـرى كيف ستكون ردود أفعـالهم، بينمـا تظـل تتظـاهر بـالبراءة، حتـى حينما تراهم يسقطون في شراك مكيدتها.

من قريبتها، علمت بوجود شـاب عراقـي يعمـل معهـا. "كيـف هو؟" "لطيف." "إذن ادعيه معك. تجنبـي إخبـاره أي شـيء عـن ''شهرزاد''."

لا بدّ أن ''مـاري'' ظلـت تراقبهمـا عـن كثـب، بعـد أن عرّفـت أحدهما بالآخر.

ولعل فضـولا راودهـا لمعرفـة مـا سـتؤول إليـه خـدعتها مـن نتائج: أي مسار جديد ستتبعه ضحيتاها الآن؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

القسم الثالث

أزرار ملونة (2)

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لم يغير ''عبدل'' اسم ابنه البكر حتى بعد اتضاح حقيقة وضعه. كانت أخبار وفاة الأب طرية في الذاكرة عند بدء ''بيداء'' مخاضها الطويل، وعلى الأكثر تشكل القرار آنذاك في ذهن ''عبدل'' بمنح اسم أبيه لطفله إذا كان ذكرا.

كان عمر ''سليم'' ستة أسابيع حينما وصلت ''عبدل'' رسالة من المستشفى تطلب منه، بإلحاح، الحضور مع "الطفل" والأم للقاء الطبيب الاختصاصي، وفي المستشفى تم إبلاغه، دفعة واحدة، بالنبأ اليقين. قال الطبيب بعد إلقاء نظرة متمعنة إلى طفله العاري الملقى فوق سرير المعاينة: "متأسف أن أخبركما بصحة شكوك الزائرة الصحية.. طفلكما عنده متلازمة ''داوْن''" وعلى الرغم من عدم فهمه للمصطلح سأل عبدل: "لكنه مرض مثل غيره وبالإمكان علاجه، أليس كذلك؟" وكأن الطبيب بانتظار هذه الإجابة، ليمضي في شرح أسباب هذه الظاهرة، بل هو أطفأ الضوء وأشعل "البْروجكْتَر" على صور أسقِطت فوق الجدار: "المشكلة هي بسبب الكروموسوم رقم 21 الذي لا ينشطر تماما إما في البويضة أو في الحيمن. وعند الاتحاد، تكون هناك ثلاثة أنصاف في ذلك الكروموسوم بدلا من اثنين." التفت الطبيب إلى أحد طلابه الثلاثة سائلا إياه: "تمعن فيه واخبرنا ما ترى"

غلت الدماء في عروق ''عبدل'' وهو يسمع الحوار الدائر بين الحاضرين حول ملامح طفله: "العينان مقتربتان إلى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الأنف.. الوجه مفلطح.. فتحة الفم ضيقة.. اللسان أعرض من الطبيعي."

لا بدّ أن صرخة ''عبدل'' كانت مدويّة إلى الدرجة التي أوقفت مسار النقاش ليحل محله صمت مطبق. أعقبه بكاء خافت متناوب راح ينطلق من الطفل المختض هلعا. التفت ''عبدل'' إلى ''بيداء'' آمرا إياها بالتقاط صغيرها، في الوقت نفسه انكبّ على صب شتائمه فوق رؤوس الأطباء الذين لم يفقهوا منها شيئا.

في طريق العودة، التزم ''عبدل'' بالصمت. كان بإمكانه سماع صوت نحيب واه قادم من مقعد السيارة الخلفي ممزوجا بخفقات المطر الناعم المتساقط فوق الزجاج الأمامي. تجنب آنذاك إلقاء نظرة، عبر المرآة، على ''بيداء'' والطفل.

* * *

انتابت ''عبدل'' مشاعر متعارضة حين أخبره الأخ الأصغر، تلفونيا، بوفاة أبيه. فعلى الرغم من ترسخ القناعة في نفسه أن الموت حضر للأب في الوقت المناسب، بعد رحلة عذاب طويلة وسط الأمراض والمستشفيات، ظل ندم خفيف يتسرب إليه بعدة طرق: من خلال الأحلام؛ من خلال ترديد عبارات أبيه الساخطة عليه، وأحيانا كان يجد نفسه في خضم حديث معه، مدافعا عن نفسه لعدم دعوته لزيارة لندن.

عند مغادرته الوطن، كان الأب في طور الانتقال من ذلك الشخص المستبد، الناري المزاج، مع أفراد أسرته، إلى آخر دمث يميل إلى التدخل في مشاكل البيت الصغيرة، وغالبا ما كان تدخله يسبِّب تعقيدا طريفا لها. هذا التحول حصل، بعد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

إحالته إلى التقاعد، إذ تدريجيا انكفأ إلى البيت على حساب الخروج إلى المقهى أو زيارة أصدقائه المتقاعدين، وتدريجيا اختفت، من ذاكرته، أسماء العاملين تحت أمرته مع تباعد الفترات الزمنية لمواعيد لقاء بعضهم به.

واظب ''عبدل'' منذ قدومه إلى لندن على كتابة رسالة واحدة لأبيه كل شهر، وفي كل رسائله القصيرة ظل ملتزما بتكرار الافتتاحية: "أبي العزيز"، والخاتمة: "دمتم لنا أبا حنونا" كان هذا الانتظام في المراسلة ناجما عن دأب الأب في التواصل مع ابنه المغترب عبر رسائل مطولة، تجبر ''عبدل'' على تجاوز فقرات منها بحثا عما هو جوهري.

ظهر هذا الميل للكتابة لدى الأب بعد إصابته الأولى بالجلطة القلبية، واضطراره للبقاء كل الوقت في البيت، ولا بدّ أن تعقد ظروف العيش التي كانت لا تبقي للأبناء الآخرين أي وقت، يقضونه معه، وراء انصرافه إلى التواصل مع الابن غير المفضَّل. قد يكون للفاصل المكاني الشاسع بين الابن والأب سبب إضافي لهذا التقارب، فبغياب الآخر من حياتنا يتحول مع مرور الوقت إلى كائن أجمل.

لم تكن رسائل الأب إلاّ مزيجا من تفاصيل عادية عما جرى للعائلة الكبيرة: الكلمات الجديدة التي رددها حفيداه؛ نوع السمك الذي تناولوه في آخر جمعة؛ أخبار الأقارب الذين زاروهم أخيرا، مع قليل من النميمة المطعمة بروح الدعابة. كم شعر ''عبدل'' بفارق بين الأب الذي فارقه والآخر الذي راح يراسله، بل لعل شكاً واهياً تسرب إليه حول مصدر الرسائل: أين ذلك الأب العتيد، صاحب المزاج المتقلب والحاد، من ذلك المرح المولع بالتفاصيل الهامشية؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مع ذلك، شعر ''عبدل'' بشيء من النفور من شخصية الأب الجديدة، وبالتصاقه أكثر بالأول، على الرغم من الحرب التي ظلت قائمة بينهما منذ حادثة الأزرار الملونة. لا بدّ من القول إن الأب على عنجهيته مع أفراد أسرته ظل متميزا بتلك الخاصية المحببة: سرعة نسيان الحادثة المسببة لغضبه، فحالما يستيقظ في الصباح يتصرف مع ضحية الأمس بمودة تنمّ عن قدر من الندم غير المصرَّح به. ولعل اكتشاف ''عبدل'' المبكر لهذا العنصر "الضعيف" في أبيه حرضه على مواصلة العصيان غير المعلن، وانجذاب كبير إلى الأفعال التي ما انفك الأب يعتبرها "خسيسة".

كانت بين سطور رسائل الأب الأخيرة رغبة خفية بأن يدعوه ''عبدل'' لزيارة لندن، إذ ظلت في مخيلته عاصمة للإمبراطورية التي لم تكن الشمس تغيب عنها، والتي عاصر بعض أمجادها أثناء فتوته، لكن ''عبدل'' تجاهل طلب أبيه، متذرعاً، لنفسه، بسوء الطقس وتكاليف النقل العالية، على الرغم من استعداد الأب لدفع الأجور بنفسه.

* * *

في البيت انكب ''عبدل'' على فحص ''سليم'' بدقة متناهية: فتح قبضتيه الصغيرتين المنغلقتين وتمعن في الأصابع الناعمة التي بدت له جد طبيعية، لكنه حين حرك بصره صوب وجه الطفل صدمته تلك الملامح التي لم يلتفت لها قط قبل تلك اللحظة. آنذاك، كانت عينا طفله مفتوحتين على اتساعهما تحت تأثير ضوء المصباح المعلق فوق السرير، ولسانه مندلقا قليلا إلى الخارج.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كانت ''بيداء'' واقفة وراءه، تفصلها عنه مسافة مترين، فوق وجهها استقر قناع شمعي شاحب، وعلى شفتيها ارتعاشة غامضة، جعلته يخنق تلك الحشرجات التي كادت تنفجر على لسانه بجملة مثل: "هذه طعنة في الصميم"، أو "هذا لعب غير نظيف." ولا بدّ أن ''عبدل'' قدّر آنذاك أن أي كلمة منه ستؤدي إلى انهيار زوجته الفوري.

كم تبدو الأحداث حريصة على تكرار مشهديتها عبر الأجيال؛ كأننا نتحرك في حلقة مفرغة، على الرغم من وقوعها في أمكنة وأزمنة مختلفة: انفجار الأب الصاخب، في وجه الأم، بعد اكتشافه سرقة الابن الشهيرة للأزرار، شبيه بانفجار الابن الكامد في وجه زوجته الرقيقة. كأن الأم و''بيداء'' سبب الانحراف الذي لحق بالابن والحفيد.

وإذا كان الأب قد حذف نصف اسم ابنه بعد انقضاء ثلاثة أيام على اكتشافه سر اختفاء الأزرار فإن ''عبدل'' حذف، ذهنيا، وجود طفله بالكامل حال الانتهاء من فحصه. مع ذلك يظل الفارق كبيرا بين ردود فعل الأب والابن لو قُلبت الحادثتان زمنيا: لا استبعد أن يقبل الأب بطفل متخلف عقليا كاختبار إلهي لصبره، مانحا إياه، بالمقابل، حنوا مضاعفا عن أخوته؛ ولا بدّ أن ''عبدل'' سيفتخر بطفله لو أنه كرر تجربة الأزرار الملونة.

* * *

يمكنني تحديد مشاعر ''عبدل'' خلال تلك الفترة العصيبة بكلمة واحدة: الانخداع. ولعل الأحلام التي تكررت بصيغ مختلفة تحمل المغزى نفسه: حيوان أو إنسان بلا ملامح يقع في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

شراك محكمة، على الرغم من الحذر الشديد الذي تظهره الكائنات في حركتها. تتلبس الحيوان أشكال مختلفة تتراوح بين القط والنمر والغزال، وأحيانا تدور الأحلام في البحار، برفقة الدلافين والحيتان. كان ''عبدل'' يستيقظ مضطربا بعد كل كابوس، ليبدأ بملاحقة شريط حياته المتقافز فوق شاشة ذاكرته. كأنه في هذا التكرار الحثيث يحاول القبض على الخطأ الذي ارتكبه: نقطة الانحراف التي دفعته إلى موقع بعيد عن خططه المتقنة.

حضرت إليه صورة ذلك المراهق الذي انقضّت عليه فجأة رغبات جديدة، فأخرجته من مساره الرتيب. ها هو يتعقب، مسلوب الإرادة، تلك المجلات التي يجلبها بعض رفاق الصف معهم، ويتبادلونها سرا فيما بينهم. كانت عيناه تخترقان صور النساء العاريات، في الوقت الذي كانت مخيلته تزيح أولئك الشباب مفتولي العضلات، من مشاهد الجماع الصارخ، لتضعه في مكانهم.

لكن فكرة دفع النقود لشراء هذه المجلات المهربة، جعلته موضع صراع عميق بين إغراءين متجبرين: المال والجنس. وإذا كان الإغراء الأول قد تغلغل إلى روح ''عبدل'' في سن أبكر، أصبح عسيرا عليه الإفلات منه صوب الإغراء الجديد الذي راح يقضّ مضجعه بلا حياء. في الليل البارد، كان يستيقظ من نومه، غارقا بشلال لزج، فينتابه شعور بالعار. كأن تلك الفتيات العاريات يعاقبنه بالتغلغل إلى أحلامه، لعدم شرائه صورهن.

لا استبعد أن يكون الأب وراء عرض أحد الأقارب العزّاب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

على ''عبدل'' لاصطحابه إلى المبغى، إذ استهلكت التطورات السريعة، التي طرأت عليه في الأشهر الأخيرة، كل قواه. فباستثناء ضخامة الصوت وزيادة الطول الملموسة، بدا متقلب المزاج، شديد النحول، ويعلو الشحوب وجهه المبقع بدمامل صغيرة. ولا بدّ أن أخوته شعروا بالتشفي منه، وهم الذين ظلوا، قبل ذلك، موضع استغلاله وتسلطه.

لم يخبره قريبه عن مغامرتهما أي شيء؛ كل ما قال له أن مفاجأة سارة تنتظره. تنقّلا في أكثر من حافلة قبل وصولهما إلى حي جديد، على أطراف بغداد، وهناك اندفعا وسط طرق ترابية، تحفها بيوت نصف مكتملة، تتبعثر أمامها مواد البناء. كان الوقت عصراً، لكن نفثات القيظ ظلت تلسع مسام وجهيهما بإصرار، مجبرة إياهما على توسيع خطاهما أكثر فأكثر، والانكباب على مسح العرق المنهمل بغزارة فوق جبهتيهما.

أمام بيت منعزل، توقف قريبه فجأة، تلفت بخفة حوله، قبل أن يدفع بوابة السور العالي، لينسلا عبر ظلال "القمريّة" إلى باب البيت. تسربت ضحكات نسائية إلى سمعيهما، جعلت جسد ''عبدل'' الساخن يختض لا إرادياً.

* * *

ظلت صورة طفله البكر، عالقة في ذاكرته، مثلما هي، لحظة اكتشافه للحقيقة، على الرغم من مساعيه الحثيثة لمسحها. هذا القرار برفض معطيات الواقع تُرجم بعدة مواقف: رفض التقاط أي صورة لـ''سليم''، حتى حينما كان يقرأ استعطافا في عيني ''بيداء'' لضمه إلى أطفالهما الثلاثة في لقطة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

عـابرة؛ تجنـب اصـطحابه إلـى أي مكـان خـارج البيـت؛ وعـدم السماح لزوجتـه بإخراجـه مـن حجـرة نومـه عنـد قـدوم ضـيوف إليهم.

هـذا الموقـف مـن طفلـه نـاجم بالدرجـة الأولـى عـن روح التخطيط للمستقبل التـي ظـل يتمتـع بهـا وتجنـب المفاجـآت غيـر السـارة التـي تقتحم حياتـه: عنـد اتخـاذ قـرار مـا، كـان ''عبـدل'' يقضـي وقتـا طـويلا فـي التفكيـر بكـل نتائجـه، سـعيا منـه لتجنـب الوقوع بخسـائر ماليـة مـا، بـل حتـى حينمـا يقـدم لـه أحـد زملائـه عرض شراء سخي فهو سيكتفي بالقول: "سأفكر بـه" لكـن مولـد ''سليم'' وضـعه فـي دوامـة شـكوك، شـبيهة بتلـك التـي صـاحبت أباه بعد حادثة الأزرار الملونـة، وتحـددت بسـؤال واحـد دار فـي ذهنيهما: أين كان الخطأ؟

راود ''عبـدل'' هـذا السـؤال (لكـن بصـيغة أقـل تحـددا) بعـد خروجه من المبغـى. كـان الغـروب حاضـرا آنـذاك، عبـر زرقـة السـماء العميقـة والشـفق الأرجـواني الممتـد أمامـه، وبـدلا مـن لفحات الهواء الساخن، استقبله نسيم رائق موشّـى بعبيـر الـورد. غمـره شـعور بمـرور دهـر عليـه منـذ دخولـه إلـى بيـت النسـاء. أحس أثناء خفق فردتي حذائه للأرض الترابية كأن جسده يندفع متوثبا إلى الهواء، وكـاد يسـأل قريبـه إن كـان هـو الآخـر يعيش حالة التحليق مثلـه. مـع ذلـك، لـم يبـد لـه الوقـت الـذي قضـاه فـي بيـت المتعـة سـوى لحظـات، جعلتـه يشـك بحقيقـة مـا جـرى لـه هناك. وحينما أجرى مقارنـة بين أحلامـه والحقيقـة نفسـها وجـد الأولى أكثر كثافة وتشويقا من الثانية.

بعـد انبسـاط قريبـه فـي الحـديث معهـن، وتنـاول مشـروب الكوكـاكولا، مـدت إحداهن يـدها إلـى ذراع ''عبـدل'' المتخشـبة:

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

"أنت تحبني أكثر منهن، أليس كذلك؟" وهذا ما فجّر ضحكا وتعليقات صاخبة دفعته أكثر فأكثر للانكماش على نفسه. ولا بدّ أن الأخرى شعرت بارتباكه الشديد، مما دفعها إلى النهوض وسحبه قليلا، صاح قريبه به ساخرا بعد تردده قليلا: "اذهب معها، لا تخف، هيام لن تأكلك."

كم فاجأته سهولة وقوع الأشياء: هكذا بحركتين أصبحت الأخرى عارية تماما، وبمساعدتها قليلا تمكن ''عبدل'' من خلع كل ملابسه. كانت الحجرة الصغيرة عارية من الأثاث باستثناء الفراش الملقى على الأرض، والستارة النيلية تحجب ضوء الشمس الحارق من النفاذ. مع ذلك ظلت تلك الحجرة تغلي كفرن. ملأ أنفه عبير عطر صاخب ممزوج برائحة عرقها الهابط بغزارة فوق جسدها. وحينما شدته إليها شعر بامتزاج عرقيهما أثناء احتكاك بشرتيهما ببعض، لكن ذلك التلهف الذي غذته المجلات المهربة اختفى ليحل محله هبوط سريع حال التفاف ساقيها النحيلتين حول ظهره.

ارتمى بجانبها متهالكا، تملكه شعور قوي بأن خطأ وقع أثناء مواقعته لها جعله ينحرف بعيداً عن تلك المتع المتخيلة التي ظلت تسكنه ليل نهار. ها هو يسير صامتا بجانب قريبه، محاولا استرجاع شيء ما من تفاصيل ذلك اللقاء الذي لم يمض على وقوعه أكثر من ساعتين، لكن ذاكرته ظلت تحصد فراغا فقط، فكل ما تبقى معه رائحة جسد المومس وحالة استيقاظ عسيرة على التعريف.

* * *

بعد تجنب ''بيداء'' أسبوعين، تسلل ''عبدل'' إلى سرير

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الزوجية. كان الضوء المتسرب من المجاز كافيا لمشاهدة تقاطيع وجهها الجميل، برغم العتمة المنبثة في الحجرة. ها هي نقرات المطر الناعم فوق زجاج النافذة تحرضه على احتضانها. وحينما انقلبت، لا إراديا، على جنبها تمكن من دفع ذراعه تحت رقبتها وإرسال أصابعه للتجول بين ثنايا ثدييها.

* * *

حال تبلور القرار في رأسه اندفع بهمّة أسطورية لتنفيذه: أن يسعى لإنجاب ثلاثة أطفال أصحاء تعويضاً عن الفشل الأول، وفي حال تكرر الخلل الخلقي سيعيد زوجته إلى أهلها، برفقة الصغار. للوصول إلى هذا الهدف انكبّ ''عبدل'' على مواصلة الجماع كل فجر، حتى حينما تكون ''بيداء'' غارقة في أعماق النوم. كان أداؤه للجنس طقسيا محضا، كأنه يخشى، حتى في لحظة الرعشة، من تسرب حيمن مشوه إلى رحمها، إن هو فقد تركيزه قليلا.

بموازاة برنامج التخصيب الصارم الذي اتبعه، التزم بنظام غذائي خاص له ولزوجته، حيث اصبح تناول السمك والفيتامينات والحديد فريضة يومية. وعند نسيان ''بيداء'' تنفيذ البرنامج بحذافيره في أي وجبة، كان الغضب الصامت يتصاعد إلى عينيه الحادتين.

في الفترة التي سبقت هذا التحول، اجتاح ''عبدل'' شعور بالصدمة جعله يرفض تصديق عينيه أو ما قاله الطبيب عن ''سليم''. ومن غرفة الجلوس التي استوطنها خلال تلك الفترة، ظل مواظبا على النهوض كل صباح، والذهاب إلى حجرة النوم ليلقي نظرة على طفله. كان الأمل يتسرب إليه عند توجهه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لرؤيـة ''سـليم'' بوقـوع معجـزة مـا: أن تكـون تلـك الأعـراض مجـرد آثـار نجمـت عـن ولادة عسـيرة. كيـف سـيكون رد فعـل ''بيداء'' لو أنها قرأت ما يدور في رأسه؟ من سريرها كانت تتابع زوجها وهو يمشي بحذر صوب مهد الطفل، تغلق عينيها متظاهرة بالنوم، مع إبقاء فرجة كافية بين أجفانها تمكنها من متابعة عبدل. كان شعور غامض بالخوف يتسرب إليها كلما وضع زوجها يده على ''سليم''.

بعد تجاوز الصدمة حل في أنفاسه غضب مكتوم لما أصاب طفله: كأنها لعنة الأب التي استجابت السماء لتحقيقها. لكن الكآبة تسربت تدريجيا إليه لتحل محل النقمة داخل روحه. بدا العالم، لأول مرة، في عينيه ثقيلاً ولزجاً لا يحفز إلا على الهروب منه بالنوم المتواصل: عبر الكحول، أو عبر الحبوب المنوّمة.

* * *

لكن العالم انقلب فجأة في أعماقه؛ كأن طبقات الجليد التي تراكمت خلال الأسابيع الأخيرة في صدره انقشعت كلها بضربة واحدة؛ ها هي المياه تندفع فوارة في عروقه، لتوقظ المارد الذي ظل يتلبسه طوال حياته. كان بإمكانه أن يشاهد في قلب الظلمة شبيهه: قوسا مشدودا إلى أقصى مداه لإطلاق سهمه.

مع ذلك فإن القوس غير معنيّ بالحاضر بل بالمستقبل. أو بصيغة أخرى: الحاضر منصة انطلاقه إلى المستقبل. وإن ظلت مخططات ''عبدل'' تصب في توسيع الثروة، فهي الآن تسعى أيضا للحصول على أطفال أصحاء.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

هل هي الرغبة بالانتقام وراء هذه الصحوة؟ الانتقام من تلك القوى المجهولة التي تمكن من تجنبها حتى ولادة ''سليم''؟ في كل ما قام به ''عبدل'' طوال حياته، كان الأب حاضرا في رأسه، يراقب باشمئزاز أفعاله، وهذا ما يدفعه للمضي أبعد فأبعد في تحديه. هل هو انتقام من الأب لتغيير اسمه أم هو سعي جنوني دؤوب للتطابق مع نبوءته؟

لا بدّ أن موت الأب كان سببا إضافيا لحالة الانكسار التي عصفت بـ''عبدل''، فبين مشاعر الذنب ومشاعر التحرر منه، تغلغل إحساس ثالث إلى دخيلته: الشعور بالانكماش بدلا من نزوعه، الدائم، شبه الغريزي، للامتداد، عبر اكتشاف طرق جديدة لانتزاع المال من الآخرين.

في لقائه الأول بـ''صالح''، لم تشغله قط أحاديث الآخر عن المسرح في لندن، أو اتجاهات الصحف السياسية فيها، بل ظل همه منصبّا على إقناعه بأفضلية خزانة الكتب التي بإمكانه أن يصنعها له عن تلك التي سيشتريها من السوق. ولا استبعد أن يكون رأيه بـ''صالح'' قد تحدد كزبون مثالي، إذ لم يسأل، حتى بعد اتفاقه معه، عن التكاليف.

أبدت ''بيداء'' تحفظا خجولا من الاتفاق، تحت ذريعة المسافة الطويلة التي تفصل بينهما، لكن ''عبدل'' حسم الخلاف بنظرة حادة واحدة وتعليق مقتضب: "أجور النقل عليه". وفي اليوم اللاحق اصطحب زوجته معه لالتقاط ألواح الخشب من مخزن مخصص للنفايات الكبيرة.

* * *

بعد مرور عام كامل على صدمة المبغى، أعلن ''عبدل'' عن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

قراره شراء سيارة قديمة. لم يأخذ أي فرد في أسرته ذلك الإعلان مأخذ الجد، وحينما ظهرت جنب البيت صُعق الجميع. كم شعر الأب بالغيظ الكامد عند مشاهدته السيارة، فهو، الذي أمضى ربع قرن في الوظيفة، عاجز حتى عن شراء دراجة بخارية. قال لابنه ساخرا: "لا بدّ أنك احتلت على إبليس للحصول عليها".

في المدرسة زعم ''عبدل''، أمام أصدقائه المنذهلين لمشهدها، أنها هدية من أبيه. ولم يخبر أيا منهم عن مراميه من شرائها. في الوقت نفسه، ظل، كعادته، مواظبا على الدوام المدرسي: الوصول صباحا إلى الصف قبل نصف ساعة من بدء الدراسة، ثم العودة إلى البيت حال الانتهاء منها ظهرا. هناك سينجز أولا واجباته المدرسية. ثم يتناول الغداء مع أسرته، فالنوم لبضع ساعات.

حينما يستيقظ ''عبدل'' الساعة التاسعة مساءً، تستيقظ معه روح شخص آخر لا صلة لها بمن كانت تسكنه في النهار. وقبل خروجه من البيت، كان يمرر فوق شاربيه الواهيين، قلم الرصاص الفحمي، ثم يلف رأسه بكوفية تضيف لعمره عشر سنوات.

لم تحضره فكرة شراء السيارة إلا بعد مرافقة قريبه إلى ملهى "الصفاء" عدة مرات. أدهشه عدد النساء فيه. عند بعض الطاولات كانت هناك أحيانا أربع منهن يتحلقن حول رجل أو رجلين، وفي ليلة الجمعة ينشغلن مع زبائن أكثر. شاهد عند خروجه من الملهى بعض تلك النساء يعبرن الرصيف صوب سيارات التاكسي. وليس مستبعدا أن سؤالا، من هذا النوع،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

حضـره وهـو يراقـب السـوّاق المبتهجـين لظهـور الغـواني المرحات: "كم شخصا محظوظا بينهم؟"

ظل ''عبدل''، في الأشهر الأولى، منكبا على عمله، حيث كان يقضي الساعات الأولى منه في نقل الركاب العاديين، وحال بلوغ الساعة الواحدة، يتجه صوب ملهى "الصفاء". بين زبائنه تعرّف على ''جلنار'' و''قوت القلوب'' و''جواهر''، ومع الأخيرة أمضى شوطا طويلا: قبل عودتها إلى مسكنها، كانت ترافقه أحيانا إلى حجرة السطح التي بناها ملاذا له ولعُدّة أشغاله. وقبل إدخالها إلى بيت الأسرة، كان ''عبدل'' يستكشف الطريق الموصل إلى السطح؛ التوثق من استغراق جميع أفراد أسرته في النوم، وخصوصا الأب. في الصيف، وحينما يكون السطح مهجعا ليلياً للجميع، كان السرداب مخبأهما. مقابل ذلك، كان ينقلها، مجانا من الملهى إلى بيتها.

لم يكن ''عبدل'' يأبه بممانعة ''جواهر''، في الذهاب معه، فالسياقة الليلية المنتظمة مكّنته من كسب ثقة مومسات أخريات، ولا بدّ أن عمره وجرأته كانا عنصرين مساعدين لاستلطافه. أحيانا، كانت الشهوة تنال منه حتى قبل بلوغ الفراش مع أحداهن، فيضطر إلى قضاء الوقت القصير الذي في حوزته ملتصقا بها، مستسلما كطفل إلى حلمتها، في الوقت الذي تظل عيناه عائمتين، وسط الظلمة المطبقة، بين شقراوات هوليوود وفتيات "البلايْبوي" المثيرات.

* * *

أعطى موت الأب، تحفيزا إضافيا لـ''عبدل'' كي يوسّع من دائرة "حقوقه": فلزيادة الإعانة المالية التي يحصل عليها من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الدولة، اتفق مع أحد أقربائه القادمين في زيارة قصيرة للندن، على تلفيق وقوع حادث سيارة له. كانت النتيجة تحطم خلفية عربته بعد ارتطام سيارة الآخر بها، بشكل مروع. وبعد "الآلام" الشديدة التي عاناها في ظهره، وتنقله بين عدد من المستشفيات، قرر طبيب الأسرة اعتباره معاقاً. غمره شعور عميق بالانتصار عند تسلمه شهادة "العاهة البدنية" عبر البريد، مرفقا معها كل الحقوق والامتيازات الجديدة.

كم شجعه هذا النجاح الباهر، على التخطيط لمشاريع مماثلة أخرى؛ فمع اختفاء مراقبة الأب الثقيلة له، واضمحلال حضوره في ذاكرته، تضاعفت نياته الخفية. كأنه كان يتحرك صوب التطابق الكامل مع الاسم الذي كاد الأب يطلقه عليه بعد حادثة الأزرار الملونة: عبد النهّاب

* * *

قبل أن تضع ''بيداء'' توأميها بشهرين، استأجر ''عبدل'' بيتاً فسيحاً بثلاثة طوابق، تمهيدا لشرائه. وقبل الانتقال إليه، كانت الخطة واضحة، في ذهنه، حول ترتيب الغرف: في الطابق الأوسط سيسكن أطفاله، بضمنهم الطفل الرابع الذي ما زال محض إمكانية. وسيحتل ''سليم'' الغرفة المنزوية عن الأنظار.

قدمت أم ''بيداء''، لقضاء ثلاثة أشهر معهم. كم منح حضورها طمأنينة لبيداء؛ خصوصا مع ازدياد تثاقل حركتها وعجزها عن متابعة شؤون البيت، ولا بدّ أن الأم قرأت مشاعر القلق الصامتة في عيني ابنتها تجاه ''سليم''، مما دفعها إلى تكريس أغلب وقتها له.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كان الهدف الآخر، الذي وضعه ''عبدل''، رداً على ولادة ''سليم''، الوصول إلى المليون جنيه، خلال سبعة أعوام. استحضر أثناء تلك الليالي الثقيلة التي قضاها في غرفة الجلوس كل الوسائل المتوفرة للإثراء السريع: شراء مطعم أو فندق؛ الحصول على أسهم من شركات الدولة التي عرضتها الحكومة للبيع: أين يجب الاستثمار؟ ومن هو الشخص الذي سَيُمَوّه له ثروته؟

حضرت إليه أسماء جميع أقاربه المقيمين في الخارج، لكن قناعة تسربت إليه جعلته يتردد في مفاتحة أي منهم: أشد أنواع الغيرة هي تلك القائمة بين أفراد الأسرة الواحدة. وعند حضور صورة ''عبد الرؤوف'' إلى مخيلته، شعر أنه وجد ضالته.

* * *

تعود علاقة ''عبدل'' بعبد الرؤوف إلى أيام الدراسة الثانوية؛ تحضره من وقت إلى آخر، صورته عند دخوله الصف، لأول مرة، أثناء درس الفيزياء. التفتت أعين الطلاب جميعا صوب الباب، حيث وقف عبد الرؤوف جامداً بانتظار توجه الأستاذ إليه، وكم بدا الآخر ضئيلا إلى جنبه، دفعت أحد المشاكسين المزمنين إلى القول متهكماً: "إنه المفتش". لكن ضخامة عبد الرؤوف الجسدية رافقتها ملامح تشي بطيبة مفرطة؛ فتلكما النظارتان السميكتان توحيان بعجز خارق للعادة عن الرؤية، وهذا ما شجع بعضهم، في البدء، على اختطافها، لاكتشاف مدى ضعف البصر عنده. لكن عبد الرؤوف لم يفقد توازنه، بل اكتفى بإخراج نظارتين أخريين من حقيبته، وحينما كرر أحد الطلاب العملية، اكتفى آنذاك بعصر يده قليلا جعلت الآخر

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

يتلوى من الألم، وجعلت الآخرين يعرفون القوة المخيفة الكامنة وراء الفم المتبسم دائما والعينين الجاحظتين قليلا.

بعد مرور أسابيع قليلة على انتقاله إلى المدرسة، تمكن عبد الرؤوف (دون أن يدري) من احتلال موقع يحسده الآباء والمدرسون عليه، إذ أصبح حَكَماً لفض الخلافات بين الطلاب، وأمينا لأسرارهم حيث يستشيرونه حتى في مشاكلهم الخاصة.

بالنسبة لـ''عبدل''، كانت الصداقة التي جمعته بعبد الرؤوف جد متميزة. فهو الشخص الأول الذي فتح له مكامن قلبه؛ معه كان ينبسط في التباهي بإنجازاته دون الخشية من تعرضه للانتقاص أو المنافسة. كأن ذلك المراهق المتكتم والصامت دائما مع الآخرين يتحول إلى طفل برفقة أب متعاطف وحنون، وكأن عبد الرؤوف لم يكن يكبره بعامين فقط، بل بعقدين.

بالمقابل، كان ''عبد الرؤوف'' معجبا كثيرا بـ''عبدل'' وتمرده. فهو، على العكس منه، شديد الطاعة لأبيه، في كل تفاصيل حياته. لعل السبب يعود إلى أصله العشائري، والزعامة الروحية التي كان الأب يحتلها بين أبناء قبيلته. ففترة الطفولة تعود إلى ذاكرته عن بيت ريفي كبير غاص بالزوار؛ بعضهم يحضر لاستشارة أبيه؛ وبعضهم لتقديم الهدايا أو لتناول العشاء الفاخر المقدم كل ليلة. لكن هذا العالم اختفى سريعا، حال زوال العهد الملكي، ليجد ''عبد الرؤوف'' نفسه، مع أسرته، في بيت متواضع بأطراف بغداد.

عند لقائهما الأول، بعد انقطاع طويل، انكبّ ''عبد الرؤوف'' على سرد مغامرات ''عبدل''، أيام المدرسة، بدقة مثيرة للدهشة، في الوقت الذي كان الآخر قد نسي معظمها. هذا الإعجاب بـ''عبدل'' لم يحفزه على الخروج عن طاعة أبيه، بل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

حفزه على الالتزام أكثر فأكثر؛ مع ذلك، ظل ''عبدل''، يمثل بالنسبة إليه، أناه الأخرى، التي بواسطتها يحقق عبد الرؤوف أحلامه المدفونة تحت عدستي نظارتيه السميكتين.

* * *

طلب ''عبدل'' من أخيه الأصغر، الاتصال بأهل عبد الرؤوف، للحصول على عنوانه ورقم هاتفه في الإمارات. كان كل ما يعرفه عن صديقه الوحيد، حتى ذلك الوقت، أنه تزوج من بنت عمّه، حسب وصية أبيه، بالرغم من الفاصل التعليمي الكبير بينهما؛ إذ أكمل ''عبد الرؤوف''، قبل مغادرته العراق، الماجستير في الهندسة الإلكترونية، ولولا حصوله على عقد مغر مع شركة غربية، للعمل في إحدى الجامعات، لما فكر بالخروج من بغداد.

بعد إلحاح ''عبدل'' المتواصل، وافق ''عبد الرؤوف'' على زيارة لندن والبقاء عنده أسبوعا واحداً. كان هناك سبب إضافي لمجيئه: شراء بعض الكتب الجديدة التي تخص ميدان عمله. انغمر ''عبدل'' منذ اليوم الثاني لوصول صديقه بالتشكي من نظام الضرائب المفروض على المقيمين، وبدلا من استعطاف صديقه مباشرة، اندفع في حديث عفوي عن صحته المتدهورة، بعد حادث السيارة؛ عن تكاليف الاعتناء الباهظة بطفله ''سليم''، ولابدّ أن العكازة التي ظل مصرا على حملها أينما خرجا معا، لعبت دورا حاسما في كسب عطف ''عبد الرؤوف'' الكامل له. قبل عودته إلى الإمارات بيوم واحد، عرض على ''عبدل'' المساعدة، لكن الآخر رفض بشكل قاطع.

في زيارته الثانية، لحضور مؤتمر علمي نظمه أرباب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

عمله، كرر ''عبد الرؤوف'' عرضه فوافق ''عبدل'' "على مضض" وحسب الاتفاق، فتح الصديق حسابا بإسمه، يستخدمه ''عبدل'' كيفما يشاء. وفي الزيارة اللاحقة، وقّع على عقد شراء صوري للبيت الذي انتقل إليه ''عبدل'' وأسرته.

* * *

لا أستطيع أن أجد تعبيرا لسلوك ''عبد الرؤوف'' مع الآخرين أفضل من "أرستقراطية الروح"، فسليل الإقطاعيين، العاجز عن التحرر من النمطية في خيارات حياته، كان يجد متعة كبيرة في تقديم العون لمن لا يعرفهم، فما بالك حينما يكون الآخر صديق مراهقة كـ''عبدل''؛ إنه الحقل الذي لا يتطلب الشعور بالتفوق شيئا كبيرا سوى استخدام مفردة "نعم" دائما. حتى حينما كان زملاء دراسته يطلبون منه أداة ضرورية لدراسته مثل المسطرة الحاسبة لم يكن ''عبد الرؤوف'' قادرا على الرفض. كم دفع زوجته إلى الاحتجاج الصاخب على "تبذير" دخله الكبير، يمينا وشمالا، فما أن يبلغه طلب قريب أو صديق عبر مكالمة أو رسالة، حتى يمضي في اليوم التالي لتنفيذه.

كعادته، لم يخبر ''عبد الرؤوف'' زوجته عن البيت والأسهم التي اشتراها ''عبدل'' بإسمه، وظل حريصا على إخفاء العقود والرسائل التجارية التي تصله من لندن في درج مقفل.

* * *

في رحلته الخامسة إلى لندن، اصطحب ''عبد الرؤوف'' زوجته وطفلته، ليقضيا شهري تموز وآب مع أسرة ''عبدل''. كانت سامية، آنذاك، في سن الخامسة، ولم تظهر عليها بعد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أعراض العجز الكلوي عدا عن شحوب وجهها المثير للانتباه.

في بيت ''عبدل'' انغمرت سامية باللعب مع التوأمين، اللذين ظلا يتنازعان على كسب ودها. كم بدت متقدمة عليهما في السن، بالرغم من أنها تزيدهما بشهرين. كان التوأمان حريصين على التسلل إلى حجرة ''سليم'' كلما انشغلت ''بيداء'' عنهما بأصغر أطفالها: لبنى. هناك، سيتعاملان معه كأنه دميتهما المفضلة. كانا يجبرانه أحيانا على تقليد حركة الكلب، وأحيانا يمتطيانه كحصان.

شعرت ''سامية'' بالخوف من ''سليم'' حينما رأته أول مرة. فجأة انفتح باب حجرته المعزولة ليطل عليها وجه دائري صغير، يتوسطه أنف ضخم. كان اللعاب يتساقط غزيرا من فمه المفتوح، ولعل ظهورها المفاجئ أمامه أزاح الخوف قليلا عنه، من تجاوز حدود غرفته. دفع خطوة إلى الأمام فلاح لها كل جسده. أثار مشهد ساقيه المقوستين، في نفسها، فضولا ممزوجا بالخشية. لكن السهولة التي سيطر التوأمان بها عليه مسحت مخاوفها منه، بل خلقت لديها رغبة قوية بالدفاع عنه من مكائدهما ضده. مع ذلك بدا ''سليم'' شديد الابتهاج عند ظهور التوأمين في حجرته، ليندفع في ترديد عبارات مبهمة عبر أنفه الكبير، منفذا كل أوامرهما بأريحية كبيرة، وأحيانا ينفجر ببكاء مختنق حينما يبالغان في إيذائه. كم ظلت سامية، أثناء تلك الرحلة، حريصة على حماية ''سليم'' كلما وقع تحت سطوة أخويه التوأمين، لحظة تغيب ''بيداء'' عنه.

* * *

كان مفترضا أن يصل ''عبد الرؤوف'' إلى لندن في بداية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

حزيران اللاحق، لكنه، بدلا من ذلك، كتب لـ''عبدل'' معتذرا عن قدومه. كان السبب، وراء إلغاء رحلته، مرض ابنته الوحيدة سامية؛ فحسب ما أخبره الأطباء، كانت كل الأعراض تشير إلى عطب جدي في الكلية: حالات الوهن والغثيان وفقدان الوزن. وفي الشهر الأخير قضت ''سامية'' معظم الوقت في المستشفى.

كان ''عبدل'' بحاجة إلى لقاء صديقه كي يوقّع بعض الوثائق الجديدة المتعلقة بأسهمه وإيجار بيته، وعلى الرغم من توفر الإمكانية لإرسال الأوراق عبر البريد العادي، فإن الخوف من وقوعها بيد زوجة ''عبد الرؤوف'' جعلته يتحمل عناء السفر بنفسه إلى الإمارات. معه أخذ هدايا ثمينة إلى ''سامية''، لإعطاء الانطباع بأن هدف الرحلة هو الاطمئنان على صحتها. وحينما عبّرت الزوجة عن اندهاشها بمشاعر الصديق، قال ''عبد الرؤوف'' إنهما أكثر من أخوين.

* * *

لم يخبر ''عبدل'' زوجته عن موعد عودته من الإمارات. كانت ساعة التاكسي تشير إلى التاسعة والربع، لحظة هبوطه أمام بيته، وكالعادة، كان السكون جاثما في ذلك الشارع الواقع عند أطراف لندن. قبل أن يدير المفتاح داخل فجوة القفل، توقف قليلا، منصتا إلى صخب الأطفال المتسرب من الداخل. وحينما تجاوز الممر القصير المفضي إلى غرفة الجلوس، واجهه مشهد لم ير له مثيلا من قبل: كان التوأمان يتبادلان القفز فوق إحدى الكنبتين المتجاورتين، في الوقت الذي جلست ''بيداء'' على الكنبة الأخرى، يحيطها من الجانبين ''سليم''

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

و''لبنى''. كانت أعينهما ملتصقة بشاشة التلفزيون، بينما راحت أصابع الأم تواصل بدأب عمل الحياكة.

لم يُظهر ''عبدل'' أي رد فعل تجاه الفوضى، مع ذلك كان بروزه المفاجئ كافيا للتوأمين كي يجمدا معا. فمنذ سفره، انكبا على السهر إلى ساعة متأخرة، ولم تكن تجدي توسلات ''بيداء'' بهما للكف عن قلب الأشياء حولهما. عبّر ''عبدل''، بشكل غير متوقع، عن إعجابه بلون القطعة المحاكة، وحينما سألها لمن ستكون الكلسة، قالت بتردد: "لا أدري، هذا يعتمد على كمية الخيوط التي معي" لكنه قال بنبرة حازمة، كأنه كان يقرأ رغبتها: "اعمليها لـ''سليم''"

لم ينطق ''عبدل'' بكلمة أخرى كي يتسلل الأطفال، بسرعة، إلى غرفهم، إذ كانوا متأخرين بأكثر من ساعة عن موعد نومهم؛ مع ذلك كانت لديه الرغبة في إبقائهم معه، خصوصا ابنته المدللة ''لبنى''، لكن ذلك سيكون خرقا للقواعد التي سنها لبيته. في الوقت نفسه، كان التوق في داخله قويا لاسترجاع عادة الاستحمام المشترك مع ''بيداء''، ولا بدّ أنها قرأت ذلك في عينيه، مما دفعها للتظاهر باقتراح الفكرة عليه.

* * *

مع حلول الخريف، تسلّم ''عبدل'' رسالة أخرى من ''عبد الرؤوف'' يعلمه فيها عن تحقق المخاوف التي ظلت تحاصره: ابنته بحاجة إلى كلية جديدة، ولن يكون أمامها أكثر من عام واحد قبل حلول العجز الكامل.

كان الاحتمال الأكثر سوءا قائما في مخيلته منذ عودته من الإمارات، وما كانت الرسالة سوى دفعة قوية له، للمضي في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تنفيذ مشروعه؛ كم سترسخ مبادرته من أواصر الصداقة التي تجمعه بعبد الرؤوف، وتجعله مدينا له مدى الحياة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

القسم الرابع

صالح وروايته

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

حتـى مغادرتـه بغـداد ظـل اسـمه الآخـر ملازمـا لـه، كـان يسـتطيع قراءتـه فـوق شـفاه الآخـرين وأعيـنهم، حتـى حينمـا يتجنبون النطق به.

وإذا كان ذلك الاسم بغيضا لـه هنـاك، أصبح الآن أثيراً؛ إنـه يوقظ في نفسه حنينا غير قابل للتحديد. هل هو حنين للضحكات النسائية الخافتة في بيته، لرائحة العطور، لهفهفة الثياب، لدوي الماكنة ؟ أم هو مجرد وهم تصوغه الذاكرة عادة للماضي؟

بعد وصوله إلى لندن ظل فترة يتلفت حولـه مثلمـا هو الحـال في بغداد، كأنه لا شعوريا يتوقع ارتفاع صوت من خلفه: "ابن الخياطة" لكن هذا الهاجس تلاشى في نفسه، وسط هذا البحر الهائل من الغرباء، ليحل محله شيئا فشيئا حنين غريب للقبه.

يعزو ''صالح'' أحيانا هذا الحنين إلى شعور آخر يتنامى في نفسه، كلما زادت فترة إقامته في لندن: الندم.

الندم على طهرانيته آنذاك. كأنه كان شخصا آخر لا يمت بصلة لما هو عليه الآن. كان بيتهم غاصا بالنساء دائما. من وقت إلى آخر، تتسلل إحداهن إلى غرفته تحت ذريعة واهية: "ابحث عن حقيبتي، لا أعرف أين وضعتها" أو "متأسفة، ظننت أنها في غرفة أخواتك"

بل حتى حينما تتجرأ مراهقة ما على الجلوس فوق سريره والانغمار في الحديث معه، كان ينزوي على نفسه أكثر فأكثر وراء طاولتـه. كـأن انجذابـه لأي امـرأة تـدخل بيـتهم خـرق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لمحظور: كسر لعهد بينه وبين أبناء محلته بعدم مس نسائهم.

ما يثير استغراب ''صالح'' عند التفكير بنفسه آنذاك، هو أنه كان فعلا يسقط صورة أمه وأخواته على الزبونات. إنهن بحمايته أيضا. فهو الرجل الوحيد في البيت. وإذا تحملت الأم أعباء كسب العيش منذ موت أبيه فهو المسؤول عن سمعة الأسرة.

لسنوات، ظل بيتهم ديرا حقيقيا: تتلفع أمه بالسواد دائما، ومن حجرة نومها اختفى سرير الزوجية الواسع ليحل محله آخر صغير، ومعه اختفت آثار الأنوثة: لا مواد ماكياج، لا ملابس نوم زاهية، لا أقمشة ساتان ناعمة، وكلما اقتربت إحدى أخواته من سن المراهقة ازدادت قيود الأم عليها. تسرب إلى سمعه ذات مرة صوتها الغاضب وهي توبخ صغراهن: "ما الذي سيقوله الجيران وأنت تلبسين تنورة قصيرة كهذه؟"

ينتاب ''صالح'' شعور حينما يحاول تذكر مراهقته أنه لم يعشها. هكذا من الطفولة إلى الشباب. حالة من سبات للرغبات الحسية. مع ذلك ظل هو وأمه يقتسمان مسؤولية البيت مثل زوجين نموذجيين. هي عليها كسب العيش، وهو عليه متابعة دراسة أخواته وتقويم سلوكهن. ولإعطائه هالة تسمح له بأداء دوره مُنح غرفة وحده في البيت، كذلك كف عن ارتداء السراويل القصيرة لصالح البدلات والأربطة الغامقة. وما عاد اللعب مع صبيان المحلة ممكنا في الشارع.

"أنت رجل البيت"، كانت أمه تردد ذلك كلما شعرت أنه تصرف كصبي في العاشرة لا رجلا في الثلاثين. كانت نبرتها تحمل خوفا خفيا من العالم الخارجي، إن هو تخلى عن دور الأب. "نحن تحت حمايتك"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تحت هاجس حالة الحصار التي عاشتها أسرته ظل ''صالح'' مهووسا بطوله. فلن يمر أسبوع إلا ويقيسه. يستحضر تلك الإشارات على الجدار بقلم الرصاص حيث تنتهي قمة رأسه.

كم فرحت امه حينما شب جسده فجأة خارج شخطات القلم. ها هي تراقبه باندهاش كلما خطر أمامها، غير مصدقة عينيها. تطلب منه الوقوف بجانبها أمام المرآة، فتكتشف أنه أصبح أطول منها. تردد آنذاك بارتياح، كأنها انتظرت هذه اللحظة طوال حياتها: "أنت سيد البيت الآن"

لكنها لم تفكر للحظة واحدة بما كان يعتمل في نفسه. بل لم تنتبه حتى لتلك الدمامل التي ملأت وجهه، أو لوجود مجلات الموضة في حجرته.

أمام ذلك الانجذاب الغريب الذي سكنه فجأة تجاه النساء، راحت يده اليمنى دون إرادته تقبض على عضوه المنتعض دائما. وأثناء ساعات نومه ظلت تحضره صور فتيات يخرجن عاريات من الحمام، وقبل التمكن من تمييزهن يستيقظ فزعا.

وحدهن فتيات الموضة من يروي ظمأه المتجدد: كن هناك يقفن أمامه دون أن يعرف حتى أسماءهن، على استعداد للتخلي عن ثيابهن الأنيقة بسهولة. وحالما يختار إحداهن تحضر معه فورا إلى الفراش.

بين أرض غاصة بنساء حقيقيات، وأخرى بصور نساء مجهولات، كان ''صالح'' يعيش في الفجوة الفاصلة بينهما: يتسلل إلى الأولى عبر الأحلام، فتتعمق في نفسه مشاعر الإثم، ويتسلل إلى الثانية عبر المخيلة وأصابعه ليكسب بعد انطفاء الشهوة خيبة وفراغا عميقين.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

17 تموز 1983

مثل كل يوم أحد، يقضيه وحده، ظل في فراشه منتظرا قدوم الصحيفة وحينما سمع خفقا ناجما عن اصطدامها بالسجاد، بعد دفعها من فتحة الرسائل، نهض مسرعا صوب باب الشقة.

فرش فوق السرير صفحات "الأوبزرفر". وكعادته بدأ بقراءة الطقس أولا: **"مشمس لكن مع تساقط بعض الأمطار. هناك منطقة ضغط منخفض، ستبطأ حركتها فوق بريطانيا"** من النافذة تطلع إلى الغيوم كأن أمس بطقسه الجميل حلم لا صلة له باليوم. سيقرأ هذا التغير المفاجئ على وجوه ساكني العمارة. صباح أمس، قالت له جارته المسنة جانيت بابتهاج: "إنه نهار مشمس، هل ستذهب إلى البارك اليوم؟"

التقطت أذناه رنين ناقوس الكنيسة المتقطع. ومثل كل أحد يثير هذا الصوت في نفسه شعورين متناقضين: شعورا بالألفة لعلامة الحياة الوحيدة حوله في ذلك اليوم؛ وآخر غريبا غير قابل للتعريف: شعورا بعزلة مطلقة.

لا تحضر بغداد إلى ذاكرته إلا عبر الأحلام، وأغلب أحلامه كوابيس تدور حول عودته إليها ووقوعه بيد رجال الأمن. شاهد نفسه ذات مرة في محل كبير. بدت له كل سلعه مصنوعة من الجلد: الحقائب والأحزمة والسراويل والقمصان والقبعات. وحينما صعد الدرجات الخمس التي تؤول إلى الطابق الأعلى المفتوح برز له الرئيس واقفا أمامه. هل هو صاحب المحل؟ أي نوع من الجلود حوله؟ وكل ما يتذكره حالة الهلع التي شلت خلاياه. "لا تخف، نحن سنعفو عنك إذا تمكنت من قطع الصحراء" قال الرئيس بحزم. تغير المشهد فجأة ليجد نفسه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وسط عدد غفير من المتسابقين وهم يهرولون بحمية وسط غبار كثيف متصاعد خلفهم.

استيقظ في نفسه فضول لمتابعة أخبار المرشح القوي لزعامة حزب العمال، نيل كينوك. وكأن حادثة السيارة التي كادت تقتله عمقت شعورا لدى بعض المترددين بأنه المنقذ الذي سيأخذ حطام الحزب الذي خلفته الانتخابات الأخيرة إلى شاطئ السلامة. تقف عيناه عند تعليقه المباشر بعد خروجه من سيارته المحطمة: **"لا بد أن هناك كائنا ما فوق يحبني"** يقرأ في صفحة أخرى مقالا للمنافس الآخر، روي هاترسلي: **"لماذا خسرنا"** حيث يقارن حجم الخسارة التي لحقت بحزب العمال قبل خمسة أسابيع بتلك التي وقعت في انتخابات عام 1918.

جذبته مقالة باتريك سيل: **"الغام الخليج المنجرفة تهدد ناقلات البترول"** أخيرا عادت أخبار الحرب إلى الصحافة. فمنذ تغير اتجاهها وبدء الإيرانيين بالقتال داخل العراق، تصاعد القصف الجوي العراقي لمنشآت إيران النفطية. يستعرض الكاتب وجهتي نظر متعارضتين: فالتقرير الأخير لصندوق الحياة البرية الدولي يؤكد وقوع تدمير هائل لفصائل الأطوم والدولفين، للطيور والأسماك، بينما تنكر منظمة دول الخليج لحماية البيئة وجود أي مؤشر على تأثر الحياة البحرية في الخليج.

ذهبت ''شهرزاد'' منذ أمس مع ''هيلين'' لزيارة أبيها المقيم في دار للعجزة خارج لندن. ومثل كل مرة تجنبت دعوته لمرافقتها. قال لها بعد زيارتها الأخيرة، قبل شهر، وهما في الفراش: "أتمنى أن التقي به يوما، فهو أحد معالم تاريخ العراق الحديث" لكنها التزمت الصمت فترة بدت له طويلة جدا. هل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كـان سـؤاله مسـيئا لوالـدها بشـيء؟ وقبـل أن يستفسـر، جـاءه صوتها حاسما:

"لماذا لا تنسى الماضـي والتـاريخ وتستمتع بحاضـرك؟ أنـت ما زلت شابا والحياة أمامك"

"وماذا تقترحين أن أفعله؟"

"أن تتزوج"

"ممن؟"

"لماذا لا تطلب من أمك أن تبعث لك بعروس؟"

أضـافت وهـي تضـع ذراعهـا حـول رقبتـه مخففـة مـن جديـة نبرتها: "ألا تفكر بإنجـاب أطفـال؟ وبفتـاة جميلـة تغسل ملابسك وتطبخ لك وجبات عراقية؟"

توقـف عنـد مقالـة كـاثرين وايـت هـورن: **"السـيد والسـيدة؟"** وفيهـا تستقصـي الكاتبـة أسـباب عـزوف بعـض الأزواج عـن الزواج الرسمي. لكنها تصل إلى سبب واحد فقط يبرر الارتباط الشـرعي. فبعـد ذهـاب الروائـي كيـرت وفونغـات وصـديقته المصـورة جيـل كريمنتـز لحضـور مراسـم دفـن قـررا الـزواج. وكـان السـبب هـو صـدمتهما للطريقـة التـي تعاملـت بهـا أسـرة المتـوفى مـع صـاحبته. قـص المقـال لـ''شـهرزاد'' المعجبـة بكتاباتها.

20 شباط 1969

يشـرح منيـر بعلبكـي فـي قاموسـه المـورد كلمـة MACABRE أكثـر مـن إعطائهـا معنـى محـددا: متخِّـذ مـن المـوت موضـوعا؛

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مشتمل على تصوير تشخيصي للموت؛ مروع.

وجد ''صالح'' معنى آخر أدق: رقصة الموت. في البحث عن أصل الكلمة صعقته الإشارة إلى كلمة مقبرة العربية. مقبرة؛ ماكابْر؛ مقابِر.

"ماكابْر" حسب الإنسكلوبيديا بريتانيكا، مفهوم اليغوري ينتمي إلى القرون الوسطى. ويشمل كل الإبداعات التي تظهر غلبة الموت، في الدراما والشعر والموسيقى والفنون البصرية. ولعل المفهوم امتلك زخمه بفضل وباء الموت الأسود الذي حل بأوروبا في أواخر القرن الثالث عشر، وحرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا.

لكن الإبداع الذي شاهده في ذلك اليوم ببغداد، خاص جدا، ولم يخطر ببال أي من أولئك الفنانين الغربيين الذين ظلوا يكررون رسم شخصية الموت، وهو يجذب الأحياء المغفلين إلى بيته. ولعل الفضل في إنتاجه غياب كلمة مكافئة لماكابْر في العربية، فسمحت للمبدع نسيان حقيقة كونه مجرد أداة للسيد الموت، في تأدية رقصته، وفي المرة اللاحقة قد يكون هو موضوعا للوحة نفسها.

كان هناك ضمن حشد كبير من الطلبة، ساروا كل الطريق على أقدامهم، من الأعظمية حتى باب الشرقي، وها هو يدور معهم حول ساحة الطيران. في البدء، لم تثر في نفسه تلك الأعمدة الخشبية المنصوبة على محيطها سوى شعور بالغرابة. لعل أسئلة من نوع: متى تم وضعها؟ كم استغرقت العملية؟ هي التي تسربت إلى ذهنه المشوش، فهذا المكان الأثير على نفسه ارتدى روحا غريبة عليه.

بعد وصوله إلى الكلية علم بإلغاء الدراسة لذلك اليوم، وبدلا

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

من ذلك ستكون هناك مسيرة طلابية صوب ساحة الطيران. كان بإمكانه تجنب المشاركة فيها، لكن فضولا تنامى في نفسه لمشاهدة موتى حقيقيين. فطوال حياته ظل يتجنب خوض تجربة من هذا النوع. كان صغيرا حينما توفي أبوه. وهذا ما دفع أقاربه الكبار إلى إقصائه عن المراسم، باستثناء حضور مجلس العزاء.

هل ما شاهده آنذاك مماثل حقا لما يحضر الآن في ذاكرته؟ لا بد أن برودة ظلت عالقة في الهواء حتى عند وصوله إلى الساحة، والشمس بدت مجمدة في كبد السماء. لا بد أن الوقت تجاوز الثانية عشرة. ها هو يجد نفسه محاطا بوجوه غريبة جاءت من كل مكان: عمال، فلاحون، معلمون برفقة تلاميذهم؛ كرنفال حقيقي، جعل جسده يتحرك خفيفا تحت دفع سيل الحشود المتدفق. إنه يدور معها دون إرادته حول الساحة، حيث يقترب حينا من محيطها، لتبعده الأذرع حينا آخر عنها.

هناك، وسط اللافتات المرفوعة فوق الرؤوس، وسط دوي الهتافات، تمكنت عيناه أخيرا من التقاط المشهد المزروع إلى يساره: أجساد معلقة بحبال سميكة، يرتدي كل منها بدلة رياضية بلون صارخ مختلف. كانت رؤوسها في أوضاع مختلفة أيضا: بعضها يرتفع صوب السماء اللامبالية، وأخرى منكفئة صوب الأرض الإسمنتية.

هل جاءته حقا فكرة الرواية أثناء طوافه حول الجثث الأربع عشرة؟ ذلك الاندهاش المذعور الذي أصابه من رقصة الموت. هل سيتمكن مبدعها من خلق مشهد الرعب ذاك لو أن مفردة "ماكابْر" دخلت إلى العربية بمعناها الحقيقي قبل ذلك؟

بعد انتهاء مراسم الاحتفال ومغادرة الرئيس ونائبه، دخل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بعض المتظاهرين الساحة تخفيفا للازدحام. ها هو يجد نفسه متجولا معهم بين تلك الأعمدة الخشبية، حيث يختلط الأحياء بالموتى دون تحفظ، ومن زاوية انطلقت أناشيد ثورية لتختلط بتلك اللافتات المعلقة في الفراغات الفاصلة ما بين جثة وأخرى. "هذا هو مصير أعداء الثورة" "إعدام الجواسيس أول خطوة ثورية نحو التحرر الوطني"

17 تموز 1983

حتى حينما يمزح الإنجليزي يكون في أعماقه شديد الجدية. ولعل ذلك ما يجعله غير قادر على بناء علاقة حميمة مع الأجانب، فدعابتهم تعني بالنسبة إليه في الجوهر شكلا من الجنون، تجاوزا للحدود الفاصلة بين الأفراد، وإن حاول تقليدهم سيدخل ضمن خانة حددها قاموس أكسفورد بدقة: Eccentricity، واقرب ترجمة في العربية لهذه الكلمة: غرابة الأطوار.

حضرته هذه الفكرة أثناء قراءته تقريرا في الصحيفة عن الرسامة والناقدة الفنية ''أماندا فيلدنغ''. فتحت شعور عميق بالضيق من قيود المواضعات الاجتماعية. غادرت خريجة أكسفورد صوب أكثر الأماكن وحشة فوق الأرض: "الربع الخالي". وحينما عادت إلى لندن جلبت معها قناعة جديدة بشر بها طالب طب سابق هولندي يدعى ''بارت هيوز''. فللتحرر من الكآبة والتوتر، ولتحقيق معرفة أعمق للذات والوصول إلى حالة من التنوير الداخلي عليك أن تثقب رأسك، فبفضل ذلك يبدأ الدماغ بالحصول على كمية أوكسجين أكبر، وكمية أكبر من الدم مثلما هو الحال مع الأطفال الرضع.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

في شقتها المطلة على نهر التيمز بمنطقة تشيلسي الفاخرة نجحت ''فيلدنغ'' في ثقب رأسها، بفضل مثقب كهربائي صغير. أولا حلقت شعرها، ثم ارتدت نظارة شمسية على حوافها شريط لاصق منعا لدخول الدم في عينيها. وبعد أن سكبت مخدرا موضعيا على نقطة الحفر حزتها بمشرط صغير، لتثبِّت المثقب فيها. كان شريك حياتها ''جوزيف ميللن'' يصورها خلال تلك العملية بواسطة كاميرا خاصة استأجرتها ''فيلدنغ'' مسبقا لهذه المناسبة، ولم تهتز الآلة بين يديه حتى حينما انفجر الدم كالينبوع من رأس صاحبته.

اطلقت ''فيلدنغ'' على فيلمها اسم "نبض القلب". فحالما تجاوز سن المثقب حدود الجمجمة شعرت بانطلاق دماغها بالنبض أيضا بعد تحرره من سجونه. إنها الآن ذات وعي أوسع من دون استخدام حبوب "أل أس دي"؛ أكثر طاقة وإلهاما؛ وفي حالة شعورية عالية دائما.

لم تكتف ''فيلدنغ'' بتسويق فوائد ثقب الرأس الجمّة لأوسع جمهور ممكن: تحرر المرء من مخاطر الإصابة بالعصاب والكآبة أو الإدمان على الكحول والمخدرات، والاحتفاظ بمعنويات عالية دائما، بل رشحت نفسها لانتخابات عام 78، تحت شعار واحد: جعل عملية ثقب الرأس على نفقة وزارة الصحة، وفازت بتسعة وأربعين صوتا.

لم يكن هناك في كل محاجّات ''فيلدنغ'' أي أثر للهذر المثير للضحك. بل حتى الحجج المضادة ظلت محتفظة بجديتها ومنطقيتها الصلبة. قال أحد الأطباء المعترضين: لا يمكن تحقيق التنفيس في الرأس من خلال ثقب واحد بل ثقبان. فمثلما

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

هي الحال مع السوائل داخل المعلبات، نحتاج إلى عمل ثقبين على سقوفها كي نستطيع تحريك محتوياتها.

فن المحاجّة المنطقية: حتى حينما تكون القضية شاذة، خاصية إنجليزية محببة. وتحقيقها يتطلب ترويض العاطفة تماما. أن تصبح القضية التي ندافع عنها أو ننتقدها خارج كياننا العاطفي.

ظل ''صالح'' يتابع بشغف الجدل الذي تفجر خلال الشهور الأخيرة حول عقوبة الإعدام. ابتدأت المعركة أولا في البرلمان، حينما قدم عدد من النواب المحافظين اقتراحا بإعادتها. وشيئا فشيئا اتسعت ساحة الحرب لتشمل الصحف ومحطات التلفزيون والراديو، ومعها تمترس المؤيدون والمعارضون وراء أسوار حججهم المتجددة، حتى مع معرفة الطرفين استحالة العودة إلى الخلف. لكن متعة الجدل وما يحرضه من تنشيط للقدرات العقلية هو الهدف النهائي، خصوصا حينما تبقى القضية منفصلة عن وجدان المعنيين أنفسهم. إنهم أكثر انشغالا بمبدأ الإعدام نفسه من معاناة ذلك الكائن الذي يلتف الحبل حول رقبته.

20 شباط 1969

لم يكن هناك دليل على تورط المعدومين بالتجسس سوى ذلك التسجيل الإذاعي لمقاطع من محاكمتهم أمام محكمة عسكرية خاصة. كان التوبيخ الحاد الذي يوجهه القاضي ''وثْوِتْ'' للمتهم حينما يختنق في عباراته تصعيدا آخر للفضول: متى جرت هذه المحاكمة وأين؟ هل جلس المتهمون

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

علـى مقاعـد أم أنهـم وضـعوا فـي أقفـاص تضـيق وتتسـع علـى صـدورهم حسـب إجابـاتهم؟ أو هـل بـدأت المحاكمـة أثنـاء تحضـيرهم للإعـدام؟ إذ جـرى بثهـا فـي الليلـة التـي سـبقت الكرنفال.

يكتشـف الآن، وهـو يراقـب الشـارع التجـاري عبـر نافذتـه، مصـدر الرعـب الـذي ظـل يغـذي كوابيسـه: تلـك الحشـرجات القادمة من رئات كفت عن الزفير، تقابلها سعلات العقيد وِتْـوِت المصطنعة. ***(ماكابْر)*** صوتي يمهد لـ ***(ماكابْر)*** بصري.

يحضـر إلـى ذاكرتـه عنـوان آخـر دروسـه: الطاقـة الكامنـة. طرح أحد طلابه سؤالا بدا له شديد السذاجة: "إذا كانت الطاقة الكامنة تساوي الطاقة الحركية كما يقول نيوتن لماذا يزيد تـأثير الأخيرة على الأولى بكثير؟" "هل يمكنك أن تعطي مثلا؟" سـأله ''صـالح''. "قد يؤذي المرء نفسه إذا أمسك مادة يورانيوم بسبب إشعاعاتها، لكن حينما تنفجر النواة يموت مئات الآلاف،" أجاب الطالـب، فأثـارت ضـحكا صـاخبا بـين الآخـرين جعلـت وجهـه يصـطبغ بحمـرة شـديدة. بـادر ''صـالح'' بامتـداح السـؤال أولا. "من لديه تفسير؟" بعد إقصاء عدد من الإجابات، توقف عند رد أثار ضحكا وتعليقات ساخرة: "لأن الطاقة الكامنـة كامنـة". هل يمكنـه أن يقول لهم إن هدف هذا القانون استبعاد وجود طاقة إضـافية تـأتي مـن خـارج عـالم المـادة؟ لكنـه بـدلا مـن ذلـك وجـد نفسـه تحـت سـطوة شخصـية المعلـم: "مـاذا يحـدث حـين يصـعد أحدكم سلما وفي يده حجر صغير؟ طالمـا بقـي معـه ذلـك الجسـم فإنه لن يؤذي أحدا، لكنه حال الإفلات من أصـابعه تبـدأ الطاقـة الكامنـة بـالتحرر متحولـة إلـى طاقـة حركيـة. وكلمـا ارتفـع ذلـك الشـخص مـع الحجـر أكثـر ازداد الأذى الـذي سيلحقه بالشـخص

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الواقف على الأرض. الطاقة الكامنة بحاجة إلى فراغ حولها كي تحرر نفسها"

مرقت في ذهنه، آنذاك، صورة "الرياضيين" الأربعة عشر، مع تغيير طفيف: على صدر كل منهم عُلقت قطعة من المقوّى مكتوب عليها اسمه بخط بارز، وتحتها كلمة جاسوس.

كيف يمكننا معرفة طبيعة الحجر الحقيقية إذا لم يُمنح فراغا؟ وكلما زاد هذا الفراغ تمكن هذا الحجر من التعبير عن مكنون نفسه بشكل أصدق. هل سيصبح سياسيو بريطانيا قتلة لو أزيحت الكوابح عن حركتهم ؟ لم يمض على الانقلابيين الجدد أكثر من ستة أشهر منذ خطفهم للسلطة، انشغلوا خلالها بالسيطرة على أجهزة أمن الدولة. وها هم اليوم يقدمون أول عرض علني لهم. "ماكابْر" ملوَّن يخاطب الأحشاء ويشل العقل.

لم يتغير أي شيء في المقهى الصغير المجاور لساحة التحرير. كان صاحبه مشغولا كعادته في متابعة أباريق الشاي، المصطفة فوق سطح خزفي ساخن، وحالما وضع النادل الشاب الصينية بالقرب منه، بدأ بسكب السائل الأسود في "الاستكانات" المصفوفة بانتظام فوق صحونها الصغيرة، فراح السكر الكثيف داخلها بالذوبان سريعا وسط البخار المتصاعد منها.

لكن حلاوة الشاي اختفت في فمه، وحلت محلها حموضة غريبة، امتزجت بتلك المتصاعدة من معدته. بدا كل شيء في مكانه، باستثناء اختفاء بورتريه صاحب المقهى الذي خططه له فنان مفلس مقابل نصف دينار. كان ''إبراهيم'' شديد الإعجاب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

به، فعلقه وسط الجدار المقابل للشارع داخل إطار ذهبي، ولعل رهبة هذا الصباح أقنعته بضرورة التخلي عن بورتريته الوحيد، وتعليق صورة فوتوغرافية للرئيس بملابس عسكرية زاهية.

جذبته ملامح الجالس إلى جواره. ولا يعرف لماذا حضرت في ذهنه شخصية ''إيفان كرامازوف'' في تلك اللحظة. لعل وراء ذلك نظارتيه السميكتين وشعره المفروق من الوسط ومعطفه القصير المزرر. كان ينظر إليه بمزيج غريب: لا مبالاة وشغف معا، خلقت في نفسه ارتباكا مزعجا. أبعد احتمال أن يكون مخبرا، حتى مع ذلك الفضول الذي يقرأه عبر عيني الآخر المضببتين. يستطيع أن يقدر عمر جاره. إنه في سنه أو يزيده بعام أو عامين، ولا بد أنه طالب جامعي أيضا.

جاء صوته مفاجئا: "هل شاهدتهم؟" وكأن سؤاله أيقظ استغرابا في نفوس القريبين منهما. كان بعضهم منغمراً تماما في لعبة الدومينو، حتى مع استمرار الأناشيد الوطنية التي تصل أصداؤها إليهم من الساحة، وخروج البعض لإلقاء نظرة أخرى على المشهد ثم العودة إلى المقهى. "ما رأيك لو نخرج من هذا المكان؟" سأل جاره بنبرة أليفة، تعطي انطباعا أنهما صديقان قديمان.

10 تموز 1983

اقترحت ''شهرزاد''، الأحد الماضي، المرور على بيت ابنة خالها. كانا آنذاك في طريق عودتهما من "هايد بارك" والشمس أوشكت على الاختفاء تاركة فوق الأشجار شررا برتقاليا. "هي سافرت إلى بغداد؟" سألها. "نعم، ولكنها لم تأخذ معها ''سليم''"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

قالت بانفعال مبطن. وحينما قرأت استغرابا فوق عينيه رددت شارحة: "أنت تعرف أن أباها مريض، وهي لم ترد إزعاج أهلها" تداركت نفسها على عجل: "على الأقل هذا ما أظن"

عند وقوف السيارة أمام بيت قريبتها، التفتت إليه: "افكر أن آخذ ''سليم'' معي حتى عودة ''بيداء''. هل هناك عاقل يترك طفلا مع ''عبدل''؟" انفجرت بضحكة تخفي قلقا. بعد دقيقة صمت ظلت ''شهرزاد'' ماسكة صدغيها بكلتا راحتي يديها التفتت إليه:

"خلاص سآخذه الآن. ستفرح ''هيلين'' به كثيرا. ما رأيك؟"

"فكرة رائعة. استطيع أن اعتني به أيضا. عطلة الصيف ستبدأ بعد أيام في معهدي" "والكتابة؟"

"أنا بحاجة إلى طفل مثل ''سليم'' لأدرسه"

وحينما قرأ فضولا اقوى في عينيها، تدارك: "في روايتي طفل يشبهه" طبعت على خده قبلة، اعترافا بالجميل، وقبل أن تهبط من السيارة قالت على عجل: "سأعود بسرعة، لا داعي لنزولك" ظل يتابعها عبر النافذة الجانبية، وهي تكرر دق جرس الباب. كان قادرا، برغم عتمة الغروب المتعمقة، على تلمس توترها عن بعد، من خلال رصد حركة ساقيها وذراعيها، وعند عودتها ظلت صامتة وقتا أمام المقود. "ماذا تظن أن ''عبدل'' فعل له؟" سألت فجأة، وقبل أن يجيبها، بادرت بنبرة مرحة سعيا لتخفيف قلق راح ينوس في رأسها: "هل يمكن أن يكون قد باعه على سبيل المثال؟" ثم انفجرت بضحكة. "ألا تجد أنني أبالغ في نظرتي؟ ''عبدل'' ليس شريرا إلى هذا الحد، مو صحيح؟" "لا، طبعا، لعله أخذ ''سليم'' إلى حديقة الحيوانات، قال مطمْئنا"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

20 شباط 1969

حتى لحظة لقائهما في المقهى، كانت حياته محكومة بمبدأ واحد: الواجب. ولم يساوره أي شك بأن الجميع مثله.

قال ماهر بعد تلاشي الأصوات وراءهما: "ما الذي جعلك تحضر اليوم؟" وكأن السؤال أخرجه من دوامة صورة ظلت تقفز أمامه بإلحاح: جثة ببدلة حمراء تنوس كرقاص تحت تأثير نفحة هواء مفاجئة. "لا أعلم، ربما نوع من الفضول،" أجابه."وأنت؟" "مثلك، أنا لم أر شخصا ميتا في حياتي"

أعاد الآخر خيط الحديث بعد حلول صمت طويل بينهما. كانت خطواتهما تضرب الرصيف بانتظام وأعينهما تستدير من وقت إلى آخر صوب دجلة الذي تشرب بلون الغروب المفضل: البنفسجي الغامق. "هل تعرف أنني اكتشفت اليوم حقيقة غريبة،" قال ''ماهر''، "للإنسان قدرة هائلة على مشاهدة أي فظاعة من دون اكتراث، شرط أن يكون مع حشد كبير من المتفرجين. ألن تفزع لو أن ما شاهدته اليوم حضرك أمس كحلم؟"

جذبه الحوار مع ''ماهر''، أو بالأحرى طريقته المتقنة في الاشتباك. فعبر أسئلة مدرسية بريئة، يدفع الآخر للتعبير عن قناعاته، ليبدأ هو من ثم بتقويض أسسها، منتزعا مع كل خطوة موافقة غريمه. ثم فجأة: كش ملك.

اكتشف ''صالح'' أثناء جلوسهما في حانة سرجون اختلافا بينهما: إذا كان هو حريصا على التحدث مع النادل بلطف كان مرافقه شديد الجفاء معه. أو هكذا بدا له الأمر آنذاك. لعل لا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مبـالاة ''مـاهر'' بالعـالم الخـارجي وانغمـاره بحـوار داخلـي متواصـل كانـا وراء انشـداده إليـه. إنـه هـو الآخـر يشـعر الآن بالحرية الداخلية. كأن الزبائن المحيطين بهما كيان هلامي لا يثير أي ارتباك في نفسه. "هل تحب أن تأتي معي إلى البيت؟" قال مرافقه، ثم أضاف حينما قرأ ترددا فوق عينيه: "سيحضر أصدقاء آخرون هذه الليلة، وقد يعجبك بعضهم"

17 تموز 1983

تابعت عيناه حقل الأخبار المقتضبة: "سلسلة سي أن دي: عشرة آلاف معاد للأسلحة النووية يتظاهرون أمس، مشكلين سلسلة بشرية طولها ميلان عبر هايد بارك بين السفارتين الأميركية والسوفيتية؛ معركة بيروت: اندلاع قصف ثقيل عند حافة بيروت بين المليشيات المسيحية والدرزية"

حضرته جملة الرسام سيزان الشهيرة: "كل شيء في الطبيعة مصاغ وفق الكرة والمخروط والأسطوانة. على المرء أن يتعلم الرسم من هذه الأشكال" أعاد كتابتها في دفتر ملاحظاته بهذا الشكل: "كل شيء في الطبيعة مصاغ وفق طاقات الشعور والغريزة والعقل. على المرء أن يتعلم الكتابة من هذه الأشكال"

عاد إلى الصحيفة: **"تقترح السيدة تاتشر فرض عقوبات سجن أطول على المجرمين العنيفين إرضاء للمحافظين المناصرين لعقوبة الإعدام؛ نيلسون مانديلا، زعيم المؤتمر الوطني الأفريقي المحظور، يبلغ غدا الخامسة والستين، وسيشهد المناسبة داخل زنزانته في سجن بولسمور الواقع خارج كيب تاون"**

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

خلال آخر حفلة عشاء نظمتها ''شهرزاد'' قالت لـ''ريتشارد'' كسرا للصمت القائم بين ضيفها وبينه: "هل تعرف أن ''صالح'' يكتب رواية" كانت قوة صوتها كافية كي تجلب انتباه كل المدعوين، وتضاعف من ارتباكه.

"عن أي شيء تدور؟" سأل جاره بطريقة بدت له مصطنعة.

"حول الطاقة"

"إذن هي رواية خيال علمي؟"

"تقريبا"

"بالتأكيد أنت تستخدم أسلوب **تيار الوعي**؟"

"لا أظن"

"وهل يمكن كتابة رواية اليوم بأسلوب آخر؟"

"أظن أن **تيار الوعي** خدعة فنية لسرد حكاية بأقل الخسائر"

"كيف؟"

"أن تتبنى صوت البطل الداخلي. لكن من يستطيع أن يثبت أننا نفكر بهذه الطريقة؟ رؤوسنا ليست سوى مكاتب من الفوضى، هدفها فرض النظام على ما هو خارجها"

كسرت ''شهرزاد'' الحديث بينهما. "هذه حفلة عشاء لا ندوة ثقافية. تعالا خذا حصتكما من الطعام قبل اختفائه" قالت بمرح.

20 شباط 1969

حتى انفتاح الباب، لم يتخيل ''صالح'' لحظة، وجود عالم آخر في بغداد مختلف عما ألفه من قبل. قال ''ماهر'' معرّفا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بالفتاة التي ارتبكت قليلا لرؤيته: ""مها'' زوجتي" لعل عينيه تسللتا لحظة دون إرادته إلى ما تحت التنورة القصيرة: إلى أسفل الفخذين العبلاوين. ولم يكن ليفعل ذلك لولا كأسي العرق اللذين تناولهما في سرجون.

يتذكر، حتى بعد كل هذه السنوات، غرفة الجلوس لحظة وصوله إليها. هل جلبت انتباهه صورة ''غيفارا'' أولاً أم الجورنيكا؟ لا بد أن عدد الحاضرين زاد عن الاثني عشر، لكن انفتاح الغرفة على الممر سمح لبعضهم بالجلوس عند حافتها. ما أدهشه حضور الفتيات. كان البعض منهن جالسا على الكنبتين الخشبيتين المتقابلتين، بينما افترشت أخريات الأرض. بدا الجميع منتشياً تحت غيمة دخان السجائر. كان صوت الشيخ إمام يترجع في الفراغ وسط اللغط المتواصل كهمهمة طقسية غامضة، فتزيد من غرائبية المكان.

عرّفه ''ماهر'' بالكل. ابتدأ أولا بشريكي سكنه: ''سمير'' وزوجته.

أثار انتباهه التحول الذي طرأ على مناخ الجلسة حال ظهور ''ماهر'': كأن الرجال أصبحوا أكثر جدية. قال ''سمير'' معاتبا: "أين ذهبتَ كل هذا الوقت؟ أنت تعرف بلقائنا؟" كانت نبرته المهزوزة والحادة تشي ببلوغه الثمالة. وما عزز هذه القناعة في نفس ''صالح'' تلك النظرة النارية القصيرة التي أسقطها الآخر عليه.

لكن ''سمير'' عاد إلى حمى نقاشه السابق مع ضيفين آخرين، ومع جلوس ''ماهر'' أمامه اصبح صوته أكثر تماسكا وثقة. "أنا أقول: الوجود يسبق ماهيتنا. وإن اختياراتنا هي التي تحقق هذه الماهية. أليس كذلك؟" كانت عيناه مسلطتين على

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

’’ماهر‘‘ بانتظار كلمة استحسان منه. "وأين هو موقع اللاشعور من ذلك؟" سأله أحدهما. ارتفع صوت ’’سمير‘‘ غاضبا: "اللاشعور كذبة كبيرة هدفها نزع المسؤولية عنا" التفت فجأة إلى ’’صالح‘‘ مستفزا: "وأنت ما رأيك؟" لا بد أن احمرارا طفح على وجهه جعل الآخر أكثر عدوانية: "اتفق معك، ولكن العامل الاقتصادي." "دعك من هذا الهراء،" قاطعه ’’سمير‘‘، "أنت من أتباع المنجل والمطرقة؟ اِعترفْ. أنا لن أشي بك" اندفع بضحكة هستيرية: "اتفق معك!" "من طلب منك أن تتفق معي؟ ألم يقل لك ’’ماهر‘‘ إن توليد الأفكار متعة بحد ذاتها لا تتطلب أي إيمان بها؟" تدخّل مضيفه لحمايته. قال لـ’’سمير‘‘ بنبرة رقيقة وصارمة معا: "لماذا لا تذهب إلى الحمام وتغسل وجهك؟"

17 تموز 1983

كان ’’صالح‘‘، لحظة قطع ’’شهرزاد‘‘ حواره مع ’’ريتشارد‘‘، على وشك إجراء مقارنة ما بين نظرية اللايقين الفيزيائية وعملية التفكير: نحن لا نستطيع أن نقيس سرعة الإلكترون وموقعه معا؛ كذلك نحن لا نستطيع أن نفكر ونرصد تفكيرنا معا. أسلوب تيار الوعي أشبه بالشكل الافتراضي الذي قدمه ’’بوهر‘‘ للذرة. أنيق، لكنه لا يمت بصلة إلى الواقع. حينما يحاول أي منا، وللحظة، قبض ما يدور في رأسه، تختفي كل تلك الأمواج العاتية، المتحركة في شتى الاتجاهات، تاركة وراءها فراغا. ما نراه في الشارع من حركة منتظمة للأفراد لا تتماشى مع كمّ الضجيج الدائر وراء قشرة الرؤوس. وعينا يظل منذ لحظة استيقاظه منفلتا: ذكرى تطرد أخرى، فكرة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تختلط بأخرى، عاطفة تحل محل نقيضها. وحالما نقرر مراقبة هذا الدفق الهائل يختفي كل شيء. نفكر بالعالم فتختفي ذواتنا؛ نفكر بذواتنا فيختفي العالم.

يتوقف عند هذا الخبر: **"اتفاق إرهابيي ألستر حول الخونة: يسود اعتقاد بأن الإرهابيين الجمهوريين والموالين في إيرلندا الشمالية يعملون معا لتصفية "الخونة" الذين ساعدوا في اعتقال 80 منهم وكشف جرائم قتل تعود إلى 10 أعوام"**

ما الذي يشده إلى رسوم سيزان؟ تابع من فراشه صور اللوحات الملصقة على الجدران. لعله الشعور بعدم اكتمالها. أو ذلك التشويه المتروك على وجوه الأفراد، لكنه حالما ينظر إلى اللوحة ككل يكتشف التناغم بين أجزائها. التضحية بالجزء لصالح الكل. إزالة الفارق بين وجه الإنسان وسطح التفاحة. الكل يمتلك حقوقا لونية متساوية. كذلك هو الحال مع أبطاله، يتحدد الفارق بينهم بدرجة الطاقة ونوعها. وإذا كانت حدود الجسم لا تظهر عند سيزان عبر الخط الحدودي بل عبر درجة الإضاءة والظل مع السطح الآخر فإن خصائص البطل في روايته لا تظهر إلا من خلال تجاوره مع الشخص الآخر.

"احتفل مانديلا وزوجته الثانية ويني باليوبيل الفضي ليوم زواجهما هذه السنة؛ موت المنشق السوفيتي يوري أورلوف المضرب عن الطعام في السجن، بعد إصابته بالتهاب رئوي"

وقف أمام آخر صورة رسمها سيزان لجبل "سانت فيكتوار". هنا يتم تشكيل المشهد بواسطة بقع لونية فاتحة وغامقة تتجاور جنبا إلى جنب. وعند النظر إليها منعزلة لا توحي بأي إشارة للأشياء. فقط عند رؤية الشكل كاملا نكتشف

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

معالم المشهد الآسرة، ولن تجد العين أي صعوبة في التلقي حتى حينما تكون بعض بقع السماء خضراء.

هل يمكن لشخصياته أن تكون مجرد بقع لونية ذات طاقات فاتحة وغامقة؟ لكن ماذا حول العاطفة؟ هل هي طاقة مستقلة يجب إضافتها إلى الطاقات الثلاث الأخرى أم هي مصدرها؟

20 شباط 1969

لم يشاهدها حينما أطلت من حجرتها. كل ما يتذكره استدارة رقاب الحاضرين صوبها بلهفة، بينما ظل هو محتفظا بجلسته. تخيلها وهي تخرج من الباب الذي ظل مغلقا طوال الوقت وراءه. همس جاره مازحا: "كان على سارتر أن يقول: الجحيم هو ''سلمى'' لا الآخرون"

لا بد أن الوقت تجاوز منتصف الليل، غادر بعض الضيوف البيت، بينما حل هدوء مفاجئ على الجلسة، بعد ذهاب ''سمير'' إلى حجرة نومه.

كانت تقف خلفه تماما. حدس ذلك من خلال تبدل تقاطيع وجه ''ماهر''. قال الأخير: "تأخرتِ علينا اليوم" "لم تنم بشرى إلا للتو،" أجابت بنبرة متأسفة، "مع ذلك، ما زلنا في أول السهرة، وغدا جمعة. لم تعرّفني بصديقك،" قالت جملتها الأخيرة بعد صمت قصير. نهض لمصافحتها، وحينما استدار نحوها، أحس للحظة كأن صاعقة ضربته.

غمره شعور، بأنه رآها من قبل. بل هو تعرّف عليها ذات يوم في زمن آخر، وجمعتهما حياة ما معا. ها هو يقرأ في عينيها المشرقتين دعوة غامضة له، جعلت الكلمات تجمد في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

فمه، ويمضي قلبه طليقا في النبض. إنه للتو يكتشف معنى أحداث اليوم التي آلت إلى الالتقاء بـ''ماهر''. سلسلة خيارات عشوائية أوصلته إلى هذه اللحظة. لكن الخيارات تنتهي للتو. إنه يسير تحت وطأة تنويم مغناطيسي لم يعشه يوما من قبل. حتى تلك اللحظة كان يعيش وفق مبدأ الواجب. ما يناسب أفراد أسرته يناسبه. عرضت امه عليه فكرة الاقتران بجارتهم ''إلهام''. "إنها مثل بناتي أنا ربيتها على يدي،" قالت له. ولم يجد سببا للرفض طالما أن موافقته تريح الأم. ستتم الخطبة حال تخرجه من الجامعة هذه السنة.

ما الذي يجعل ذاكرته تسترجع بلا كلل تلك اللحظة؟ كيف تم حفظها من عث النسيان؟ يقول المعري إن كلمة إنسان مشتقة من نسيان. نحن نسير في صحارى الماضي بلا أي أثر باق، باستثناء تلك الواحات الصغيرة التي تظل محطات للطاقة تغذي أرواحنا ضد الموت بسبب النسيان.

كأن ظهور ''سلمى'' المفاجئ ضخ في الحاضرين حيوية غريبة. كان معظمهم على وشك المغادرة. بدأ ثلاثة أزواج بتوديع ''ماهر'' ومها.

" أين أنتم ذاهبون؟ الدجاج فقط يذهب إلى النوم الآن" قالت ''سلمى'' ضاحكة. وحينما قرأت ترددا على وجوه الزوجات الثلاث، رددت بنبرة قاطعة: "حسنا، ابقوا نصف ساعة فقط. نشرب كأسا معا وتغادرون" .

لكنهم مكثوا أكثر من ساعتين. أخرجت ''سلمى'' كاسيت الشيخ إمام من المسجل ووضعت بدلا عنه آخر لألفيس بريسلي. قالت معلقة: أظنكم شبعتم من الأغاني الثورية. حان الوقت لتبتهجوا.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يستطيع الآن فقط العثور على كلمة تصف ما قرأه على وجوه الرجال منذ حضور ''سلمى'': الشغف. حتى مع مشاركة زوجاتهم بالرقص. كانت أعينهم تتلصص بين فينة وأخرى صوبها.

ظل ''صالح'' ملتصقا بكرسيه، غير مصدق حقيقة ما يراه. لا بد أنه مستغرق في حلم. كان جسد ''سلمى'' يهتز تحت أغنية "لا تكن قاسيا": مزيج من باليه وتانغو وسامبا. تتابع عيناه بشغف حركات ذراعيها ووركيها وساقيها. كأن كل خلية في جسدها مندمجة بإيقاع منتظم سريع بينما راحت أصابعها تتحدث بلغة إشارات غامضة. على العكس من ذلك المشهد الباهر كان الآخرون مستغرقين في حركات عشوائية خرقاء.

لعلها لمحته لحظة خروجها من تلك الحالة، حينما بلغت الأغنية آخر سطورها. كانت عيناه مثبتتين عليها، وكأنها قرأت ما يعتمل في نفسه آنذاك حينما رمته بغمزة تواطؤ جريئة، جعلت قلبه يزوغ عن نبضاته وجبينه يغرق بالعرق.

لكنها انسلت من بين الآخرين حال تباطؤ إيقاع الموسيقى مع أغنية "ليلة واحدة معك"، وتحولهم إلى الرقص الزوجي. وقفت أمامه، مطبقة راحتي كفيها بعضهما ببعض: "هل يمكن أن أطلب يدك لهذه الرقصة؟" قالت بنبرة متضرعة مرحة، دفعته للنهوض فورا. وقبل أن يصلا إلى وسط الغرفة، ردد بصوت مرتعش: "أنا لم أرقص في حياتي" همست في أذنه وهي تمسك بيده وتتقدم إلى الحلبة: "لا تخف. اتبع تعليماتي فقط وستتعلم بسرعة"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

21 شباط 1969

حينما استيقظ ''صالح'' راوده، للحظة، شك بمكانه. كانت الستائر مغلقة، لكن ذلك لم يمنع من تسرب ضوء النهار الصبوح للتغلغل إلى فراغ الحجرة. يستطيع من موقعه أن يقرأ الوقت فوق الساعة الجدارية المعلقة أمامه. بدا له البيت هامدا في صمت أزلي ولا علامة على وجود حياة حوله إلا تلك الدمدمات المتقطعة القادمة من الخارج. دارت عيناه صوب الباب المغلق. استيقظ في نفسه حنين غامض جعل الهواء يحتبس في صدره. لم يكن ذلك الشعور موجها لشخص ما بل هو أقرب إلى رغبة في الانصهار بما حوله. غمره للحظة فرح عاصف ليختفي فجأة ويحل محله يأس عميق. كأن ذلك الباب الموصد لم ينفتح أمامه قبل ساعات قليلة ولم يجمعه الفراش هناك بها.

بعد مغادرة جميع الضيوف، نهض هو الآخر لينصرف، حينما جاءه صوت ''ماهر'':

"لماذا لا تبيت هنا؟" قالت زوجته حينما رأته مترددا: "نحن في كل الأحوال نستيقظ متأخرين يوم الجمعة،" ثم أضافت مغرية إياه: "ما رأيك، سنتغدى كلنا معا غدا"

حتى مع بقاء ''سلمى'' صامتة، حدس أنها تحثه أيضا على البقاء. التفت إليها فلم يقرأ في عينيها أي رغبة. حضرته تلك الدقائق القليلة التي بدت له أزلية، حينما كفت عن توجيه خطواته. بدلا من ذلك، استسلم لحركة جسدها المرن. طوقت يده اليمنى ظهرها بينما تشبثت الأخرى بأصابع يدها اليمنى. كانت حواسه مستيقظة كليا لها. تتنقل نبضات عروقها إليه عبر تماس أصابعهما، فتستجيب دماؤه لها بنبض إيقاعي متماثل.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تلاشى الآخرون شيئا فشيئا من حوله. إنهما الآن معا: جسداهما سفينة واحدة تتحرك وسط بحر هادئ، بينما راح قلباهما يخفقان بإيقاع واحد، وسط خفقات ضوء الشموع الباهت.

حل ظلام شامل في البيت. كانت ذاكرته متشبثة بلحظة انتهاء الأغنية: ها هو يخرج عنوة من حلم مشترك معها لم تكتمل نهايته، ومع اشتعال المصابيح وبدء الآخرين بالانصراف انشغلت عنه بتوديعهم.

التصقت عيناه بدرفة باب غرفتها. كان هناك نثار من ضوء باهت يرسم خطا واهيا تحته هل ما زالت مستيقظة؟ أثار هذا السؤال اضطرابا في نفسه. انه يتلمس شعورا بالإثم يتسرب إلى أنفاسه، كأن روحا جديدة تنبت في صدره وتشتبك مع روحه القديمة: بين اشتهاء امرأة حقيقية لأول مرة وبين النظر إليها أختا تحت حمايته؛ بين الشبق المطلق وبين الطهرانية المطلقة.

كان على عتبة النوم حينما لامست أصابع رقيقة كتفه. فتح عينيه. استقبله فراغ معتم، يتوسطه وجه بلا ملامح، لكنه استحضر تفاصيله. كانت صورتها مطبوعة في مخيلته. مدت يدها إليه: طوافة نجاة تخرجه من موج جارف. هل قاوم جسده سحب أصابعها الرقيق؟ لا يتذكر. كل ما علق في ذاكرته الآن هو حالة الذهول التي تلبّسَته وهو يتتبع خطواتها صوب بصيص الضوء القابع في حجرتها. لعل مشاعره في تلك اللحظة قريبة إلى مشاعر ''آرمسترونغ'' لحظة وضع قدميه على القمر، الفارق الوحيد بينهما أن رحلته باتجاه واحد لا عودة منها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

17 تموز 1983

جذبته لوحة ''سيزان'': طاولة المطبخ. هنا تفقد الفواكه مدلولاتها. إنها مجرد وسائل لونية تشارك في خلق اقصى درجة من التناغم على سطح متكون من بعدين. البعد الثالث يعكسه تجاور الألوان الباردة والحارة: الأحمر بجانب الأخضر؛ الأصفر بجانب الأزرق؛ القرب بجانب البعد. التخلي الكامل عن المنظور الخطي. بدلا من ذلك، تتضخم الأجسام وتصغر لا حسب قربها وبعدها من المشاهد بل حسب أهميتها للتشكيل.

تسرب عبر النافذة المفتوحة شعاع ضوء مفاجئ لحظة فانعكس على صورة اللوحة. توقفت عيناه عند الوعاء الفخاري وسطها. بدا داخله منظورا إليه من زاوية أعلى. كأن لسيزان عدة أعين منتشرة في مواقع مختلفة أثناء الرسم.

كيف يمكن تطبيق هذا المبدأ في كتابة روايته؟ بسرد الأحداث من مواقع زمنية مختلفة؟ بإدماج وتفريق صوتي الراوي والبطل مثل آلتين موسيقيتين، تتحدان وتفترقان على امتداد زمن المقطوعة؟

فتح دفتر ملاحظاته. واجهته صفحة بلا تاريخ، وبيضاء إلا من سطرين كُتبا بقلم رصاص باهت: **الانطباعية: ترسيخ مبدأ الزوال. اللحظة التي لا تتكرر. سيزان: السعي للقبض على ما هو أبدي في تلك اللحظة.**

21 شباط 1969

تحلقوا حول الطاولة المستطيلة في المطبخ. جلست ''سلمى''

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أمامــه، إلــى جوارهــا جلــس ''ســمير''. بــدا مضــطربا قلــيلا وحريصا على إرضائه. قال وهو يتجنب النظر في عينيه: "لا أتذكر ما حدث أمس. أرجو ألا أكون أسأت بشيء" قاطعته ''مها'' ضاحكة: "أبدا. أنت البارحة كنت مثاليا قياسا بالأمسيات الأخرى. لم تكسر أي كأس أو صحن" ضحك الجميع. تداركت ''سلمى'' حينما وجهت حديثها إليه: ""سمير'' أطيب إنسان. صدقني" مست بخفة شعر قذاله الكثيف." لكن عليك أن تتعايش مع شخصيته. جيكل السلس، المتفاني، في خدمة الآخرين عند الصحو وهايد المشاكس عند السكر" علق ''ماهر'': "لا تنس أن الفضل في ملائكية جيكل يعود إلى شيطنة هايد" أضافت زوجته ضاحكة: "مع ذلك، من الأفضل أن تتجنب هايد. أنا الوحيدة التي تعرف كيف التصرف معه"

لكن الأصوات تخلخلت في أذنيه، حينما فاجأته قدم ''سلمى''. ها هي أصابعها تتسلل تحت حافة سرواله لتستقر فوق قصبة الساق، انجذب لا إراديا إلى لعبة تحاور القدمين. بدتا له كائنين مستقلين: قطين مختبئين يعبران عن رغباتهما بطلاقة. تطلع إليها للحظة. أدهشه انغمارها الكامل مع الآخرين، كأنها لا تمت بصلة لما يدور تحت الطاولة.

يحضره هذا المشهد الآن: بعد تجاوز عتبة حجرتها. أغلقت الباب وراءهما. كان واقفا هناك مذهولا، وسط عالم شبيه بالحلم، تمتلئ أنفاسه برائحة عطر مدوخ. مزيج من ياسمين وليمون وجوري. كم بدت الأشياء حوله غامضة وحميمة في آن، بفعل نثار الضوء الباهت، المترجرج، الذي تبعثه شمعة مخفية عن البصر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

جلب انتباهه سرير الأطفال المحاط بحواجز، ومن أعماقه انبعث شخير ناعم منتظم. استقطب عينيه باب متحرك بمصراعين. كانت واجهته من قماش أصفر، منقوشة عليه فراشات وزهور وكتابات صينية. وقفت ''سلمى'' وراءه قليلا. وحينما تحركت صوب السرير المنخفض بتلقائية، لم يصدق ما رأى، حتى مع تسارع أنفاسه وخفقات قلبه: كانت عارية تماما. همست بعد ولوج جسدها تحت الغطاء، بنبرة مرحة: "اسرع، الفجر على الأبواب"

حتى تلك اللحظة، كان جسد المرأة بالنسبة إليه كيانا مجردا. إنه هناك في مجلات الموضة، أو على حبل الغسيل فوق سطح البيت، حيث تعلق أمه وأخواته، على مضض، ملابسهن الداخلية، وخرقا مبقعة بلون قان منطفئ، وحالما تجف يسحبنها فورا من الحبل.

هل يستطيع نكران قناعته الغريبة آنذاك: المرأة الحقيقية خارج مجلات الموضة كائن حائض دائما؛ جسد هلامي، لزج، لا صلة له بالبهاء الذي تلبس جسد ''سلمى''. منحه انعكاس بصيص الضوء فوقه وهجا، جعله يمد سبابته مسحورا صوبه، للتوثق من حقيقة وجوده؛ للتوثق من حقيقة تلك اللحظة.

ظل يراقب خطواته المتعثرة. تحكمت في ذهنه صورة واحدة: بركان ينفجر دفعة واحدة، فيقذف كل حممه صوب كل الاتجاهات، تندفع اللافا منه متدفقة بلا حواجز، كأنها تسعى لتذويب العالم فيها قبل خمودها.

قالت، مازحة، قبل خروجه من حجرتها: "هل أنت حزين على فقدان عذريتك؟" تمتم مخففا من ارتباكه ومسايرا لمزاجها: "جدا"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

17 تموز 1983

حضره هذا السؤال، أثناء قراءته لإعلان معلق على جذع شجرة سنديان: لماذا يورط المرء نفسه بعلاقات عاطفية محكومة بقانون الزوال؟ **"نرجوكم مساعدتنا في العثور على زن، قطنا البورمي المحبوب جدا. عمره ثلاث سنوات، بفرو كثيف وعينين زرقاوين ولون أبيض. "**

تسللت إلى صدره، لحظة مغادرته بيت ''ماهر''، فقاعة ملل، راحت تتسع مع كل خطوة يرميها صوب بيته. أمسك صوته الداخلي، وهو يتحدث مع امرأة أخرى غير أمه، قبل اختفائه السريع. هل يمكن أن تكون ''سلمى''؟ لا بد أنها قرأت توقا ما فوق عينيه، حينما استأذن بالذهاب، مع ذلك لم تكلف نفسها حتى بالنهوض لتوديعه. اكتفت وهي جالسة على كرسيها بعبارة خالية من أي دعوة للقاء آخر: "مع السلامة" رافقه ''ماهر'' إلى الباب، وخلال تلك اللحظات، سمعها تشارك بحمية في الحديث مع الآخرين.

في البيت، تلمست أمه حالة السهو التي أصابته، حتى مع تظاهره الشديد بمتابعة حديثها وحديث بناتها. ولعلها استشعرت بخطر ما، لم تجد وسيلة أفضل لمواجهته من تذكير ابنها بزوجة المستقبل. "كانت ''إلهام'' هنا اليوم،" قالت امه، "انتظرت المسكينة أكثر من أربع ساعات" التزم على غير عادته الصمت، بينما ظل يقاوم تسلل سحابة إلى أنفاسه: هل هو الشعور بالوحشة من أسرته؟ بالمقابل، سكنه هاجس غريب بقرب انفصاله عنها، فولّد في نفسه انشداداً قوياً إليها.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

غفا لحظة، عند الفجر، فزاره ذلك الحلم، الذي تشبث بذاكرته حتى اليوم: كان جالسا مع ''سلمى'' في حافلة بطيئة الحركة. من وقت إلى آخر، يختض جسده تحت تأثير حُفر الطريق، بينما تتابع عيناه، بانبهار، الظلمة المطبقة على الخارج. يغمره شعور بفقدان الاتجاهات فتتشبث يده أكثر بذراع ''سلمى''. يحضره صوت أشبه بصفير الريح من الخلف، وحينما يلتفت صوبه، يفاجئه وجود عدد من الركاب. يكتشف أن الصوت هو عويل نساء قادم من المقاعد الخلفية. تتشكل في نفسه قناعة غريبة: الجالسات هناك هنّ أمه وأخواته، على الرغم من ضآلة الإنارة التي تجعلهن أقرب للظلال. ينفجر آنذاك ألم حاد في ذراعه الأيمن، وحينما يلتفت صوبه تفاجئه الدماء الغريزة. مع ذلك، يتمكن من مشاهدة أظافر ''سلمى'' الطويلة مغروزة بعمق فيه.

لكن الحلم لم يردع صورة ''سلمى'' وصوتها من التغلغل، أكثر فأكثر، في مخيلته.

اتصل هاتفيا بـ''ماهر'' بعد أسبوع. ولم يصدق أذنيه حين دعاه الآخر لزيارته. "الكل يسأل عنك هنا،" قال مشجعا. غمره خجل لحظة بروز الرغبة بالاستفسار عن ''سلمى''، فتكلس السؤال فوق لسانه.

عند دخوله بيت ''ماهر''، انتاب ''صالح'' شعور غريب: مزيج من فرح وشوق عاصفين، دفعا عينيه للتمعن في كل تفاصيل حجرة الجلوس. كأنه يعود إلى بيته بعد وقت طويل. يلتفت من وقت إلى آخر صوب باب ''سلمى'' الموصد، فتزداد خفقات قلبه ويحتبس الهواء في صدره، بينما راح سؤال واحد ينوس في رأسه: متى تطل من غرفتها؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لا بد أن ''مها'' قرأت أفكاره، حينما قالت مطَمْئنة: ""سلمى'' ذهبت لرؤية أصدقاء لها وستعود قريبا"

انشغل الجميع بالحديث في مواضيع مختلفة، بينما ظل ذهنه شاردا معظم الوقت. كان هناك صديقان آخران لم يرهما في اللقاء الأول. قال ''ماهر'' لأحدهما بنبرة حازمة:

"ليس هناك شيء اسمه طبيعة بشرية، يمكننا أن نقيس بها الصالح والطالح"

"إذن ما هو المعيار؟" سأل الآخر.

"أن تنبع قرارات الفرد من ماهيته الحقيقية"

"حتى لو كان ذلك القرار يتطلب قتل الآخرين؟"

"دائما يكون القتل تحت دوافع نبيلة تهدف إلى إرضاء الآخرين أو أفكارهم"

"إذن من يكوّن ماهية الإنسان؟"

"اختياراته"

وقبل أن يمضي في شرح فكرته تدخل ''سمير'' مؤيدا بحماس: "الاختيار يصنع الماهية. هذا بالتأكيد يعني أنني لو لم أختر أي شيء فأنا لن تكون عندي ماهية. دائما هناك أكثر من خيار: حتى الانتحار هو اختيار. أليس كذلك؟"

جاء رنين الهاتف، ليخرجه من فلك إلى آخر: من نار الانتظار الهادئة إلى جحيم اليأس. رفعت ''مها'' السماعة، بينما ظلت أذناه متوثبتين صوبها. عادت إليهم لتعلن: ""سلمى'' ستبقى هذه الليلة عند أصدقائها" ولم يثر الخبر في نفوس

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الحاضرين أي رد فعل، باستثناء تلك الابتسامة التي تبادلها ''ماهر'' و''سمير''.

عاد إلى الإعلان الذي انتزعه من الشجرة: **"إذا كانت لديكم أي معلومات حول مكان معشوقنا الذي نفتقده كثيرا اتصلوا بنا رجاء على الرقم... وشكرا جزيلا".**

راودته الرغبة في مكالمة أصحاب القط: "هل يمكنكم أن تصفوا لي مشاعركم بفجيعة الفقدان؟" أو "لماذا لا تشترون آخر شبيها به؟ أم أن للقطط شخصيات مختلفة أيضا؟"

كم مضى عليه قبل سماعه صوت ''سلمى'' ثانية؟

تحدث ''ماهر'' معه على الهاتف أولا. هناك صديق يريد أن يسلم عليك. ثم جاء صوتها: "يبدو أنك تنسى أصدقاءك بسرعة،" قالت بنبرة عتاب وتوبيخ معا. ردد بعد فترة صمت سعى خلالها إلى تجميع أنفاسه المنفلتة: "كنت مشغولا جدا"

قضى ذلك النهار، وجملتها تترجع دون كلل في رأسه. فرح يعصف به، ليطوح بذلك القسَم الذي ظل يردده كل يوم: "لن أراها ثانية، أبدا" حتى مع الكآبة التي عصفت به؛ حتى مع الحمى التي سكنته لأكثر من أسبوع.

جاءه المرض رحمة حقيقية؛ إخراجا له من دوامة هوس آسر، يبتدئ بتردد اسمها داخل جمجمته، قبل انتقاله قسرا إلى لسانه، وأينما التفت كانت هناك: قريبة وبعيدة في آن. تسترجع ذاكرته، تفاصيل حجرتها قطعة قطعة، رائحة الهواء المشبع بعطر خفيف، بهاء بشرتها وعينيها وشعرها. لكن شيئا واحدا اختفى إلى الأبد من ذاكرته: تلك اللحظة التي جمعتهما في الفراش: كان يراقب أعضاء جسده تتخبط صوب هدف واحد:

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الانصهار الكامل بها. انهما الآن كائن واحد. كأن كل خطوات حياته سارت صوب هذه اللحظة، حتى مع استمرار شكه بحقيقتها. فجأة، يعم الارتعاش خلاياه: زلزال يقوض كيانه؛ شعور غامر بانسجام مطلق مع الكون.

تحت وطأة الحمى، استيقظ فيه شعور آخر: الشفقة على الذات. غريزة البقاء تجد طرقها الخبيثة لصالح الحياة حتى لو تقنعت بالمرض.

حال شفائه عاد إلى الدراسة. انغمر كليا في تغطية ما فاته مع زميل مجتهد.

لا يتذكر متى جاءته فكرة تقديم خطبته لـ''إلهام'': لمَ لا تكون الآن؟ لعلها كانت خلال فترة مرضه، إذ ظلت جارته الرقيقة تزوره كل يوم. قالت أمه ذات مرة: "هل أعجبتك الشوربة؟ إنها من صنع ''إلهام''" وفي اليوم الذي أراد إخبارها عن قراره جاءت مكالمة ''ماهر'' و''سلمى''.

10 نيسان 1969

كم تذكّره ''بيداء'' بـ''إلهام'' كلما التقاها. فهي مثلها تجلس بعيدا عن الأضواء، تراقب بدأب احتياجات الآخرين، لتسرع في تلبيتها. بالمقابل، تنتمي ''سلمى'' و''شهرزاد'' إلى صنف نقيض لهما.

عند قدوم ''عبدل'' إلى بيته مع الطاولة التي صنعها له، حضرت ''بيداء'' أيضا. راقبها وهي تنفذ أوامر زوجها أثناء تثبيت قطع المكتب: أعطيني تلك الخشبة؛ ذلك البرغي؛ هذه الساق.."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كانت هادئة، ومستسلمة لدورها، بعكس ''عبدل'' الذي ظل مستوفزا، نافد الصبر، ومتوترا.

ماذا لو أن ''عبدل'' ارتبط في سن مبكرة بـ''سلمى''؛ وهو بـ''إلهام''؟ هل يستطيع تخيل الآخر واقفا الآن أمامه، يتأفف باستمرار، بينما تواصل ''سلمى'' مساعدته؟ قفز إلى ذهنه استنتاج وهو يتابع مشهد ''عبدل'' و''بيداء'': كل امرأة تفتح غرفة واحدة في شخصية الرجل.

كيف سيكون هو اليوم لو أنه اقترن بـ''إلهام''؟ أي باب ستفتحه على حساب الأبواب الأخرى؟

سارت إجراءات الزواج بسرعة مدهشة. ولعل ذلك يعود إلى غياب عائلتيهما عنها. فوالدا ''سلمى'' مطلقان منذ فترة طويلة. يعيش الأب الطبيب مع زوجته الأميركية الشابة بلوس أنجليس، والأم بالجزائر العاصمة حيث تدرّس في جامعتها. أما ''صالح'' فتجنب إخبار أمه وأخواته بقراره.

شعر خلال تلك الأيام كأنه يسير تحت سطوة منوم مغناطيسي، بينما لا تكاد قدماه تمسان الأرض.

اقترح ماهر عليهما قضاء أسبوع في لندن: شهر عسل قصير. لديه صديق مقيم هناك، وعلى استعداد لضيافتهما. ولم يستغرق حصولهما على تأشيرة الدخول البريطانية طويلا. بينما كانت هدية ''سمير'' وزوجته لهما بطاقتي الرحلة.

قضى الليلة التي سبقت موعد السفر في بيته. كان نومه متقطعا: أنامل خفية تهز جسده، فيسترجع نصف وعيه، لتواجهه عتمة حالكة. يتلمس حافة السرير والجدار المجاور له. ينتابه شعور بقرب انقطاع الخيوط التي تشده لهذا المكان. كأنه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لم يولد فيه، لم يحْبُ فوق أرضيته، ولم يركض بين غرفه. تسرب إليه شعور من نقطة مجهولة: الندم. ما الذي يعرف عن ''سلمى''؟ من هو زوجها السابق؟ قالت له فقط إنه شاعر مصري كبير بعمر أبيها، تعرفت عليه أثناء زيارتها للقاهرة قبل عامين، وحينما لمح خيط امتعاض على عينيها، انتقل إلى موضوع آخر. قال لأمه إنه سيسافر مع بعض زملاء الجامعة. أبدت قلقها عليها. ستفتقده هي وأخواته كثيرا. فهذه هي المرة الأولى التي يبتعد عنهن لفترة طويلة كهذه.

يستطيع بعينه الثالثة أن يرى ميزانا. على كفته اليمنى أخواته وأمه و''إلهام''، بينما على الكفة الأخرى ''سلمى'' وطفلتها. مع الاختيار الأول، سيرضي مبدأ الواجب مقابل الشعور بالأهمية؛ ومع الثاني، سيتبع ذلك الدفق الداخلي الملح والغامض: المضي عبر الأبواب المغلقة صوب المجهول.

عند تناول الفطور معهن حضره هذا السؤال: كيف سيكون رد فعل أمه لو علمت بالحقيقة؟ لكن الإثارة، التي ملأت روحه من فكرة السفر مع ''سلمى'' إلى لندن، أزاحته بسرعة عن ذهنه. عليهما أن يكونا في المطار قبل الثالثة عصرا. احتفظ سهوا بجوازيهما وبطاقتي السفر في جيب سترته، بدلا من وضعها في حقيبة الكتف الرياضية. وتحت الخوف من سقوطها بيد أمه ارتدى السترة، حتى أثناء وقت الفطور.

يتذكر الآن كم راح عقربا الساعة يتسارعان في حركتهما. كأن روحين سكنا في صدره، فاندفعا يتصارعان بضراوة: مقابل تلك الأصابع التي تدفعه للخروج فورا كانت هناك أخرى تسحبه للبقاء، لإلغاء فكرة السفر. وفي لحظة خروجه، حدث ما

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لم يكن متوقعا: جاءت صغرى أخواته بطلب غريب: "عندي مسألة رياضية لم أفهمها"

أثار طلبها استياء الجميع. صاحت الأم بها: "اتركي أخاك. ستفوت الطائرة عليه بسببك"

أين سيكون الآن لو أنه لم ينصَع إلى طلب أخته؟ بالتأكيد، لن يكون هنا، يراقب باسترخاء، من الطابق الرابع، حركة السيارات والمشاة والغيوم. لم يستغرق عمله معها أكثر من عشر دقائق، لكنها كانت كافية لحرف مسار حياته كليا.

في الطريق إلى بيت ''ماهر''، انتابه هاجس بتواطؤ كل شيء حوله لمنعه من السفر. لم تأت الحافلة كعادتها لأكثر من نصف ساعة. شاهد لحظة خروجه إلى الشارع واحدة تتحرك للتو مبتعدة عن موقف الحافلات. وحينما قرر إيقاف سيارة تاكسي اختفى أثر أي منها أيضا.

أخيرا، وقفت سيارة خاصة بجواره. شفروليت قديمة تعود للخمسينات. ولم يستغرق الاتفاق مع السائق على الأجر أكثر من دقيقة. لكن المرور كان بطيئا. علق الآخر: "الخميس أكثر الأيام ازدحاما. الموظفون يخرجون أبكر من دوائرهم"

ظلت عيناه تلتهمان المدينة. برز له نهر دجلة أثناء عبور جسر الشهداء، حيث تشظت أشعة الشمس المتوهجة فوق سطحه المترجرج، ووسط الضباب الخفيف بدا له جسر التحرير في الأفق اقرب للحلم. ومع الاقتراب من سوق السراي تباطأت السيارة أكثر فأكثر. كان الكثير من المارة يعبرون الشارع دون اكتراث عند خروجهم منه. تمعن في تلك العتمة القادمة من جوف السوق المسقوف، كانت أصوات الباعة المتجولين تختلط بزعيق السيارات المتواصل، وحينما

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وصل إلى ساحة الرصافي تنفس الصعداء، إذ راحت عجلات العربة تمضي أخف قليلا. ها هو تمثال الشاعر يتضاءل خلفه ليختفي تماما لحظة دورانها شمالا داخل شارع الجمهورية.

عند اقترابه من بيت ''ماهر'' طلب من السائق الوقوف على بعد قليل عنه. كان ذلك لتجنب إثارة فضول أولئك الجيران المحافظين." سأعود خلال دقائق،" قال ''صالح'' للآخر، إذ اتفق معه في الطريق على نقله إلى المطار أيضا.

بعد اجتيازه باب الحديقة الأمامية حضره شعور غريب: شيء ما وقع هنا أثناء غيابه. لعله السكون الشامل، أو وقوف قطة البيت ''كاتي'' بالقرب من باب البيت المفتوح، تموء بطريقة غامضة.

لم يحتج إلى وقت طويل كي يفهم ما حدث قبل وصوله بقليل. ففي غرفة الجلوس استقبلته فوضى من نوع خاص: كانت الكنبات الخشبية والفُرش مقلوبة رأسا على عقب، بينما تناثرت على الأرضية الكتب والكاسيتات والأسطوانات والأوراق، وفي غرفة ''سلمى'' راعه المشهد أكثر: كان هناك تخريب متعمد لنظام الأشياء فيها، بينما بعثرت أصابع غاضبة ملابس داخلية كثيرة بعد تمزيقها.

أضاء قرار واحد ذهنه وسط تسارع نبضاته واحتباس الهواء في صدره: المضي إلى المطار فورا.

وفي الطريق إليه، بدأت الهواجس بمحاصرته: ماذا لو أن اسمه وصل إلى قائمة الممنوعين من السفر؟ أو لو أنهم بانتظاره هناك بعد ذهابهم إلى بيته؟ هل ستكتم امه عنهم الحقيقة؟ لعلهم الآن يستجوبونها عن مكانه. مصيره بين يديها. أو بالأحرى فوق لسانها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

قـال للسـائق: "هـل يمكنـك الإسـراع قلـيلا. سـأتأخر عـن الطائرة"

لكـن السـيارة العجـوز قاومـت رجـاءه. ولـم تتـرك دعسـات السـائق القويـة علـى دواسـة التسـريع أثـرا سـوى زعيـق ودخـان أكثر.

17 تموز 1983

مثلما هو الحال مع رسوم سيزان، تنطلق روايتـه من الواقع وتنتهي بتمثيل مختلف عنه.

فـ''سلمى'' هي الموديل الذي رسم منه بطلة روايتـه؛ كلتاهمـا مرتا بتجربة الاعتقال؛ وكلتاهما ارتبطتا برجلي أمن كبيرين.

هل يمكن للحب أن ينمو تحت حالة الهلع؟

ظلت أخبار الوطن تصله قبل اندلاع الحرب مع إيران، عبـر القـادمين منـه إلـى لنـدن. أحيانـا يسمعها بـأكثر مـن نسـخة. تـردد مقتل ''ماهر'' و''سمير'' في قصـر النهايـة، بينمـا ذكـرت حكايـة أخـرى أنهمـا أصـبحا عميلـين للمخـابرات. كـلا الاحتمـالين ممكنان، لكنـه يرجح الأول. فـالموت يلـوح فـي الأفق، حينمـا لا يمتلك الضحية أي معلومات، يستطيع تقديمها لمستجوبيه.

لم تستغرق الإجراءات طويلا معه قبل صعود الطـائرة. كـان الموظفون علـى وشك إغـلاق شـبابيك الاسـتقبال الخاصـة بتلـك الرحلـة. ومـن نافذتـه المجـاورة، شـاهد رجـالا بملابـس مدنيـة يسـيرون صـوب المـدرج. هـل جـاءوا للقبض عليـه؟ حضـرته صورة المعدومين في ساحة التحرير للحظة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كـان عليـه أن يجلـب معـه مـوس حلاقـة. الحـل الأمثـل: قطـع شريان الرسغ. لكن الطائرة وصلت إلى أعلى درجات الإحماء، ومـا عـاد ممكنـا لجم انطلاقهـا العاصـف. وحينمـا انفصلـت عـن سطح الأرض، تنفس الصعداء.

مع ذلك، ظل مطار بغداد حاضرا في الكثير من أحلامـه: أن يكون في رحلة ما، ثم يهبط لسبب مـا فيـه، وحـال خروجـه إلـى القاعة الكبيرة، يحيطه رجال بملامح متشابهة. ها هو يقع أخيرا في الفخ، فيستيقظ فزعا.

كـان، مـن دون قصـد، وراء مـا حـدث فـي بيـت ''مـاهر''. فـالتنظيم الثـوري، الـذي انتمـى إليـه قبـل الانقـلاب العسـكري الأخير، تبنـى رفـع السـلاح ضـد الحكـام الجـدد. أخبـر ''صـالح'' مسؤولـه الحزبـي عـن رغبتـه بالاسـتقالة، ثـم انقطـع عـن الالتقـاء بـه. لكن ذلـك لـم يغيـر شـيئا. فعنـد اعتقـال الآخـر، اضـطر تحـت التعـذيب إعطـاء أسـماء دون تقـديم شـروح. لا بـد أن المخبـرين تعقبوه مـن الكليـة إلـى بيـت ''مـاهر''. ولعلهـم ظنـوا أنهـم عثـروا على كنز حقيقي: خلية حزبية بأكملها.

لم ترده أي أخبار عن زوجتي ''ماهر'' و''سمير''. بالمقابل، سمع أكثر من قصة عن ''سلمى''. وحسب إحداها، عـادت بعـد أسابيع قليلة مع طفلتهـا إلـى البيـت، ثـم باشـرت دراسـتها، برفقـة سيارة مرسيدس فاخرة، تنقلها ذهابا وإيابا كل يوم.

لكن أثرها اختفى عقب فشل محاولة ناظم كزار الانقلابية.

حل الغروب أخيرا. ''شهرزاد'' فـي طريقهـا إلـى لنـدن إن لـم تكـن وصـلت بالفعـل. كسـر شـحرور عـابر جليـد الصـمت فـي شـقته. لا بـد أنـه كـان واقفـا علـى شـجرة السـنديان المجـاورة للعمـارة. كـم يـذكّره غنـاؤه بتغريـد العنـادل فـي بغـداد. الفـارق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الوحيد: الشحارير هنا طليقة، بينما العنادل هناك في الأقفاص.

استرجع للحظة لقبه القديم: "ابن الخياطة". كيف أصبحت ملامح أمه الآن بعد كل هذه السنوات؟ بلغه فتات من الأخبار عنها عبر أقارب بعيدين.

ظل أحد رجال الأمن يأتي بانتظام إلى بيتها، مع استمارة أسئلة عن ابنها الهارب. "هل حصلتِ على معلومات جديدة عنه؟" "ألم يبعث برسالة؟" وحتى مع مراقبة هاتف أسرته المستمرة: "هل حاول الاتصال بكم؟" أو "لماذا لا تتصلين به وتطلبين منه العودة؟ هذا وطنه"

مع ذلك، ظلت امه ترسل الوصية نفسها إليه: لا ترجع أبدا. نحن بخير.

ولملء الفراغ الذي تركه، اضطرت الأم إلى تزويج أكبر أخواته، نهلة، من ابن عمه عباس، حتى مع تقدمه في السن عليها بعشرين عاما، وتركه للدراسة مبكرا. لكن خصلتين حسنتين يمتلكهما شجعت الأم على المضي في مشروعها: طاعته لها وبراعته في البناء. ولسكن الزوجين بنى عباس ملحقا ببيت الأسرة.

تحضره هذه المفارقة، من وقت إلى آخر، فتثير في نفسه شعورا عميقا بالذنب: هو الذي كان على استعداد للتضحية من أجل الآخرين، تسبب في هلاك أقرب الناس إليه. أحيانا تتغلغل أداة الشرط "لو" في مسار أفكاره: "ماذا لو أنني لم أذهب إلى ساحة التحرير لمشاهدة المعدومين؟" بل هي تتغلغل أحيانا أخرى لتمضي صوب نقطة البدء: لحظة قبول دعوة صديق له بالانتماء إلى الحزب الثوري.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لكنه لا يستطيع إنكار ما ترتب عليه القبول من تغيير جذري في إيقاع حياته. ها هو يخرج من عالم هامد يحكمه دوي ماكنة الخياطة، إلى عالم أرحب. فجأة تصبح جذوره في كل مناطق بغداد. وهناك في الأحياء الفقيرة كان بإمكانه أخيرا الالتقاء بعمال حقيقيين. يملؤه فرح عاصف وهو يقرأ الكتب الثورية التي ظلت مطابع بيروت تضخ بها. أصبح كتاب "ثورة في الثورة" دليله، وعبارة ماركس سراجه: "انشغل الفلاسفة في تفسير العالم، المطلوب تغييره"

التغيير. كل شيء حوله يشير إليه. العالم قاب قوسين أو أدنى من ثورة شاملة. الطلبة في الغرب ينصبون المتاريس: الكومونة على الأبواب. سارتر يتخلى عن وجوديته لصالح الماركسية. ها هو يوزع صحيفة ماوية في شوارع باريس.

ربيع بغداد عام 68: إضرابات تعم جميع الكليات. عمال مصانع الدولة القليلة يعلنون تضامنهم. المظاهرات تملأ شارعي الرشيد والكفاح. ومن الأهوار تأتي أخبار مفرحة: انطلاق الكفاح المسلح. الريف في طريقه لمحاصرة المدن. وفي أحلام يقظته كان ''صالح'' يراقب رفاقه أمام جحافل الفلاحين، غير عابئين بالموت. بل هم يدخنون عصي السيجار الكوبي أثناء قتالهم. تمضي أحلامه خطوة أبعد: يسترد غيفارا عافيته. إذ بدلا من الذهاب إلى أحراش بوليفيا الموحشة يأتي إلى الأهوار. وهناك يلتقي ''صالح'' به فيكسب إعجابه. يعيّنه مساعدا له. فيعترض بعض الرفاق بسبب صغر سنه. لكن تْشي يصر على موقفه: "ألم يقُد الرفيق كاسترو أكبر ثورة مسلحة في هذا القرن وهو في سن الرابعة والعشرين؟"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

عند دخوله قاعة الاستقبال في مطار هيثرو فوجئ بانتظام العمل فيه. لا إضرابات؛ لا مظاهرات ولا حتى لافتات معادية للرأسمالية. لكنه طمأن نفسه بأن الوضع سيكون مختلفا خارج حدود المطار. هناك سيلتقي بالطبقة العاملة وحلفائها، وهم يناضلون وراء المتاريس. سينضم إليهم فورا مثلما فعل ماركس وإنجلز.

رن جرس الهاتف طويلا، فأعاده إلى حجرته المعتمة. لا بد أن الوقت تجاوز العاشرة، ومن النافذة تسرب إلى الداخل نثيث ضوء قادم من مصابيح الطريق الشاحبة. كانت ''شهرزاد'' على الخط.

"كيف كانت رحلتكِ؟"

"ممتازة. استمتعت ''هيلين'' كثيرا هذه المرة بالمكان"

" ووالدك؟"

" بخير. وعدني أن يتوقف عن التدخين. هل اتصل ''عبدل'' بك؟"

" لا"

" أنا قلقة على ''سليم''"

وقبل أن يغلق الهاتف. جاء صوتها هذه المرة أكثر رقة، مغريا إياه بالذهاب إلى بيتها: "أنا مشتاقة حقا إليك"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

القسم الخامس

بيداء في متاهتها (1)

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

عند عودتها من بغداد أظهر ''عبدل''، في المطار، احتفاءً شديداً بها، لا يتناسب مع فترة سفرها القصيرة، أو مع طبيعته الصامتة. تسربت الهواجس إليها أثناء مداعبته للتوأمين و''لبنى''، وكادت تسأله عن ''سليم''، لكن الكلمات غصت في فمها. بادر ''عبدل'' بطمأنتها عنه، في الوقت الذي ظلت نظراته زائغة عن عينيها.

في الطريق إلى البيت، اصطنعت ''بيداء'' الاهتمام بأحاديث زوجها: ما جرى من أحداث صغيرة في فترة غيابها. أخبرها عن اصطحابه ''سليم'' إلى بيت ''شهرزاد''؛ كم بذل ''صالح'' جهدا لتعليمه العدّ إلى الخمسة؛ وكم انغمرت ''هيلين'' في اللعب معه، حتى أنه ظل يردد اسمها يومين متلاحقين. اندفع ''عبدل'' في الإشادة بالمربية التي اعتنت بـ''سليم'' أثناء غيابها، فمقابل الأجر العالي الذي دفعه لها، تعلم ابنهما، على يدها، الكثير من العادات الجيدة.

مع ذلك، انتابها، آنذاك، شعور عميق بالندم لموافقتها على ترك ''سليم'' في رعاية ''عبدل''، فحتى لو كان حضوره معها سيسبب صدمة لأفراد أسرتها، ويعمق لديها مشاعر الخجل منهم، فعلى الأقل، ستكون في حلّ من اللحظات العصيبة التي تنتظرها، عند اصطدام عينيها بعينيه.

جاء قرار سفر ''بيداء'' إلى بغداد بعد أن أخبرتها الأخت الكبرى هاتفيا بمرض الأب الشديد، ورغبته بمشاهدة ابنته الأثيرة. فجأة وجدت نفسها في حمى صراع نفسي عميق: هل سيكون اصطحاب ''سليم'' مناسبا بظروف كهذه؟ هل ستتمكن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

من حمايته من نظرات الأقارب والأصدقاء؟ كيف ستفسر أسباب تعلقها الشديد به؟ وكأن ''عبدل'' كان يقرأ ما يخالج دخيلتها حينما اقترح عليها إبقاء ''سليم'' معه، ولا بدّ أن تهيئة أهلها في هذه المرة سيساعد على تقبلهم له في السفرات اللاحقة.

قبل سفرها بأشهر قليلة غيّر زوجها، وبشكل جذري، تعامله مع ''سليم'': ابتدأ أسلوبه الجديد أولا بكسر حاجز الخوف منه، بجلب قطع شكولاته له كل يوم، ثم أخذه في مشاوير مشي إلى الحديقة المحلية. هناك كان ''سليم'' يشارك الأطفال الأكثر صغرا منه في تسلق المُزحلِقة، أو اللعب بأكوام الرمل. ولطمأنتها، اقترح ''عبدل'' جلب امرأة متخصصة في العناية بالأطفال ذوي "الحاجات الخاصة" في فترة تغيبها. بعد قضاء تلك المربية أسبوعا مع ''سليم''، شعرت ''بيداء'' بتآلف طفلها معها كليا.

* * *

كان قد مضى على ''بيداء'' أكثر من ثمانية أعوام منذ مغادرتها بيت الأهل، والسفر إلى لندن. كم صعقها مشهد الآخرين: فالأطفال الذين تركتهم وراءها أصبحوا شبابا لا يمتون بصلة للصور المتبقية عنهم في ذاكرتها، والكبار بدوا كأنهم أوغلوا بعيدا في الشيخوخة. كان الأب هو الأكثر تعرضا لعوامل الخراب الداخلي: استقبلها شيخ نحيف، يعلو الشحوب وجهه، وعلى عينيه سكنت طبقة ضباب خفيفة. إلى جواره، رصفت فوق الكومودينو أنواع شتى من الأدوية. في سنة إقامتها الأولى بلندن، كانت تصلها الرسائل بانتظام من أخواتها، وفيها كانت ''بيداء'' تتابع تفاصيل حياة الجميع، لكن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مع تعاقب السنوات اللاحقة، تناقصت الأخبار والرسائل، لتحل محلها البطاقات البريدية المخصصة للأعياد.

في اليوم الثاني من وصولها، دعاها الأب إلى حجرته. جلست على سريره، ومدّ يده إلى يدها، مثلما كان يفعل في الأيام الخوالي، حيث كان يصطحبها للتمشي معه إلى جوار نهر دجلة، وعلى الرغم من الصمت الذي يرافقهما، كانت حواسهما تتشارك في التقاط الأصوات والروائح حولهما، وأمامهما تمتد على الضفة الأخرى بساتين النخل الكثيفة.

منذ سن مبكرة شعرت بانشداد كبير إلى الأب أكثر من غيره في أسرتها. لعل ذلك راجع إلى تشابه كبير في ملامحهما، خصوصا لون سحنتيهما. فمن بين الأبناء السبعة كانت ''بيداء'' هي الوحيدة، التي لم تحظ ببياض البشرة عن والد الأم ذي الأصول التركية. وكم كانت تشعر بارتباك عندما يردد الآخرون تعابير الإعجاب بأخواتها.

تتذكر ذلك الاكتشاف الذي جاء كالصدمة، عندما التفتت فجأة إلى ساعدها الأيسر الموضوع جنب ساعد أمها الأيمن لتكتشف الفارق الصاعق باللون. لا بدّ أنها لم تتجاوز السابعة آنذاك. تسرب إليها شعور غريب بأن أمها هي التي قامت بلصق هذا اللون على بشرتها عقابا لها على فعل قامت به عند طفولتها المبكرة. مع ذلك كان بإمكان الأم نزع هذا اللون عنها لو كانت تحبها قليلا. في فترة لاحقة، انتابتها فكرة أخرى؛ أن تكون من أم أخرى، ارتبط الأب بها سرا، ولفترة قصيرة، وحالما ولدتها تركتها في سلة أمام البيت.

سألها الأب بعد فترة صمت طويلة، عن حياتها في لندن. "كل شيء بخير". أجابت وهي تبعد عينيها عن نظرات أبيها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الفاحصة، ثم التفتت إليه بابتسامة عذبة، دفعت الدموع للقفز فوق جفنيه. "أشعر بالندم أحيانا لأنني وافقت على تزويجك من.."، لكنها سارعت بمقاطعته: "بالعكس، أنا محظوظة جداً."

* * *

قالت المربية أثناء ارتداء معطفها: ""سليم" لعب كثيرا اليوم.. لا أظن انه سيستفيق في الليل.". وقبل خروجها أضافت منبهة: "أشعلتُ في حجرته ضوءاً خافتا.. إبنك يخاف من الظلمة كثيراً"

هرعت إليه بخطى حذرة تتعارض مع ما كان يعتلج في أنفاسها من أشواق، كأن العالم أضيق من احتواء عاطفتها، وعند سريره وقفت، تراقب وجهه، وتنصت إلى أنفاسه المنتظمة. كان الضوء الشاحب كافيا لامعان النظر في ملامحه. اجتاحتها رغبة باحتضانه؛ بقضاء الليل إلى جانبه، لكن الخوف من غضب "عبدل" عليها جعلها تجمد في مكانها. دفعت بقبضة يدها اليمنى إلى فمها خوفا من انفجارها بالبكاء. راودتها صورة أبيها الذي تركته وراءها يحتضر، من دون أن تتمكن من إيقاف تيار الخوف المتصاعد على "سليم". لم يستطع أي من أسرتها مرافقتها إلى المطار، ولا بدّ أنهم لن يغفروا لها قرارها المفاجئ بالعودة إلى لندن.

* * *

مع ذلك، لم يتعرف "سليم" عليها في اليوم اللاحق. كان المطر ينقر، بانتظام، زجاج النافذة عند استيقاظه، مما بعث في نفسه الهلع. كانت "بيداء" جالسة بجانبه، آنذاك، لكن مشهدها لم يخفف، كالعادة، من مخاوفه؛ فبدلا من الاختباء في حضنها،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

انكمش جسده فزعا، وارتفعت يداه غريزيا لحماية نفسه منها. تسلل التوأمان إلى حجرته، فبعث ظهورهما خوفا إضافيا في نفسه. حضر ''عبدل'' تحت وطأة صراخه، فاندفع إليه طلبا للحماية.

لكن ''سليم'' تذكّر أمه ظهرا؛ إذ من وراء كتف أبيه ظلت عيناه الزائغتان تطلان من وقت إلى آخر عليها، ولا بدّ أن ثوبها الأزرق كان له الفضل في استرجاع الآصرة بها، فكم كانت أصابعه، تداعب الياقة والكمين المطرزين عند جلوسه في حضنها. فجأة مدّ يده لها، فاندفعت صوبه لتغمره بالقبلات والدموع.

* * *

أثناء إقامتها القصيرة مع الأهل، شعرت كأنها أصبحت فائضة عن الحاجة بالنسبة إليهم، فحال تحركها للقيام بمهمة ما تجد شخصاً آخر قد اضطلع بها. وإذا كانت ''بيداء'' قد تقبلت ذلك ذهنياً، كأمر طبيعي، فهي على الصعيد الشعوري ظلت عاجزة عن التسليم به.

كانت أمها محقة حينما قالت لها بأسى، بعد مرور يومين على وصولها: "لم يكن سهلا ملء الفراغ الذي تركتِه" ولم يستغرق اكتشاف هذه الحقيقة وقتا طويلا، بعد سفرها إلى لندن، على الرغم من أن الكل كان يأخذ عطاءها غير المحدود لهم كشيء مسلَّم به.

لا بدّ أن لموقع ''بيداء'' بين أخوتها الستة تأثيرا ما عليها. كان الأب يصر على تسميتها تحبباً: "واسطة العقد"، متجاهلا خاتمة العقد: التوأمين الذكرين، بعد مجيء خمس بنات على

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

التعاقب. بين أول أختين وآخر أختين تقف ''بيداء'' على مسافة زمنية متساوية من كلا الطرفين. بين الأختين المراهقتين المنغلقتين على أسرارهما المشتركة، والأخريين الغارقتين بألعاب الطفولة، كانت تعيش عزلتها. كلا العالمين منغلق في وجهها، ولن تكف أمها عن السخرية منها إن هي سعت للتماهي مع أحدهما. مقابل ذلك، كانت تجاهد بكل الوسائل لكسب رضا الجميع. أن يكون حضورها محسوسا به، لا من خلال الفاعلية بحد ذاتها بل من خلال منافع الخدمة التي تقدمها دون انقطاع لهم. كأن عالمها محكوم بسكونية كاملة، أو كأنها تسكن في كبسولة شفافة تراقب من خلالها تفاعلات الآخرين ببعضهم البعض. مع أختيها المراهقتين كانت هناك بوابة تفصلها عن أسرار الطمث والماكياج وتنظيف الشعر ورسائل الحب السرية، ومع أختيها الطفلتين تقف بوابة الوعي عازلا بينها وبينهما.

* * *

اقتادت ابنها البكر إلى حديقة البيت الخلفية، بعد أن أخذ ''عبدل'' التوأمين و''لبنى'' إلى البارْك المحلي. لوّح ''سليم'' للشمس محييا إياها، لكن أشعتها المتوهجة أجبرته على إغلاق عينيه قليلا. التفت صوب شتلة الورد مرددا بابتهاج: "أحمر.. أحمر،" وكاد يفلت من يد أمه ليندفع صوب الحشيش المشبع بمطر البارحة. أمسكت ذراعه بقوة. "الأرض فيها طين وماء.. وسخ" أعادت جملتها ببطء لكنه ظل يحاول الإفلات من قبضتها، مرددا بإيقاع منتظم، آخر كلماتها: "وسخ.. وسخ". شعرت أثناء ذلك بقوة جسده المعارضة لقوة ذراعها. قال لها طبيب الأطفال في آخر فحص أجراه لسليم: "عقله متأخر قليلا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

عن عمره.. إنه بحاجة إلى الاختلاط بالأطفال، والكثير من التدريب." لكنها لم تخبر ''عبدل'' بالأمر مخافة أن ينفجر في وجهها. كان زوجها قد اقترح عليها إرسال طفلهما إلى دار مختصة بأمثاله، وحينما لم يستقبل منها سوى الصمت، صاح غاضبا: "إذن، أنت المسؤولة عنه." مع ذلك، ظلت حريصة على الالتزام بمواعيد ابنها الطبية، حتى بعد أن أثقلتها أعباء الحمل الثاني، ولم يرافقها ''عبدل'' يوما إلى أي موعد طبي، ظنا منه أنها ستستسلم أخيرا لرغبته. ذهب معها، مرة واحدة، إلى لقاء نظمته جمعية "متلازمة داوْن"، برفقة ''سليم''. وفي قاعة الاجتماع، كان هناك معرض للرسوم، وتحدث بعض الآباء عن تجاربهم مع الأبناء المعاقين: كيف استطاعوا أن يطوروا قدراتهم والصعوبات التي واجهتهم. وإذا كانت ''بيداء'' جد حريصة على متابعة كل النشاطات في القاعة، ظل ''عبدل'' غائبا عنها تماما، محتفظا بابتسامة ازدراء على وجهه. بعد أن أدت مجموعة من الصبيان أغنية نالت إعجاب الآباء وتصفيقهم، التفت ''عبدل'' إليها ساخرا: "كيف سيتمكنون من تمييز أطفالهم بعد انتهاء العرض؟"

* * *

هبت نسمة باردة عليهما، لكنها فضلت البقاء في الحديقة. كانا يجلسان، جنبا إلى جنب، على كرسيين بلاستيكيين مزودين بأذرع، حيث مضت راحتها تلامس برقة مؤخرة رأس ابنها، وعلى بطء إيقاع حركة كفها كانت تسأله عن أسماء الأشياء حولهما: "ما هذه؟ شجرة.. شجرة تفاح؟" "شجرة تفاح." "وتلك؟ غيوم؟ ما لونها؟" "صفراء."

منذ ولادة ''سليم''، اتضحت لها فوائد البطء؛ كانت في أول

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الأسابيع تقضي معه وقتا طويلا في الرضاعة، وحال اتضاح عجزه عن مصّ حلمتها حوّلتها الزائرة الصحية إلى الحليب الاصطناعي. كانت الساعات تمضي أمامها، فوق الساعة الجدارية، وهي تنقّله بين حضنها وكتفها، فبعد كل رشفتين من زجاجة الرضاعة، كان عليها أن تساعده على التجشؤ.

لم يغير اكتشاف عاهة ''سليم'' شيئا من عاطفتها تجاهه، بل على العكس، دفعها إلى التشبث أكثر فأكثر به، ولعل موقف ''عبدل'' منه جعلها أشد حرصا عليه. من وقت إلى آخر، كانت تستيقظ في لجة الليل فزعة لتقفز إلى سريره. بعد مضي أسبوع على الزيارة المشؤومة للطبيب الاختصاصي، تسربت إليها قناعة قوية أنها كانت على علم بحال ''سليم'' حتى قبل ولادته؛ بل منذ تلك الساعات الأولى التي أقحمها ''عبدل'' إلى عالم ظلت طوال سنوات عمرها تتحاشى التماسّ به حتى عبر اللغة.

* * *

حتى بعد ولادة التوأمين، لم تغير ''بيداء'' من انتمائها إلى عالم البطء، على الرغم من متطلباتهما الكثيرة. كانت تمضي إليهما كلما انطلقا بالبكاء لتضع كلتا حلمتيها بين شفاههما، فيندفع كل منهما بالمص السريع المتقطع بأنفاسهما الصاخبة. بين أوقات الرضاعة كانت لا تكفّ عن تحضير زجاجات الرضاعة لهما. لا بدّ أنها شعرت بالفخر لإنجاب توأمين ذكرين، مثلما هي الحال مع أمها في آخر حملها، بل ساعدها هذا الإنجاز على الخروج من مشاعر التقصير تجاه زوجها. مقابل ذلك، منحتها الولادة حرية داخلية للانحياز أكثر فأكثر لابنها البكر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

معه كانت تقضي الساعات، متمتعة بمراقبته وهو يسعى للزحف فوق السرير بضعة أقدام، في وقت كان التوأمان قادرين على التنقل زحفا بين حجرات الطابق الثاني.

ظل ''سليم''، ولفترة طويلة، عاجزا عن تقدير الحواجز التي تعترض طريقه. كم اصطدم رأسه الصغير بجدران الحجرة عند محاولته تجاوزها. لكن ''بيداء'' فسرت مساعيه بطريقة غريبة: إنها محاولات الروح للانعتاق من حواجز العاهة المستديمة، وإذا كانت تلك الصدمات تسبب له ألما جسديا يدفعه للنحيب الخافت، فإنها كانت

تقرأ في عينيه الحمراوين احتجاجا غامضا.

كانت أول علامة على تفاعل ابنها مع العالم الخارجي، حينما مد يده إلى كمها ليقبض عليه بشدة. حدث ذلك عند دخول ''عبدل'' المفاجئ إلى الحجرة. تطلعت ''بيداء'' إلى وجهه، كانت تسكن فوقه تعابير هلع واستغاثة معا، وعند اقتراب الأب منهما أخفى ''سليم'' رأسه بين طيات ثوبها.

* * *

دق جرس التلفون فأخرجها من عالمها: كانت، آنذاك، تسير بخطى صغيرة وراء ''سليم'' الذي راح يضرب بقدميه الثقيلتين فوق الأرضية الإسمنتية، على إيقاع صوتها: "واحد، اثنان، ثلاثة." اقتادته معها إلى داخل البيت، خوفا من تلوثه بالطين، لكن الرنين توقف قبل وصولها إليه. أجلسته وراء طاولة المطبخ، ووضعت أمامه كأسا من الحليب بالموز، فراح ''سليم'' يمصه بقصبة، تحت عبارات ثنائها وتشجيعها، لكن التلفون استرجع صخبه مرة أخرى.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ميزت صوت ''شهرزاد'' من أول عبارة نطقتها، فبعث في أنفاسها اضطراباً، دفعها إلى المبالغة في الترحيب بها. بدت نبرة بنت عمتها أكثر وداً، على الرغم من إبقائها للمسافة الفاصلة التي اعتادت أن تضعها بينهما. تجنبت ''شهرزاد'' الاستفسار عن صحة أبيها أو عن سفرتها المحزنة؛ بدلا من ذلك، أمطرتها بأسئلة عن أطفالها: كيف كان تأثير الطقس والمحيط عليهم هناك؟ وقبل أن تنهي محادثتها، عبّرت عن رغبتها بزيارتهم، قالت ''بيداء'' متحمسة: "أنت لا تشتغلين يوم السبت." لكن صوت الأخرى جاء حاسماً: "إذا كان مناسبا لكما: الأحد المقبل"

* * *

ظلت مشاعر ''بيداء'' مزدوجة تجاه ''شهرزاد'' منذ اكتشاف طبيعة علاقتها بـ''صالح''. فبعد المبيت، لأول مرة، في بيتها قررت تجنب تكرار التجربة ثانية. في طريق عودتها إلى البيت مع ''عبدل''، التزمت الصمت. كان عليهما أن يركبا مترو أولاً، ثم حافلة، ليتبعها مشوار مشي قصير. كان السؤال طوال وقت الرحلة يتردد في ذهنها: "ما الذي يفكر ''عبدل'' بـ''شهرزاد''؟" وإذا كانت هي بنت خالها فكيف ينظر إليها الآن؟

لا أستبعد أن تكون ''بيداء'' قد تماهت للحظة مع ''شهرزاد'' مما دفع العرق ينضح غزيرا فوق جبهتها، وحينما التفت ''عبدل'' إليها كانت مكللة بالعار، لكنه بدلا من التعبير عن استيائه من ابنة عمتها، راح يمتدح أريحيتها وكرمها وذوقها. مع ذلك، ظل الشك يراودها تجاه مشاعر ''عبدل'' الحقيقية.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

التفت إليها سائلا: "تبدين شاحبة.. هل تشعرين بألم؟" "لا، هو مجرد صداع خفيف.. لم أنم كفاية البارحة"

عند وصولهما إلى البيت، اختفت في الحمام وقتا طويلا، تلبية لشعور جارف بالغثيان، ثم اندفعت في غسل بشرة جسدها خلية خلية، كأن رابطة الدم التي تجمعها بـ''شهرزاد'' تجعلها في موقع متطابق معها من وجهة نظر الغرباء خارج دائرة عائلتها. هذه الفكرة تحققت حسيا في مخيلتها عبر تسرب صورة ''صالح'' إليها؛ عبر استحضار مواء ''شهرزاد'' وسط الليل؛ عبر تلمس سوائلهما المختلطة بعضها ببعض فوق بشرتها.

ظلت ''بيداء'' تنتظر انفجار ''عبدل'' ضد عائلتها، مؤولةً صمته غضباً مكتوماً يغلي في أنفاسه، لكنه في اليوم الثالث اقترح دعوة ''شهرزاد'' و''صالح'' للعشاء عندهما.

لا بدّ أن انتظام اللقاءات بين الطرفين أزاح تدريجيا مخاوفها وشكوكها، وجعلها تنتظر دعوات ''شهرزاد'' بفارغ الصبر، إذ بفضل ابنة عمتها أصبحت لها صلة مباشرة ببعض البريطانيين. في بيت ''شهرزاد'' كان هناك غالبا ضيوف آخرون، وفي حديقتها الفسيحة، كان الكل يتمتع بالشواء والنبيذ. تسترجع ''بيداء''، من وقت إلى آخر، إجابة ''شهرزاد'' الطريفة، حينما علق ''عبدل'' على أسلوب ضيافتها: أنت تجعلين زوارك يشعرون أنهم أصحاب البيت. لكنها قاطعته ساخرة: هذه أفضل طريقة تجبرهم على خدمة أنفسهم بأنفسهم.

* * *

كانت وجوه الأطفال طافحة بالرمل والعرق عند وصولهم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

إلى البيت. قال ''عبدل'' مُطَمْئناً: لم يبق شيء لم يلعبوا به. أضاف وهو يتطلع في أعينهم: "أليس كذلك؟" فهز الثلاثة رؤوسهم باستسلام. التفتت ''بيداء'' صوب النافذة ففاجأتها عتمة الغروب. رددت وهي تمس رأس ''لبنى'': "حان موعد الحمّام الآن،" وبدلا من إعلان الاحتجاج الصاخب ضد طلبها التزموا بالصمت. مع ذلك ندّت عن ابنتها الصغرى صرخة خافتة، لكن سقوط نظرة واحدة من أبيها كان كافيا لاستسلامها. انتابتها مشاعر التقصير تجاههم، لتكريس معظم وقتها لابنها البكر، ومع التعب والخوف الذي تراكم فوق أعينهم بدوا لها كجراء منبوذة. لا بدّ أن الوقت الذي قضوه مع أبيهم كان قاسياً، حيث لا مجال لديهم للتعبير عن انفعالاتهم وفوضاهم بحضوره. فوفق نظرية ''عبدل'': على الأطفال أن يتكيفوا مع عالم الكبار لا العكس، لذلك فإن ارتفع صوت أحدهم قليلا بادره الأب بالتحذير، وإن تكرر سعاله عالجه بدواء شديد المرارة. لكنهم كانوا يعوضون عن كبتهم حال خروج الأب من البيت، مستغلين ليونة الأم إلى أقصى حدودها. ولتفريغ مشاعر الغيرة من ''سليم'' كانوا يتواطئون أحيانا لخطف لعبة من يديه أو لإيذائه جسديا. أثناء فترة زيارة أهلها، كان التوأمان يتنافسان لاحتلال موقع الابن البكر عند أمهما عبر تقليد حركاته وصوته.

نام ''سليم'' منذ أكثر من ساعة، وهذا ما سهّل من أداء مهمتها. ملأت ''بيداء'' الحوض بالماء الساخن إلى نصفه، ثم جلست وسطه؛ بالمقابل، أقعدت التوأمين إلى جانبيها، واستقرت ''لبنى'' فوق حضنها. قالت ابنتها وهي تراقب فقاعات الصابون الطافية فوق سطح الماء: "النجوم تسبح" وحينما رمت ''بيداء'' بالماء فوق أحد التوأمين صرخ محتجاً،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لكـن حمحمـات الأب أثنـاء مشـيه داخـل البيـت جعلـت الطفـل يستسلم ليديها. من جانبها، شعرت بالانفراج؛ إذ لن يكون عليها مرافقة ''عبدل'' عند استحمامه.

عشية وصولها إلى لندن لأول مرة، هيّأ العريس مفاجـأة لـها: حـوض حمـام متـرع بالمـاء السـاخن ومشـبّع بـأريج الخزامـى. أغلقت الباب وراءها، تعرّت بطمأنينة، ثم هبطت إلى الحوض. شعرت كأن خلايا جسدها تستيقظ لحظـة ملامستها للمـاء الـذي تشرّب بلـون الأرجـوان. أغمضـت عينيهـا انتشـاءً بـذلك المـزيج الرائق الذي تغلغل إلى كيانها، وراح يمتص منها ذبذبات التعب الناجم عن متاعب السفر الطويل. وحينمـا فتحـت نصـف عينيهـا شاهدته أمامها عاريا، حيث التصقت عينـاه بصـدرها. تصـالبت يداها لا شعوريا حول ثدييها. قالت، بارتباك، للتخفيف من آثـار رد فعلها: "ظننتكَ نائما". أجابهـا ضـاحكا: "كيـف أستطيع النـوم ومعي كل هذا الجمال" تسلل إلـى الحـوض، جلس أمامهـا، دفـع بساقيه صوبها، ثم سحبها نحوه من ساعديها. شعرت ''بيداء'' كأنها تراقب جسدا آخر، في الوقت الذي راحت تبتعد عنـه شيئا فشيئا، حضرتها بارقة فكرة، لحظة استقرار كفلهـا فـوق حضـن ''عبـدل''، ودون أن تعـرف تفاصـيل مـا طـرأ إلـى مخيلتهـا، سحبت الليفة من حافة الحوض. تظاهرت بالانشغال في تنقيعها بالماء، ثم حكّهـا بقطعـة صـابون، لتنصـرف، بحميـة، إلـى فـرك صدر زوجها وذراعيه بها.

* * *

لم يأت طلب يد ''بيداء'' مفاجئا لها، فمنذ سن مبكرة وأختاها الكبيرتان ترددان اسم "خطيبها" كلما رغبتا بمناكدتها، ليندفع الدم إلى رأسها، فتبادر إلـى تغطيـة وجههـا براحتـي كفيهـا تحـت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وطـأة خجـل غـامر. مـا كـان يزيـد مـن حرجهـا موقـف الأبـوين المتسامح من مزاح ابنتيهما، بل كـان بإمكانهـا أن تقرأ ابتسـامة متواطئة على وجهيهما. عزت هذا الاتفـاق العـائلي ضـدها إلـى تلك الأوقات التي كانت تجمعها بـ''عبدل''، أثنـاء زيـارة عائلتـه لهم. آنذاك، لـم يكـن يتجـاوز أي منهمـا السادسـة، ولا بـدّ أن أداء ''عبـدل'' دور الطبيـب أثنـاء اللعـب كـان السـبب فـي اسـتمرار أختيهـا بمـداعباتهما، حتـى بعـد انقضـاء فتـرة طويلـة عـن تلـك الأدوار الطفولية. مع ذلك، ترسـخت لـديها قناعـة مبكـرة بوجـود قرار عائلي (شبيه بالقدر) بتزويجها من ''عبدل''.

ناداهـا الأب مـن حجـرة الضـيوف. أغلـق البـاب وراءه، ثـم دعاها للجلوس جنبه. كان والد ''عبدل'' قد حضـر إلـى زيـارتهم عصرا، وقضى وقتا قصيرا مع أبيها. أدهشتها عودتـه المبكـرة، إذ كان معتادا علـى المبيت عنـدهم كلمـا عنّت لـه زيـارتهم. قـال لها الأب برقة: "الأمر متروك لك." لكنهـا اكتشـفت عبـر نبرتـه ونظراته التماسا خفياً بأن توافق على الخطبة.

كان في أعماقها شك ضئيل من تردد أبيها تجاه ابـن صـديقه، لكـن إصـرار الأم الواضـح الـذي تبـدّى عبـر نبـرة صـوتها ونظراتها اللحوحة جعلها عاجزة حتى عن التفكير بالرفض.

ظلـت ''بيـداء'' حريصـة علـى رضـا أبويهـا عنهـا، وإذا كـان غضب أمها عليها يخلق لـديها شـعورا غامضـا بالإجحـاف، فـان مجرد افتراض انزعـاج الأب منهـا كـان كافيـا لزعزعـة كيانهـا، كأن صلتها بباقي أفراد أسرتها تمر أوّلاً به.

بعد سفر خطيبها إلى بريطانيا، وانقطاع أخبارها عنه، سـألها الأب إن كانـت ترغـب فـي فسـخ الخطبـة. وبـدلا مـن الموافقـة المباشـرة، قالـت: "أنـت تقـرر." لكـن الأم تـدخلت لتقنـع أباهـا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بـالتراجع عـن قـراره تحـت ذرائـع شـتى: مـاذا سـيتقوّل النـاس ضـدهم؟ ألـيس مـن الأفضـل إعطـاء والـد ''عبـدل'' فرصـة للاتصال بابنه؟ وأكثر من ذلك، ألا يعني صمت البنت رغبتها بالانتظار قليلا؟ ولم يمض سوى يومين حتى حضرت أسرة الخطيب الغائب إليهم. قال أبوه لوالديها ملتمسا: "بيداء ابنتي و''عبدل'' ابنكما."

علـى الـرغم مـن اعتصـامها بالصـمت، كانـت آنـذاك نهبـاً لمشاعر متناقضة، ظلت تتلاطم بعضها ببعض مثل أمواج بحر هـائج. مـن الأعمـاق ظـل يتسـرب إليهـا صـوت ضـعيف لكنـه دؤوب يدفعها إلى خلع عدة الخطبة: الخاتم والقلادة والسوار، وإعادتها لأسرة الخطيب. بالمقابل؛ كانت هناك جوقة أخرى من الأصوات المعارضة، التي مضت توبخها دون هوادة: ألم يكن عليها أن تكتب بانتظام إلى خطيبها؛ أن تبالغ بالتعبير عن شغفها به؛ أن تشده إليها عبر الهدايا والتذكارات؛ لكن فريقا ثالثاً من الأصوات راح يمتدحها على سلبيتها والتزامها المطلق بما يقرره الأب لها: أن تبقى مثلما كانت دائما خارج دائرة الفعل.

* * *

عند اقترابها من حجرة ''سليم''، أشارت ''بيداء'' لأطفالها بالصـمت، لكـن ابتعـادهم عـن الأب، الجـالس فـي الطـابق الأرضي، شجعهم للمضي في اللغط أكثر فأكثر. مع ذلك لم تتسرب أي نأمة من وراء الباب المغلق. غمرها، وللحظة واحدة، قلق عاصف، لا عقلاني، بتوقف أنفاس ''سليم'' دفعها للاستعاذة من الشيطان.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بعد وضع التوأمين في سريريهما، حملت ''لبنى'' إلى حجرتها الصغيرة، ولم تمض سوى دقائق حتى غرقت ابنتها في النوم. انسحبت بحذر شديد، وعلى رؤوس أصابعها توجهت إلى حجرة ''سليم''. كان الهاجس، بوقوع مكروه له، يتزايد كل لحظة في أعماقها؛ فمنذ لحظة مشاهدة ''عبدل'' في المطار، تشبث في خوالجها شعور، غير قابل للتأويل، بأن شيئا رهيبا قد حدث أثناء سفرها إلى بغداد، وكلما ازداد ''عبدل'' لطفا معها، في طريق العودة إلى البيت، تعمق توجسها أكثر فأكثر.

اقتربت، تحت نثار الضوء الخافت، نحو سرير ''سليم''. كان شخيره الخفيف المنتظم، يتسرب إلى سمعها، صافيا، فيبعث فيها اضطرابا غامضا. التصقت عيناها بوجهه الذي بدت عليه ابتسامة باهتة، لكنها منحته ملامح قلما تظهر عليه في حالات اليقظة: ملامح الغبطة، وكأن الروح، في نهاية المطاف، لا تعرف سوى الغبطة، حتى عند حبسها داخل سجون "متلازمة داون".

كان الهواء ثقيلا، والسماء تلفعت بسحنة مائلة للحمرة، تبعث على الشعور بالإقصاء، مما دفعها إلى سحب الستارة لإغلاق تلك المساحة المكشوفة من زجاج النافذة. مررت أصابع يدها فوق جبهة ''سليم'' وشعره، فتسرب إلى عروقها دفق دافئ. في الفترة التي قضتها بعيدا عنه، لازمها شعور بفقدان الإحساس بالمكان أو الاتجاه. كان السؤال يثب إلى ذاكرتها أحيانا، أثناء جلوسها وسط أفراد العائلة: "أين أنتِ الآن؟" أو كأنها كانت تراقب شريطا من الأحداث، وقع في زمن بعيد، لا يمتّ لها بصلة. في خضم تلك الفوضى، كانت صورة ''سليم'' الصغيرة المخفية بعناية داخل محفظتها، تعويذتها ضد تفكك الشخصية.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

آنذاك، كانت تدخل الحمام مع الصورة، لتغلق الباب وراءها بعناية، فتمضي في غمره بالقبلات أو تبادل الحديث معه.

لا بدّ أن جو الغرفة الدافئ كان وراء دفع ''سليم'' لغطائه السميك، برجليه، وحينما مدت يدها لسحبه ثانية، لمحت، مثل برق خاطف، ظلا باهتا لحزّ ساكن فوق الجزء المكشوف من بطنه، بين قطعتي البيجاما. مررت أصابعها عليها فاقشعر بدنها لجسوئه. رفعت ملابسه أكثر فأكثر، فواجهها ندب طويل يبتدئ من نهاية الورك الأيسر.

* * *

وصلت ''شهرزاد''، على غير عادتها، متأخرة عن موعد اللقاء، إلى الحد الذي راودت الزوجين الشكوك بقدومها، وهذا ما أضاع عليهما فرصة الذهاب الصباحي، إلى سوق الأحد المخصص للسلع القديمة. كانت ''شهرزاد'' ترافقهما إليه كلما زارتهما. لكن الوقت أصبح متأخرا، ولا بدّ أن الكثير من الباعة قد لملموا أشياءهم الآن وغادروا الساحة المكشوفة، ولعل تخوف ''بيداء'' من انزعاج ''عبدل'' لتضييعه فرصة الذهاب إلى سوق الأحد في يوم مشمس ودافئ كهذا، دفعها إلى قدر من التوتر والارتباك. لكن هذا الشعور اختفى فجأة ليحل محله شعور مشوب بالدهشة والاضطراب، عند مشاهدتها ''صالح'' واقفا بشكل جانبي. فبعد دخول قريبتها، كادت تغلق الباب وراءها، لكن تدارك الأخرى أوقف ذراعها فوق المقبض. قالت ''شهرزاد'' ضاحكة: "انتظري...أريد أن أعرّفك بصديق سيعجبك كثيرا" وهذا ما دفع إلى انحباس أنفاسها، خصوصا وان ''عبدل'' كان على بعد متر منها، ولا بدّ أنه سمع تعليق قريبتها كاملا، مع ذلك، ظل فمه طافحا بنصف ضحكة. كانت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تلك هي المرة الأولى التي يزورهما ''صالح'' فيها. أضافت ''شهرزاد'': "ألححتُ عليه كثيرا كي ينهض من الفراش." تصاعد الدم إلى وجه ''بيداء''. حضرت إلى ذاكرتها تلك الاستغاثات الخافتة التي كانت تطلقها ''شهرزاد'' تحت وطأة عمل الحب مع ''صالح''، وحينما صافحها الزائر الخجول شعرت بعرق بشرته كأنه رغوة لزجة.

ضجت غرفة الجلوس بضجيج الصغار الذين توزعوا بين الضيفين. أحاط التوأمان بـ''شهرزاد'' على الرغم من انكماشها القليل منهما، بينما لملمت ''لبنى'' نفسها في حضن ''صالح''. ولم يمض وقت طويل قبل ظهور ''سليم'' أمامهم. وقف بالقرب من باب حجرة الجلوس، كانت عيناه تحملان قدرا من الهلع، وفي فمه انحشر إبهام يده اليمنى. وكأن أخوته شعروا بتهديد لمواقعهم لدى الضيفين فانشدّوا أكثر بهما. نهضت ''بيداء'' إليه. واقتادته إلى مقعدها، لكن اعتذارا خفيفا طرأ على نظراتها، للحاضرين من قدوم ''سليم''، ولم يختف اضطرابها إلا بعد إظهار ''شهرزاد'' و''صالح'' اهتماما صادقا به، عبر الاستفسار عنه وتوجيه الأسئلة إليه، ثم انتظار إجاباته المفككة بشغف واضح. بل بدا حتى الأب مهتما حقا به. استفسرت بنت عمتها عن سمعه وبصره، لكنها راعت طرح الأسئلة بشكل عابر ومحايد. انبرى ''عبدل'' مؤكدا سلامة ابنه البكر، بل مضى يفاخر بقدرته على تعلم كلمات جديدة، وكم هو يحب أخوته.

شعرت ''بيداء'' بانبساط عميق، لهذا الاهتمام الأبوي الكبير بـ''سليم''، لكن صورة ''عبدل'' الغاضبة من ظهوره قبل سنة واحدة فقط أمام ضيوف آخرين، برقت في ذاكرتها، فتركت شحنة خوف وبرد بين أوصالها. وظهر أمامها ذلك الحز الناتئ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الذي ما انفكت تلامسه بأصابعها منذ اكتشافها لـه فوق خاصرة ''سليم''. كادت تصرخ بـ''عبدل'' أثناء حديثه: "ماذا فعلت به أثناء غيابي؟" لكنها شعرت بأكف غامضة تطبق على فمها، بدلا من ذلك، راحت تمرر بأصابعها على مؤخرة رأس ابنها، ماسحة في الوقت نفسه اللعاب المتسرب من حافتي فمه صوب حنكه.

تدريجيا تلاشت الأصوات حولها، لتحل محلها أنفاس ''سليم'' المضخمة. كانت تغمرها، من وقت إلى آخر، لحظات انخطاف خارق لتجد نفسها برفقة ابنها البكر فقط، في عالم آخر بعيد عن بيتها، وسط غيوم شديدة البياض، ولعل تلك النوبات القصيرة جعلتها تتحرر من الشعور بالضآلة كلما وجدت نفسها في مكان واحد مع ''شهرزاد''. في البدء تنفست الصعداء، عند إظهار ''عبدل'' رغبته بتكرار الالتقاء ببنت عمتها، بعد ليلة مبيتهما الأولى في بيتها. لكن هذه الرغبة بدأت تكتسي احتراما متزايدا لها، بل عبر عيني ''عبدل'' كانت ''بيداء'' قادرة على تلمس ذلك الاحتقار المتزايد لها مقابل مشاعر تعظيم لـ''شهرزاد''.

آنذاك، كانت تغمرها لحظات جزع عنيفة وهي تسترجع شريط حياتها التي كانت العفة نواتها، بل حتى في مراهقتها كانت تستيقظ مرعوبة تحت لسع حلم عابر يجمعها بابن الجيران، لتقضي ما تبقى من ساعات الليل تحت رحمة ماء الحمام البارد.

مع ذلك، ظل هناك في أعمق أعماقها ذلك الشعور الخفي من أن زوج المستقبل سيكافئها، على احتجابها، مثلما تتوقع صَدَفة، على حماية لؤلؤتها من عناصر التخريب. لن تكون

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المكافأة نقودا أو هدايا؛ بل أن يضعها فوق النساء الأخريات؛ أن يقدسها، مثلما كان الأب يفعل طوال حياته تجاهها. بدلا من ذلك، راحت ''شهرزاد'' تحتل مكانة أكبر في نفس ''عبدل''؛ كأنها أصبحت بالنسبة له مصدر الثقة بالنفس، مقابل تضاؤل ''بيداء'' المستمر أمامه. وماذا عن أن يكون لـ''شهرزاد'' صديق تعاشره بلا حياء؟ لا يهم؟ أو أن يكون سريرها مرتعا لسلسلة أغراب مروا به قبل أن تلتقي بصديقها الساذج؟

أعادتها الأصوات ثانية إلى حجرة الجلوس، ولا بدّ أن لحظات الانقطاع منحت ملامحها صلابة وسحرا خاصا. ساورها قبل أن تلتفت إلى اليمين قليلا، حدس بأن عيني ''صالح'' تراقبان بروفيلها بتوق خاص، وحينما تماست أعينهما للحظة واحدة فقط شعرت برجفة الكهرباء في جسدها. لفت ذراعها االيسرى حول رقبة ''سليم''، وبأصابعها راحت تلامس صدره، لتبعث فيه الخدر. قال ''عبدل'' بلطف استثنائي لسليم: "أنت نعست... تذهب للفراش؟" ردد الضيفان عبارات التأييد. كانت عينا ''سليم'' آنذاك زائغتين أكثر مما هما عادةً، وهذا ما أضاع أي قسمات تعبيرية عنهما. قالت بإصرار غريب عن طبيعتها، بعد أن نهض الأب لاقتياده إلى الطابق الأعلى:

" أنا سآخذه."

* * *

حتى في تلك الجلسة القصيرة التي جمعتها بـ''صالح''، لم تستطع ''بيداء'' أن تقاوم ذلك الدافع الداخلي الذي كان يحفزها للنهوض من كرسيها، والتوجه إلى الحمام، مبررة غيابها عنهم بذرائع شتى: ها هي تذهب لجلب الشاي، أو تنقل الصحون إلى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المطبخ، أو تجلب الفاكهة أو تذهب لإلقاء نظرة على أطفالها النائمين. لكن الاغتسال كان يتجاوز هذه المرة حدود اليد، ليشمل إلقاء نظرة على الوجه أو تثبيت خصلة شعر في موقعها أو تمرير راحتي يديها فوق صدرها. مع ذلك، ظلت تتجنب نظراته التي كانت تتسلل إليها من وقت لآخر، على الرغم من تجنب الجلوس أمامه.

بعد تناول العشاء انتقلوا إلى الحديقة. كانت بقايا النهار الطويل طافحة على صفحة السماء في هيئة زرقة غامقة متألقة تلبستها القبة السماوية، لتتدرج العتمة عند حافتها حتى تختلط بشجرتي الحور العملاقتين الواقعتين وراء سياج الحديقة. قالت ''شهرزاد'' فجأة: "هل تعرفان أن ''صالح'' يكتب رواية الآن؟" وحينما التفت الزوجان إليه ازداد ارتباكا: "أنا لم أكتب بعد منها أي شيء.. أنت تبالغين" لكن ''شهرزاد'' واصلت مناكدتها المرحة معه: "لا تصدقاه، هو شخص كتوم، مثل كل مواليد العقرب" قال ''عبدل'': "عمّ تدور الرواية؟" وحينما ساد الصمت قليلا التفتت ''شهرزاد'' إلى ''صالح'': "لن يسرق أحد منك الفكرة، أخبرنا قليلا عنها" اندفع ''صالح'' متلعثما: "هي محاولة لإعادة صياغة الواقع دون أن تكون الصورة المرسومة له شبيهة به.. هي محاولة للتقرب من أسلوب الرسام سيزان: أن يكون المنظور شخصيا لا علاقة له بالمنظور الهندسي الذي تنقله الكاميرات. أن تصبح تقاطيع الشخصية مرسومة لا بالقلم بل بتدرج الألوان." قاطعته ''شهرزاد'' متبرمة: "نحن لم نسألك عن الأسلوب أو فلسفة الرواية. هذه مسائل لا تعنينا كقراء" التفتت إلى ''عبدل'' فورا: "حدثنا عما صنعته في الفترة الأخيرة من أشياء طريفة؟" "ليس هناك الكثير.. عملتُ شطرنج من خشب البلوط، القطع فيه تأخذ أشكالها الحقيقية: الفيل هو

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

فيل حقيقي ويجلس فوقه مقاتل، والحصان كذلك."

قالت ''شهرزاد'' بحماسة: "يعجبني أن أشاهده... هل فكرت في بيعه؟"

قال ''عبدل'': "عملت عشر مجموعات لحد الآن"

قالت ''شهرزاد'': "أنا أشتري واحدة "

قال ''صالح'': "وأنا كذلك"

قال ''عبدل'' ضاحكا: "سأعمل لكما تخفيضا"

* * *

في طريق العودة من بيت ''بيداء'' و''عبدل''، حل صمت غريب بينهما: صمت ناجم عن شعور عميق بالنفور من الآخر، دفع ''شهرزاد'' للتركيز على السياقة فقط، وتجنب الالتفات إلى ''صالح''، بينما ظل هو شادا حقيبته الصغيرة إلى صدره.

وضع ''صالح'' فيها فصولا من روايته. أراد أن يفاجئ ''شهرزاد'' بعد وصولهما إلى بيتها بها. لكنه الآن يفضل شيئا واحدا: العودة إلى شقته وحده.

هل هي الخفة التي تحدثت فيها عن عمله أمام ''بيداء'' و''عبدل'' وراء تعكر مزاجه؟ أم هي حمرة السماء الكامدة التي تجعل الفضاء جزءا من كابوس دائم؟

أو لعله سبب آخر: شعور مشترك متزامن ولد في داخلهما معا.

يستطيع من طرْف عينيه تلمس ملامح ''شهرزاد'': بدت له

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كأنها مرتدية قناعا شمعيا، بينما ظلت يداها قابضتين على المقود بإصرار، وعيناها ملتصقتين بالزجاجة الأمامية.

هل يمكن تسميته هكذا: الشعور الطارئ بالاحتجاز مع الآخر؟ لحظة المعايشة التي جاءت ثمرة سلسلة من الخيارات والمصادفات؟

كم بدت عند حدوثها مستقلة بعضها عن الآخر، لكنه الآن فقط يكتشف كم كان غافلا عن عمل آلهات القدر الدؤوب وهن يغزلن من تلك الخيوط لحظة الحاضر.

بالمقابل، تظل روحه تواقة إلى اختبار خيارات أخرى أهملها آنذاك: ماذا لو أنني رفضت عرض صديقي للانتماء إلى تنظيم ثوري؟ ماذا لو أنني لم أذهب إلى ساحة التحرير لمشاهدة المعدومين؟ ماذا لو...؟ أي خيار آخر كان سيعرقل تشكل السلسلة التي أوصلته إلى هذه اللحظة: الجلوس مساءً بجانب ''شهرزاد''، في مدينة لم يفكر يوما أنها ستصبح وطنه.

هل يمكن القول إن الحاضر سجن بناه الماضي؟

أم أن شعوره المفاجئ بالاختناق نوع من الاحتجاج: احتجاج أرواح ظلت محبوسة في صدره كإمكانيات، من دون أن تمنح فرصا للتحقق عبر خيارات مغايرة؟

لعل ''شهرزاد'' كانت تشاركه الشعور نفسه.

قال لها ذات مرة في لحظة حميمة: نحن مثل نهري دجلة والفرات: يولدان في بحيرة واحدة، ثم يفترقان ليلتقيا معا بعد رحلة طويلة. علقت ضاحكة: بعد فوات الأوان.

لكنهما الآن، ولأسباب غامضة، قطبا مغناطيس متماثلان، يسعى كل منهما للإفلات من الآخر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وكأنها كانت تقرأ رغبته، مضت أولا إلى منطقة سكنه، توقفت أمام مبنى شقته. وقبل أن تطبع قبلة على خده، قالت مطَمْئِنة: "سأهاتفك قريبا".

تنفس ''صالح'' الصعداء وهو يراقب مصابيح سيارتها الخلفية تتلاشى تدريجيا، حتى مع ولادة الشوق الآنية لها. مرر أصابعه فوق حقيبة كتفه. ما زالت صفحات روايته بكرا لم يفضّها أحد، وأبطاله ما زالوا قادرين على تبديل أقدارهم.

كم سيكون عسيراً عليهم القيام بذلك لو أنه كشفهم أمام ''شهرزاد'': "حينما رن جرس الباب ظنت أنهم... "

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

القسم السادس

"المبدع"(1)

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

حينما رن جرس الباب ظنت أنهم شهود يهوه. بدلا من ذلك فاجأها رجل قصير ببنية قوية انعكست على كتفيه العريضين. كان جبينه بارزا، مما جعل عينيه تبدوان غائرتين، بينما أصبحت نظراته ثاقبة، مثيرة للاضطراب، حتى حينما رسم ابتسامة مطمْئنة. "السيدة ''حياة''؟" قال بنبرة ودية. فهزت برأسها علامة على الإيجاب.

"أنا عندي رسالة لك"

"ممن؟"

"من شخص عزيز عليك"

"لماذا لم يبعثها بالبريد؟"

"لأنه... انتقل إلى رحمة الله"

"من هو؟"

قرأ على وجهها آثار الارتباك. كأنها عرفت المتوفى. "هل يمكنني أن أدخل؟" وقبل أن تجيب، كان قد تجاوز الباب ليقف وراءها في الممر الموصل إلى غرفة الشقة. تقدم أمامها إلى الباب الواقع في نهايته، ليدفعه دون أي تردد، كأنه كان يعرف مخطط مسكنها. فوراء الباب المطلي باللون الأصفر تقع غرفة الجلوس.

لم يجد الغريب أي حرج في احتلال الكنبة الصغيرة دون إذن منها. ومن النافذة الواقعة فوق رأسه تدفق فيض كبير من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ضوء الصباح، مما جعل ملامحه تغيب عنها. تحسست وهي تتظاهر بالتماسك أنها تعود إلى ذلك المكان نفسِهِ، الذي ظل يحضرها في الأحلام. لكنها ظلت كلما استيقظت من كابوس ما تطمْئن نفسها: "أنتِ في أمان تام. هذه مجرد أوهام. أنتِ بعيدة عنه بآلاف الأميال، بينكِ وبينه قارات ومحيطات وصحارى ودول" كادت تسأل ضيفها: "هل أنت حقا حقيقي أم مجرد شبح؟" إذ كيف يتمكن بهذه السهولة أن يعبر كل هذه الحواجز الطبيعية والمصطنعة ليطل هكذا من دون أي تمهيد مسبق: "السيدة ''حياة''؟" أي تهذيب مثير للدهشة. كان عليها عدم فتح الباب لأي زائر بلا موعد مسبق، مثلما كانت تفعل خلال أول عاميها في لندن. لكن شعور الطمأنينة ظل ينمو في عروقها كل يوم، ليجعلها تنسى شيئا فشيئا ما مرت به هناك. بل هي كانت في لحظات معينة تتشكك بحقيقة ماضيها. يغمرها أحيانا شعور بأن لحظة وصولها إلى هذه الجزيرة هي موعد ولادتها الجديدة؛ تاريخ تناسخ روحها الجديد. تتذكر الآن أول لحظاتها في مطار هيثرو، حيث ظلت حتى بعد تجاوزها نقطة التفتيش متوجسة بوجود رجال أمن خلفها.

جاءها صوت الزائر حادا ومتلعثما لا يتناسب مع هيئته: أنا من طرف ''المبدع''. أنت بالطبع تعرفينه؟ ولا بد أنه قرأ الصدمة على وجه ''حياة''. حتى حينما لم تظهر فوقه أي سيماء تُدلل على ذلك، باستثناء الشحوب الذي راح يتعمق حول فمها. قال الآخر: مستدركا: "أعرف أنه توفي منذ فترة طويلة. لكنه أعطاني أمانة كي أوصلها لك" وحينما لم تترك كلماته أي تعبير على وجهها اندفع مبررا: "كانت سنوات صعبة علي. أنا انشغلت بأعمال حرة. وكان علي أن أتخفى أيضا، فأنا مثلك لاجئ. أنا جلبت لك الأمانة، لأنني ما زلت مخلصا له" فتح

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الحقيبة الدبلوماسية السوداء وأخرج منها علبة ملفوفة بورق زهري فقد قدرا من لمعانه بسبب تقادمه. "هذا هو ما تركه لك ''المبدع''. أوصلها لي نائبه بنفسه قبل يوم واحد فقط من وقوع المحاولة".

قال الزائر قبل انصرافه: "أنا أسكن في لندن، مع عائلتي. يجب أن تأتي عندنا يوما. أنا عندي طفلان. نحن جيران تقريبا" وعند باب الشقة توقف للحظة. أخرج من جيب سترته الداخلي بطاقة بزنز ليقدمها لها: سلام سلمان: مقاول. أضاف وهو يضع خطوة في الفراغ المعتم خارج بيتها: "إذا احتجتِ إلى أي تصليح للشقة، فأنا تحت الطلب. عندي عمال ماهرون في الكهرباء والبناء والسمكرة. أنا لا أنسى أفضال ''المبدع'' علي. من دون مساعدته ما كنت أساوي قرشا"

* * *

حينما وجدت نفسها وحدها ثانية، شعرت بلزوجة الهواء، كأن الآخر استنشق كل الهواء السابق وزفر محله هواء خانقا.

فتحت كل نوافذ الشقة، فتدفق مجرى الهواء البارد، مداعبا سلسلة الأجراس المعلقة على ظهر باب البيت. مع ذلك ظل العفن اللزج عالقا في جزيئات الهواء. أخرجت زجاجة عطر "كوكو شانيل"، هدية ''توماس'' القديمة، ثم سكبت سائلها فوق البساط المغطي للأرضية والفُرش والكراسي، لكن من دون جدوى. هل يمكن أن تكون هذه الرائحة نابعة منها؟ حاولت تذكر إن كانت صافحت الغريب قبل مغادرته. شمت كفيها. إنها هنا بين أظافرها وفوق جلد بشرتها.

غطست في حوض الحمام بعد إشباع مائه الدافئ بزيوت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

معطرة. حاولت أن تسترجع لحظات حميمة من لقائها الأخير بصديقها الرسام، أن تتذكر لقطات من الفيلم الذي شاهداه معا في السينما المحلية، أن تستحضر آخر عبارات طفلها التي رددها هذا الصباح قبل تركه مع معلمة الروضة، لكن دون جدوى. فما ظل يحضرها هو ذلك الصوت الذي اخترق كينونتها كنصل حاد: السيدة ''حياة''؟ وحينما يغيب، تحل محله تلك النظرات المفترسة، التي بعثت فيها شعورا غريبا تستطيع الآن فقط أن تكتشفه: شعورا بأنها عارية. كأنها كانت تحت تأثير أشعة لا تكتفي باختراق الملابس بل تمضي إلى أعمق الأعماق: إلى العظام والأحشاء والسوائل، مؤكدة حقيقة واحدة: جوهر الإنسان هو الجانب البهيمي فيه.

ظل هذا السؤال ملتصقا في خلايا رأسها حتى حينما كانت تمنع تشكل الكلمات في مخيلتها: أين رأت هذا المخلوق؟ إذ كيف تستطيع تبرير هذا الغثيان الذي اجتاحها حال رؤيته؟ "السيدة''حياة''؟" لا، السيدة ''حياة'' ماتت منذ زمن بعيد. ألم يكن أفضل بالنسبة لها لو أنها بدلت اسمها حال وصولها إلى لندن، مثلما تفعل تلك النساء الهاربات من قسوة أزواجهن العنيفين. كان عليها أن تخبر موظفي الهجرة بحقيقة ما جرى لها في بلدها، بدلا من الزعم أنها جاءت للدراسة. ولو فعلت ذلك لتوفرت لها حماية، وحصلت على امتيازات. وبالتأكيد ستتصل بها منظمات إنسانية كثيرة لتعرض عليها مختلف المساعدات: هل تحتاجين إلى طبيب نفسي يساعدك على التحرر من كوابيسك؟ هل الشقة التي تسكنين فيها تساعدك على التخلص منها؟ هل تريدين رخصة لإيقاف سيارتك في أي مكان تشائين خاصة بالمعوقين؟ هل يمكنك أن ترينا آثار التعذيب على جسدك؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كانت ''حياة'' قادرة على تخيل جسدها عاريا مرة أخرى، مثلما جرى هناك في القلعة. في هذه الحالة ليس من أجل انتزاع اعترافات منها أو للاستمتاع بجسدها بل من أجل فائدتها: من أجل مساعدتها على كسب امتيازات كثيرة: راتب محترم دائم وسكن مريح وحماية أمنية وعناية طبية خاصة. وإن هي بالغت قليلا في وصف آثار التعذيب وسوء المعاملة التي لحقتها سترفع سقف حصتها من المنفعة الشخصية. لكنها وجدت عنصرا يجمع ما بين معذبيها والمنظمات الإنسانية: كلا الطرفين يريدان منها أن تخلع ملابسها. أن تتعرى أمامهما؛ أن تكون شيئا قابلا للتحليل إلى عناصر أولية. في الحالتين عليها أن تقبل الاختراق عن طيب خاطر.

بدلا من ذلك فضلت عند قدومها إلى لندن، أن تعمل موديلا لطلبة معهد خاص بالفنون التشكيلية. كانت تقف أمامهم عارية لساعات كل يوم، ولم تجد أي غضاضة في ذلك، فهي لم تكن بالنسبة إليهم أكثر من كائن غير مشخص، ولعل حملها كان عنصرا مشجعا لتشغيلها، ففي كل يوم كانت التغيرات التي تطرأ على جسدها مادة بصرية جديدة للطلبة. كل ما تتذكره من تلك التجربة أن الجميع كان يدعوها تحببا بدلا من اسمها الحقيقي بـ "الأم الصغيرة".

إضافة إلى الأجر الزهيد الذي تحصل عليه كانت ''حياة'' تستمتع بذلك الشعور الغريب بالمجهولية: ها هي تقف أمام أناس غرباء عارية تماما، فتراقب زوايا جسدها من خلال نظراتهم التقنية إليه، وكيفية تحويله إلى أقواس وظلال ومنظور وألوان. وكأن جسدها كائن مستقل عنها، تستطيع هي الأخرى أن تراقبه من خلال رسوم الطلبة أنفسهم. كان بإمكانها أن تتابع التقدم المتحقِّق في ضربات الفراشي على أقمشة القنّب، ومع

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الزوايا المختلفة التي تراقب الأعين جسدها عبرها تستطيع أن تراه ماثلا أمام عينيها بأوضاع كثيرة. وتستطيع أن تكتشف طبيعة النظرة نفسها: مدى ولع العينين المراقبتين به، والكيفية التي يتحلل الجسد وفقها في مخيلة الرسام.

اكتشفت، عبر ضربات الفرش تلك، جسدها لأول مرة، بل بدأت تراه من خلال منظور جمالي متقلب تصيغه أعين الرسامين الصغار. في تلك الخطوط المتقوسة تستطيع تلمس وركها المتميز ثم الهبوط الأنيق للحواف، كاشفة عن ساقين مصقولتين.

كادت ''حياة'' تنسى زائرها، بعد انغمارها في تجفيف شعرها وتمشيطه، وارتداء ملابس خفيفة لجلب طفلها من الروضة. أمامها نصف ساعة قبل الخروج من البيت. مضت إلى غرفة الجلوس، ففاجأتها تلك العلبة الملفوفة جالسة بصمت فوق طاولة القهوة المنخفضة. استيقظ في داخلها شعور غريب جعلها عاجزة لدقائق عن تحريك أي عضلة في جسدها.

مدت يدها إلى العلبة، فسرى في جسدها تيار شبيه بتيار كهربائي. كأن أصابعها لامست أصابع ''المبدع'' من خلال الحاجز الفاصل بين الحياة والموت.

لا تستطيع تصوره يلف علبة بيده وهو يتحكم في جيش من الخدم والمخبرين والقتلة. يكفيه أن يرفع إصبعه حتى يفهم نائبه ما يريد سيده، فيمضي بتنفيذه فورا. بل حتى لو كانت هناك هدايا داخل هذه العلبة فهو لن يختارها بنفسه. لعله شاهدها فقط وأعطى موافقته عليها. راودتها رغبة بحمل العلبة ورميها في الفتحة المخصصة لأكياس القمامة، لكن دوارا حاصرها وهي تمسك بطرفيها. كان عليها أن ترتدي القفازين الخاصين بغسل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الصحون لتنفيذ هذه المهمة. وفي طريقها إلى المطبخ لجلبهما تنامى في نفسها فضول جارف لمعرفة ما بعثه ''المبدع'' لها. خصوصا وأنه الآن خارج دائرة الحياة.

حضرتها فكرة مشوشة: مع الموتى نحن نمتلك وقتا مفتوحا لاسترجاعهم بالشكل الذي نحبه دون أن يتمكنوا من تعكير حياتنا بشيء. لعله لهذا السبب نحن نشعر بأنهم أحسن منا وأننا نحمل في أعماقنا شيئا من الذنب تجاههم.

لكنها لا تحمل هذا الشعور تجاه ''المبدع''. فالسؤال الذي ظل يدور في خلدها نقيض لفكرتها، حتى بعد قدوم خبر مقتله الشنيع: هل كانت ستقتله لو توفرت لها فرصة للقيام بذلك؟

مع ذلك منحها موته شعورا بالانفراج، لم تستطع تحديده في البدء. كانت حتى وصول الخبر تشعر وكأنها ذبابة واقعة في شباك عنكبوت أسطوري. هل تستطيع بوجوده حيا أن تنكر علاقة الحب التي جمعتها به داخل القلعة؟ أو أن جسدها لم يهتز تحت وطأة تدفق مائه فيها، حتى بعد ظهور علائم حملها؟

فاجأها محتوى العلبة: كانت هناك حاوية في شكل صدفة وتحتها استقر على قاع الصندوق الكرتوني السميك دفتر ذو غلاف سميك قرمزي اللون. فتحت غطاء الصدفة العاجية، فانبرى لها شعاع ضوء خارق عكسه سطح قلادة مصنوعة من الماس. لم ينتب ''حياة'' أي شك من أصالة هذه الحبات التي رصَّعت جسم القلادة المركزي، وحينما وضعتها حول رقبتها بهرتها الحزمة الضوئية المنبعثة من تلك الكمثرى العريضة التي استقرت فوق قمة صدرها.

خلعت عنها كنزتها الصوفية. ومن خلال أعلى ثدييها المضغوطين بحمالتيهما شكلت القلادة تاجا مقلوبا يعتليهما.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تخيلت نفسها عارية أمام ''المبدع'' إلا من هذه القلادة. ها هو يمرر أصابعه المتعرقة فوقها، متنقلا مثلما كان يفعل ما بين ثدييها ضاغطا فوق كل منهما حتى تأتي يدها دافعة إياه عنهما. تستطيع تصور ملامحها آنذاك خالية من أي تعبير عن الألم. بل لعلها كانت تحمل بين طياتها ابتسامة الرضا فتدفعه للمضي أكثر فأكثر في استكشاف أجزاء أخرى من جسدها. خلال كل تلك الدقائق الثقيلة، كانت ''حياة'' مسكونة بذعر من نوع خاص يجعلها، وهي تسترجع صور السجناء الآخرين، تتلمس بشرة وجهها ونبضات قلبها لتصرخ بلا كلمات: أنا حية. أنا بحماية ''المبدع''. وكلما تسربت إليها روح التمرد دافعة إياها للانكماش تحضرها صورة المقبرة التي أخذها ''المبدع'' إليها، أو تلك اللحظات التي قضتها عارية برفقة زبانية القلعة، فتلين أصابعها في لمس جسده العاري. إنه في الأخير منقذها. وها هو الآن يواصل دفع ثمن استمتاعه بها ليبعث لها من وراء القبر بقلادة ألماس، كأن لم يكن كافيا ثمن إبقائها حية، أو إرسالها إلى بريطانيا مع مظروف مملوء بالدولارات. ولم يكن أمامها خيار سوى استخدام النقود: بالنسبة لها، أن تصبح غانية هو قدر أكثر منه خيارا شخصيا. كان بإمكانها أن تستخدم جسدها أيضا لاستدرار شفقة الجمعيات الخيرية هنا عبر عرض ما أصابه، لكنها فضلت الخروج من تلك الحرفة، وها هي تتسلم عرضا آخر من ''المبدع'' للشروع مرة أخرى فيها.

* * *

استيقظت، وسط الليل، تحت دافع شعور بالندم. كيف رميتِ بالقلادة إلى القمامة؟ كان ممكنا بيعها ووضع ثمنها في حساب خاص بطفلها. أليس هو في الأخير ابن ''المبدع''؟ تكتشف في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

هذه اللحظة عنصرا وراثيا وصل إليه من أبيه: تلك العينين اللتين ترمشان بسرعة من وقت إلى آخر؟ وإذا كان ''المبدع'' يغطي هذه العادة اللاإرادية بنظارتيه الغامقتين فإنها بارزة فوق عيني ابنها. حضرها سؤال جعلها تقفز من فراشها وتمضي إلى غرفته: هل هو يشبه ''المبدع''؟ ظلت مقتنعة منذ ولادته أنه يشبهها كليا. وها هي وسط العتمة تقترب من وجهه، لتتلمس عبر الجبهة الضيقة والحاجبين الغليظين والأنف الحاد ملامح ذلك الكائن الذي قلب حياتها رأسا على عقب.

اتجهت صوب العلبة الموضوعة حتى ذلك الوقت في مكانها. سحبت الدفتر بحذر منها. فتحت أول صفحاته. فصفعتها تلك الكلمات التي عمقت فيها شعورا بأنها تعيش كابوسا طويلا غير قابل على الانتهاء: " إلى حياة حياتي... على أمل أن تجمعنا الظروف قريبا" شعرت وهي تمسك بالدفتر بأصابعه تلامس ظهر كفها فغمرها دوار عاصف. مع ذلك تشبثت به وهي ترمي بجسدها فوق الكنبة، مرددة بإصرار: لا تخافي، إنه مجرد حفنة تراب. ولعل الزعيم أذاب جسده بحامض النتريك.

مررت أصابعها فوق الأوراق التي راحت تقلبها من دون انتباه. راودتها رغبتان متعارضتان: تمزيق هذا الدفتر والتخلص من ماضيها إلى الأبد؛ أو إبقاؤه معها لإخراج كل تلك الشياطين من روحها بواسطته: ماضي ''المبدع'' هو ماضيها ومن دون فتح صفحاته ستظل مسكونة به.

أثناء زيارة أبيها لها بعد وصولها إلى لندن بقليل، حدثها عن الشائعات التي راجت آنذاك على أثر موت ''المبدع'' الغامض: في يوم عودة "الزعيم" من رحلته الأوروبية، احتشد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المسؤولون الكبار في المطار الدولي لاستقباله. ولم يدر ببال أي منهم أن حدثا رهيبا موشكا على الوقوع حال هبوط طائرته. ففي برج المراقبة تسرب عدد من أتباع ""المبدع"" مع مدافع هاون وبنادق قنص. بالمقابل كان هناك فريق آخر يتهيأ لقصف البرج لحظة انفجار الطائرة.

في أول ساعات ذلك النهار التي سبقت وصول "الزعيم" تمكن "المبدع" من شل الاتصالات بين وحدات الجيش، ثم اعتقل وزيري الدفاع والداخلية. كذلك هيأ بيانا ليذاع بعد مقتل "الزعيم": إنها مؤامرة قام بها الأخيران لإعادة قادة الجيش الرجعيين إلى الحكم وإبعاد "المنظمة" عن الحكم.

* * *

استيقظت من رقادها هذه المرة بلا أي سبب، تحت وطأة شعور كاذب بالاكتفاء من النوم، على الرغم من أنها لم تغفُ أكثر من نصف ساعة. فتحت عينيها على السقف الواطئ الذي تخللته بقع ضوئية خافتة، تسربت من مصباح الممر الصغير. كانت أذناها تلتقطان بصفاء ذلك الإيقاع الواهي القادم من قطار شحن مر بالقرب من المطبخ، ووسط جلجلته تمكنت بعين عقلها أن تشاهد ضيفها في مكان آخر ظنت أنها نسيته إلى الأبد: هناك في الطابق الثالث تحت الأرض كان يراقب حركة السجناء وهم واقفون أمام المرافق، ولم توح ملابسه الرياضية وحذاؤه الصندل وقصر قامته بأي خطورة، حتى مع حمله سوطا طويلا.

عند تجاوزها بوابة القلعة، استيقظت أذناها على ذبذبات صوتية تتسرب إليها عبر جدران سميكة، بعد قطعها مسافات

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ضوئية مديدة. بدت لها لأول وهلة نوعا من الهلوسة التي أثارتها مرافقة هذين الرجلين لها، لكن الهمهمات راحت تتعالى أكثر فأكثر كلما رمت خطوة أخرى. أثارت انتباهها أضواء المبنى الخافتة، التي تجعل المرء عاجزا عن معرفة إن كان الوقت نهارا أم ليلا، فليس هناك أي نافذة تنفتح على الخارج. هل ما رأته كان حقيقة أم حلما عند اقترابها من السلّم الحلزوني: أمامها كانت هناك لوحة مستنسخة عن "الصرخة" لإدفارد مونْتش بحجم ضخم، وفوقها نقِش شعار بأضواء صفراء خافتة تنطفئ وتشتعل بانتظام: "أيها الداخلون، انزعوا عنكم كل أمل"

فتحت دفتر ''المبدع'' لا إراديا. طالعتها سطور مكتوبة بخط أنيق وشديد النعومة. كانت الكلمات مصفوفة بعناية فائقة، على الرغم من غياب الخطوط في الصفحة. "علمتُ اليوم فقط أن الزعيم يريد قتلي. ما أزعجني أكثر من أي شيء آخر هو أنه يريد محاكمتي باعتباري المسؤول الوحيد عما جرى في القلعة. لو أنه جاء وقال لي: أريد قتلك لمصلحة الوطن لما شعرت بأي غضب تجاهه؛ بالعكس، سأهتف بحياته وأنا أمام فريق الإعدام. لكنه يدفعني الآن إلى مصير واحد: أن أكون كبش فداء بطريقة مهينة."

حاولت أن تغفو مرة أخرى. أطفأت مصباح الممر مسقطة احتمال أن يستيقظ طفلها وسط الليل؛ أطبقت باب حجرتها بإحكام منعا لقدوم دمدمة القطارات إليها؛ أغلقت أجفان عينيها بقوة، لكن أصداء صرخات من نوع خاص راحت تتصاعد فوق أذنيها لتدفعها إلى الضغط عليهما بباطني كفيها. ها هي تهبط إلى أسفل تحت وخزات مرافقيها وشتائمهما. "أيتها العاهرة، سنعوضك عن خسارة زبائنك الرفاق" وحينما تلكأت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

قليلا تحت وطأة دوار مفاجئ قبض أحدهما على شعر رأسها حتى حينما كفت ساقاها عن حملها. كانت تسمع وهي تنزلق إلى أسفل كلماتهما مختلطة بآلام جلدة رأسها: "أنت لم تري شيئا بعد"

تحضرها صورة ضيفها نقية تماما. نعم. كان زملاؤه ينادونه: ''أبو حرب''. لم يكن آنذاك قد أصبح ''سلام سلمان'' بعد. اكتشفت في يوم اعتقالها الثالث سبب رعب السجناء منه: إنها لحظات الجنون التي تعصف به من دون أي سبب فيتحول إلى وحش حقيقي. فجأة وعند المرافق التي اصطف أمامها عدد من المعتقلين انفجر غضبه. ولم تتمكن إلا أن تلمحه وهو يتقدم صوبهم، لاسعا في طريقه أجسادهم الهزيلة بسوطه. ومن داخل التواليت سحب شخصا لم يكمل بعد تفريغ أمعائه. كان الآخر يسير على أطرافه الأربعة من دون سروال وهو يتوسل به: سامحني، لن أتأخر مرة أخرى أقسم لك.. ووسط ذلك الفناء الصغير راح ضيفها يرفسه بإيقاع متسارع حتى كلت ساقه اليمنى. التفت إلى أحد السجناء آمرا إياه بجلب سطل القاذورات من غرفة المرافق، ورميه فوق رأس ضحيته. آنذاك التفت إليها حارس كان يرافقها ليصرخ فيها: اطبقي وجهك على الجدار.

* * *

مع ''توماس'' مضت ''حياة'' خطوة أبعد في اكتشاف جسدها. وعندما دعاها لأول مرة لاحتساء قهوة معا لم يخطر ببالها أن علاقة جارفة ستجمعها به فورا. فهي تعرفه كأستاذ للرسم في المعهد الذي تحضر إليه مرتين كل أسبوع. كانت تتسقط تلك النكات الساخرة لبعض طلابه عن خراقته. قد يكون

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وراء شعورها بالشفقة عليه نظارتاه السميكتان وبذلته القديمة وربطة عنقه المحلولة. ولعل ما دفعها إلى قبول دعوته فارق السن بينهما، فمن أحاديث الطلبة علمت أنه بعمر أبيها، وهذا ما جعلها تفترض أن مشاعره نحوها ذات طابع أبوي، خصوصا مع اقتراب موعد ولادتها.

لا بد أنه شعر باضطراب خفي يسري في أنفاسها بعد مضي دقائق على جلوسهما معا في المقهى القريب من المعهد، فراح يُطمْئنها بنبرة حميمة: ابنتي ولدت قبل شهرين فقط. كانت خائفة كثيرا من آلام المخاض. لكن كل شيء جرى على أحسن ما يرام. هل بدأت تشعرين ببعض الآلام. أوّلت ''حياة'' كلامه سعيا لثنيها عن العمل كموديل. لا. أنا أمامي أكثر من شهر. أنا أكره البقاء في البيت. استغربت كثيرا ألا يسأل ''توماس'' عن والد طفلها وكأنه افترض غيابه التام أمرا طبيعيا. كم طفلا عندك. سألته. وبعد تردد قليل قال بعد أن علت وجهه حمرة خفيفة: ليس عندي سوى بنت واحدة. أنا مطلق منذ فترة طويلة. بادر مخففا من اعترافه غير المبرر، وبنبرة مازحة: أنا لا أصلح للزواج. أظن أنني أصلح أكثر لأكون أبا أعزب.

في لقائهما الثاني عرض ''توماس'' عليها أن تقف موديلا أمامه في مرسمه الخاص، فلم تجد أي سبب يدفعها للرفض.

ولم يكن مرسمه سوى غرفة في شقته الصغيرة. أثارت اللوحات المبعثرة في كل زاوية منها دهشة ''حياة'' وضيقها، عدا عن تلك القطع اللامتناهية من الخردة: بقايا قطع غيار عربات وأنواع مختلفة من الخزف والحديد والنحاس العتيق. قالت ضاحكة: هل تعمل تاجر سلع مستعملة؟ لكن ''توماس'' أخذ ملاحظتها مأخذ الجد. فقادها إلى غرفة نومه. وهناك

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

انتصبت خزانة كبيرة ذات باب زجاجي، وخلفه تراصفت منحوتات تجريدية مصنوعة من مواد مختلفة. أرادت أن تسأله عما يخفي وراء باب خزانة الملابس المجاورة للأولى. وكأنه قرأ ما كان يدور في رأسها، فأشار إليها: هنا أضع كل ما أمتلك من ملابس وأسرار صغيرة. هل تريدين مشاهدتها؟ لكنها بدلا من إجابته انسحبت من الغرفة. كانت عيناها أثناء ذلك تراقب مشهد السرير الذي تبعثرت فوقه الأغطية بلا أي نظام.

سألها إن كانت تشرب شايا أو قهوة. وعند ذهابه إلى المطبخ لإعداد الشراب لهما تبعته لا إراديا. لعلها أرادت التوثق من نظافة الكوب الخاص بها. ولم يخب ظنها حينما شاهدت حوض المغسلة مملوءا بالأوعية المتسخة. قال ''توماس'' بنبرة مرتبكة حال اكتشاف وقوفها وراءه: المطبخ هو المكان الوحيد الذي لا تدخل فيه مواد العمل. إنه فقط للأكل. قالت بنبرة حازمة ورقيقة في آن: اذهب إلى مرسمك ورتبه وأنا سأعد الشاي.

لكنها لم تقف عند ذلك فحسب. بل هي نظفت كل القطع المستعملة، ثم رتبت كل تلك المعلبات المتناثرة في كل مكان، لتصفّها بطريقة أنيقة فوق الرفوف الثلاثة. أثار استغرابها ذلك العدد الكبير من علب الفاصوليا بالطماطم. وكادت تسأل ''توماس'' عنها حينما عاد إلى المطبخ بعد أن استبطأ غيابها. "ما كان عليك أن تفعلي ذلك،" قال بنبرة اعتذار بينما علت طبقة أكثر حمرة فوق وجهه. اكتشفت ''حياة'' في تلك اللحظة أن بشرة الإنجليز ليست بيضاء بل هي وردية وكلما شعروا بالحرج علت وجوههم طبقة أكثر حمرة تختلف في كثافتها من حالة إلى أخرى.

أرادت أن تسأله وهي تراقب الفوضى السائدة في مرسمه إن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كانت هناك أي امرأة موديل دخلت يوما إليه؛ بدلا من ذلك قالت وهي تضع باطني كفيها على طرفي ظهرها: "أشعر بالتعب. أحتاج إلى أن استلقي في الفراش" قال مرتبكا وكأنه مُسك أثناء قيامه بفعل شاذ: "هل تحبين أن ترتاحي في فراشي أو على الكنبة؟" "أفضّل الذهاب إلى البيت. هل تستطيع أن تطلب لي تاكسي؟" تمتم بعد لحظات صمت: "هل تحبين أن أرافقك؟" ثم أضاف بنبرة أقل خفوتا: "أنا سأقلق عليك قليلا إن ذهبت لوحدك"

* * *

عادت إلى الدفتر القرمزي، تحت فضول جارف: "قد تتساءلين: أي قوة دفعتني لاتباع هذا الطريق. وقد لا تصدقين إذا قلت لك إنه الرسم. نعم، الرسم. كان حبي للرسم في الثانوية جارفا. ولعل ذلك يعود إلى أستاذ الفن الذي خلق اهتماما واسعا بالرسم لدى الطلاب منذ انتقاله إلى مدرستنا. ومعه أصبح هناك تقليد سنوي فيها: معرض واسع يحضره العديد من المسؤولين وتكتب عنه بعض الصحف."

"أتساءل حتى اليوم إن كان أستاذ الرسم ذاك محقا في رفض أي من لوحاتي لإشراكها ضمن معارض المدرسة. إذ ظل يردد أمام كل عمل أسهم فيه: هناك اختلال في الألوان التي تستعملها. أو أنت لم تتقن التخطيط بعد... جاء انتمائي إلى المنظمة ليعمق شعوري بالمرارة منه فهو في نهاية المطاف محسوب على الحمر مثلما ظلت الشائعات تقول، بل حتى كان بعض رفاقي يرددون بحنق: ذلك الأستاذ يستخدم المعرض وسيلة لكسب الطلبة إلى حزبه.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

"لكنني سأعترف لكِ بما حدث، فأنت أصبحت مثل صوتي الداخلي الذي بفضله أستطيع أن أفهم نفسي وكل تحولاتها الغامضة: ما دفعني للقيام بأول فعل تخريبي هو شعور صاف بالغيرة... الغيرة من الإقصاء وعدم منحي فرصة كسب إعجاب زوار المعرض أو مشاهدة اسمي مكتوبا في الصحف. هل تصدقين أنني كنت خلال انغماري في الرسم غارقا في أحلام يقظتي: أن يكتشف أستاذ الفن موهبتي، فلا يكتفي بمنحي فرصة عرض أعمالي بل يختارها لتعرض على مستوى الوطن كله. كنت أراني برفقته نزور معا معارض رسم كبيرة ونتبادل الحديث عن الفن. لكنه بدلا من ذلك واصل تجاهل جهودي وكأنني لم أكن موجودا. هل تصدقين إذا قلت لك إنه لو منحني أي قدر من الاهتمام لما انتميت إلى "المنظمة" ولما وقعت تحت تأثير "الزعيم" ولعلي كنت أصبحت من الحمر.

"جاءت الضربة هكذا: عند وصول الطلبة إلى المدرسة اكتشفوا ما حدث: على تلك اللوحات المعلقة داخل قاعة الرياضة مرت سكين حادة فتركت فوقها حزوزا عميقة تتخذ أشكالا هندسية مختلفة: دوائر ومثلثات ومربعات.

"مع ذلك لم يثر ذلك الإنجاز في نفس الزعيم سوى هزة رأس طفيفة تعبيرا عن استحسانه. وضع يده على كتفي منكسا عينيه صوبي: هذه خطوة صغيرة في الطريق إلى العمل الأكبر الذي سيرفعك إلى السماء. وحينما سألته عم يجب أن أقوم به لتحقيق ذلك أجابني بنبرة قاطعة: أنت تعرف.

"بقيتُ خلال الأسبوع الذي أعقب تمزيق اللوحات مسكونا بالخوف. وكلما رأيت شرطيا ظننت أنه جاء ليعتقلني. كانت الأصابع كلها تشير إلي، وحينما سألت الزعيم، الذي يسبقني

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بصفين، عما يجب فعله، جاء جوابه باردا: ابق معي أثناء فترات الاستراحة حتى يعرفوا أن ما قمت به هو تنفيذ لأوامر المنظمة.

" كشف ذلك الحادث لي عمق النظرة التي يتمتع بها الزعيم على الرغم من صغر سنه. إذ اكتفى مدير المدرسة بالإعلان عن إلغاء المعرض السنوي. معللا قراره بما تتركه مناسبات كتلك من آثار سلبية على تحضير الطلبة لامتحاناتهم. أما أستاذ الرسم فظل وجهه يمتقع شحوبا كلما تصادمت نظراتنا بعضها ببعض. كنت أقرأ في أنفاسه ندما على إهانتي، لكن بعد فوات الأوان.

"هل أقول لكِ إن ذلك الشحوب كان وراء تصميمي على تنفيذ ما طلبه الزعيم مني: أن يكتسي وجه الأستاذ شحوبا دائما. كأن وجهه تنبأ بنهايته، باعتبارها قدرا مرسوما له قبل أن يهمل لوحاتي أو قبل أن ألتحق بالمدرسة أو حتى قبل أن يولد.

"عليّ أن أؤكد أن ما جرى بعد اختفاء أستاذ الرسم جعلني أؤمن تماما بنبوءة الزعيم التي رددها ذات يوم أمام عدد من الطلبة الذين لم يأخذوا كلامه بمحمل الجد: سأصبح رئيسا للجمهورية بعد 13 عاما. كانت أعين الجميع، أساتذة وطلبة، تقول كلما التقت بعيني: أنت الذي قتلته، لكن لم يتجرأ أي منهم بإعلام الشرطة. بالتأكيد، كان ذلك بفضل الخوف الذي زرعه الزعيم في نفوسهم، بالرغم من اصطناعه تهذيبا شديدا مع الجميع. لكنهم كانوا في دواخلهم يدركون ما يسكن وراء هدوئه من براكين قادرة على إزالتهم من الوجود. هل تصدقين إذا قلت لك إن مدير المدرسة قرر إلغاء درس التربية الفنية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وتحويله لصالح الرياضة. مبررا ذلك بأن العقل السليم في الجسم السليم.

"كما ترين فإن الزعيم هو الذي حدد مسار حياتي أو قد يكون من الأفضل القول: هو الذي منحها معنى كاملا. ردد بعد إنجازي ذاك: أنت نائبي إلى الأبد.

" لكنه لم يلتزم بكلمته، علي الرغم من أنني لم أقم بأي فعل إلا بموافقته، أو على الأقل تمثّل موقفه في ذهني ثم تقليده. فهو ظل طوال السنوات، التي أعقبت موت أستاذ الرسم، منارة لي. وها هو الآن يكافئني بتحميلي مسؤولية كل الأفعال "القبيحة" التي جرت منذ تسلم المنظمة الحكم؛ أما هو فكان الملاك الذي استغل الأشرار أمثالي طيبته فراحوا يعبثون بالبلاد وأهلها"

* * *

حضرتها لحظة عينا ''المبدع''، لتختفيا فتحل محلهما عينا ''توماس''. كم تتشابه أجفانهما من دون نظارات.

حال وصولهما إلى الشقة أراد ''توماس'' المغادرة: "لا بد أنك بحاجة إلى الراحة" لكنها قالت بنبرة صادقة: "إذا أحببت أن تشرب الشاي فسأشاركك" وعندما همت بالذهاب إلى المطبخ بادر متمتما: "أستطيع أن أعمله. أقترح أن تتمددي في الفراش وأنا سأجلبه لك" شعرت بالحرج وهي تخطو صوب غرفة نومها، كانت تراه بعينها الثالثة واقفا وراءها يراقب خطواتها الشبيهة بخطوات طائر البطريق. ألم يكن أفضل لو أنها تركته يذهب مباشرة؟

جلس على كرسي مجاور لسريرها، في وقت راحت هي تتلمس تموجات بطنها. قال وهو يتابع تبدل التعابير على

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وجهها: "هل تشعرين بأي ألم؟" "إنها رفسات الطفل. هل تريد أن تتلمسها؟" تقدم بحذر غير مصدق عرضها. قال مبتهجا: "إنها قوية جدا. يجب أن تتوقعي قدومه في أي لحظة". "يبدو أنك مررت بتجربة مماثلة" قالت مداعبة، ولعل ذلك شجعه للمضي خطوة أبعد: "هل يمكنني الإنصات إلى نبضاته؟" ولم تثر خطواته المتعثرة أو تقاطيع وجهه أي ممانعة في نفسها. قالت آمرة: "انزعْ نظارتيك أولا"

خنقت ضحكة وهي تكتشف أن لعينيه لونا أزرق أخفاه زجاج نظارتيه السميك. تستطيع أن ترى الآن الأجفان السميكة التي رسمت، مع النظرة الجنائزية وضآلة الأهداب، عيني ضفدع بامتياز.

برزت أمامها عينا ''المبدع'': الفارق الوحيد بينهما وبين عيني ''توماس'' هو في النظرة نفسها. مع مدير الأمن العام هناك ابتسامة ساخرة خفية؛ ومع ''توماس'' هناك تضرع طفولي خفي للعناية به. ولعل ذلك كان وراء تمرير أصابعها فوق شعره نصف الأشيب حينما كان يضع رأسه على بطنها المكشوف.

لكن مبادرتها اللاإرادية التي ندمت عليها فورا لم تدفعه للمضي أبعد. قال ''توماس'' وهو واقف بجانب سريرها بنبرة حازمة: سأتركك الآن لترتاحي. وقبل أن تجيبه بهزة رأس خفيفة تكفي لإطلاق خطواته صوب الباب الخارجي، غمرها شعور بالعزلة. وكأن خروج ''توماس'' الوشيك أيقظ في نفسها الخوف الغريزي الذي ظل يزحف إليها كلما تقدم حملها، يعززه عجزها الكامل عن إخبار أهلها به. خلال فترة زيارة أبيها لها ظلت تشد بطنها بنطاق عريض. وحينما سألها ذات

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يوم: "كيف كانت أيام السجن؟" كان جوابها كافيا لجعله يرفع عينيه عن الأرض: "اطمئن لم يحدث شيء سيئ لي" اختلقت كذبة أخرى لإعادة الكبرياء إليه: "أنا جئت إلى لندن بسبب ضغوط منظمة العفو الدولية. ولم أكن الوحيدة"

قالت بنبرة محايدة تخالف توقها الخفي بعدم مغادرة ''توماس'': "لمَ لا تبقى اليوم هنا؟"، ولعل ذلك العرض فاجأه قليلا، فانعكس على لون بشرة وجهه. قال مفتعلا مشاكستها: "أنا لم أتعود النوم في غرفة الجلوس" "يمكنك أن تنام هنا" ثم راحت تضرب بباطن كفها الأيمن على الفراغ لمجاور لها.

* * *

تسترجع ''حياة'' ليلتها الأولى مع ''توماس'' كلما حضرها سؤال من هذا النوع: كيف أحببتِ شخصا أخرق مثله؟

كان مضطجعا بجانبها، حريصا كل الحرص على تجنب مس جسدها، في وقت راحت أنفاسها تتصاعد تحت ضغط حملها. لكنها مع ذلك شعرت بنوع من الانفراج غير القابل للتعريف. إنها المرة الأولى التي تتلمس فيها حدود جسدها عبر كائن آخر؛ كأن ظهور ''توماس'' المفاجئ في حياتها أخرجها من طبقات العزلة السميكة، ليعيد ربطها بأسرة أخرى أكبر من أسرتها.

ظلت خلال أشهر حملها الأخيرة متخوفة من قدوم أحد أفراد عائلتها. وحينما أعلن أخوها الأكبر عن رغبته بزيارتها جاء جوابها حاسما: أنا الآن غارقة في الدراسة. سأكون متفرغة تماما بعد تسعة أشهر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

حضرها حلم خال من أي صورة: كان مجرد دمدمة أصوات جعلها تظن أنها ما زالت في القلعة فاستيقظت فزعة. للحظة تراءى لها ''المبدع'' مضطجعا بجانبها فانكمشت أنفاسها، لكن شذرات الضوء المتسربة من الممر كانت كافية لتعيدها إلى الواقع. هل امتدت يدها دون إرادة منها لتمسكه؟ انكمشت على نفسها بقوة، ساحبة جسدها حتى حافة السرير، بينما ظل ''توماس'' متظاهرا بالنوم.

أصخت السمع وسط العتمة إلى نشيج غريب قادم من نقطة مجهولة. وحينما تلمست عينيها اكتشفت تدفق دمع غزير منهما، يتعارض مع فرح جارف غمرها كليا: كأنها للتو تشاهد، وسط كوكب مهجور تماما، علامة على وجود حياة بشرية. ها هي تتلمس كيانها للمرة الأولى، بدلا من أن يكون ذائبا في الأثاث المحيط بها. وحالما لامست أصابع ''توماس'' كتفها وجدت جسدها ينجذب صوبه بقوة.

دفنت وجهها في صدره نصف العاري، بينما راحت عضلات جسدها تختض تحت إيقاع نحيبها الصاخب. لا بد أنها مضت تشكو مما لحقها هناك في القلعة بصوت مرتفع، مما دفع ''توماس'' يربت أكثر فأكثر على ظهرها مُطَمْئناً.

ظلت منذ قدومها إلى لندن حريصة على كبت ذاكرتها. كأن كل ما مر بها يخص شخصا آخر غريبا عنها، حتى حينما يستيقظ جسدها تحت وطأة آثار الألم القديمة. ها هي تشاهد بوضوح وسط أنفاسها المتثاقلة تلك القاعة التي دُفعت إليها لأول مرة.

فاجأتها أضواء النيون الساطعة وهي تخطو ببطء، ولم تكن لتعرف بالضبط ما يجب فعله. فعقلها تقلص أكثر من السابق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

على نفسه، تاركا إياها وحدها. جاءها صوت من بين صف الرجال الجالسين أمامها: " تقدمي، لا تخافي" ولعل الضحكات التي تعالت بينهم انتقلت إلى عضلات وجهها فبدت كأنها تشاركهم الضحك. اهتزت الأرض تحتها، قبل أن تجد جسدها يتدحرج أمامها. ولم تشعر بألم الصفعة إلا بعد أن صرخ المرافق بها: "ما زلتِ، عنيدة أيها العاهرة. حتى أمام سيدنا".

أعادتها تلك الضربة لثوان قليلة إلى رشدها: كانت عارية تماما أمامهم. ومنذ دخولها إلى القاعة ظل مرافقها يلاعب وركها. لكن هوسا واحدا سيطر عليها، جعلها تنسى كل شيء حولها: أن تخفي ثدييها برسغيها المتعاكسين فوقهما. ولعل ذلك كان سبب ضحكهم، فهناك ما بين ساقيها كان المشهد كاملا أمامهم.

تحت وطأة أوامر مرافقها نهضت على ركبتيها. كان ذراعاها مشدودين فوق صدرها، بينما هبطت عيناها برضا صوب عانتها، التي منعت عيون العقبان من اختراق جرحها. لم تنتبه لخط الدم المتسرب من أنفها. كانت أذناها متحفزتين لالتقاط أوامر مرافقها، حينما جاءها صوت هادئ لم تسمع له مثيلا في القلعة من قبل: "اتركها" أردف بعد حلول صمت كامل داخل الردهة: "اذهب واجلب لها بطانية"

* * *

"ماذا يجب فعله إذا أصبح أقارب الفرد كابوسا متواصلا له؟ الهروب من وطنه، أو التخلص منهم؟

لم يكن أقاربي قادرين على رفع إصبع ضدي. بل هم كانوا على استعداد كامل لتنفيذ أي طلب لي. مع ذلك فإن وجودهم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كان يذكِّرني بطفولتي المزرية. تصوري ما يعنيه للطفل حينما يبدأ بامتلاك أول درجة من الوعي ويبدأ بالاستفسار من أمه: أين أبي؟ فيكون جواب الأم: ذهب إلى الجنة. ومن هذا الذي يزورنا من وقت إلى آخر؟ إنه عمك. إنه ولي نعمتك.

"ولم اكتشف الحقيقة إلا وأنا في سن العاشرة: عمي هو ليس عمي. هو ابن عم أبي. وهو يحضر إلينا كل أسبوعين أو ثلاثة محملا بعطاياه. وقبل كل عيد نذهب إلى قصره أنا وأمي. هي تنصرف إلى أعمال البيت وأنا أقضي الوقت في خدمة أبنائه. ولم أنزعج يوما من نظراتهم المزدرية أو سخريتهم وشتائمهم. كنت أعرف موقعي.

"جاء اكتشافي للحقيقة متأخرا: كان عمري عشرة أعوام. عدت إلى البيت باكرا من المدرسة. كان معلمنا مريضا. وحينما تسللتُ إلى البيت، سمعت ضحكات ماجنة لرجل وامرأة قادمة من حجرة نوم أمي: هل هناك ضيوف عندنا؟

" من تتصورين أنه كان في البيت؟ هل يمكن أن تكون أمي التي لا يثير مظهرها إلا الشفقة أو عمي الغارق في ورعه وتقواه؟

"عندما استتب الحكم للمنظمة. بدأتُ أشعر بالضيق: هناك في مكان ما أكثر من شخص قادر على تشويه صورتي أمام رجالي الذين يعبدونني. هل سأتمكن من الحفاظ على موقعي في أنفسهم وأنا لدي أولئك الأقارب؟ هل يمكنني أن أضمن عدم قيامهم بتشويه سمعتي بين أعداء المنظمة؟

" لكنني كنت محظوظا تماما بمساعدي، الذي لم يكن حريصا على تنفيذ أوامري فحسب، بل حتى تلك الرغبات التي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أخشى التصريح فيها لنفسي. وكم تنفستُ الصعداء حينما علمتُ باختفاء الأقارب تماما، من دون أن أكون طرفا في ذلك"

* * *

تابعت عبر نافذة المطبخ مرور قطار حمولة، بدا لها من الطابق الرابع كتلة وهمية غارقة في سحابة ضوء شاحبة، تسربت دمدمته إليها كذبذبات التقطتها جدران المبنى.

كم يبدو عالم ''المبدع'' عبر أوراقه عاديا، بعد مرور أعوام عليه، وبعد أن محيت كل معالمه. قال لها أبوها إن القلعة أزيلت بالجرافات، وفي مكانها أقيمت حديقة عامة. "والمقبرة؟" سألته.

"أي مقبرة؟ لم يسمع أحد بوجودها. هل أنت متأكدة؟"

"لا، كانت هناك شائعات فقط"

كان ''المبدع'' يسميها بـ "الجنينة". "هل تحبين أن تري أفضل إبداعاتي؟" كان قد مضى عليها أسبوع منذ نقلها من الزنزانة إلى قصره. وهناك تغير كل شيء: عشرات الخدم تحت تصرفها على مدار الساعة؛ مصففة شعر ومدلكة وممرضة.

ظنت أنه سيريها مرسمه، إذ ظل يكرر خلال الليالي التي يقضيها معها أنه رسام، وهي تحت وطأة هلع مكمود وعرفان مطلق بالجميل ظلت تهز رأسها مؤيدة لكل ما يقوله. أطل أمامها سور أبيض بدا لها كأنه يكوّن دائرة، ومن بوابة خشبية مزخرفة بالنقوش والخطوط الكوفية عبرت معه إلى الداخل.

بدت على وجه ''المبدع'' حالة غريبة: مزيج من استرخاء

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وألفة شديدين جعلاه يبدو وكأنه يدخل إلى معبد ما. قادها عبر طرق ضيقة تحف جوانبها شجيرات السرو، ووراءها انتشرت حجيرات رخامية ذات قباب زجاجية، لكل واحدة منها لونها الخاص. وحول كل حجيرة نمت شتلات من القرنفل والجوري والسوسن، في أشكالا هندسية مختلفة.

لمحت رقما مثبتا فوق باب كل حجيرة، ومن وراء نوافذها الصغيرة كانت هناك أضواء خافتة تتراقص، جعلها تخمن أنها شموع. أدركت في تلك اللحظة فقط أنها في مقبرة، فشعرت كأن صرخة عارمة انطلقت من أعماقها قبل أن تتكلس فوق حنجرتها. وما زاد في ذعرها مشهد ''المبدع'' الذي بدا وكأنه في حالة جذلة. ها هي تراه يقف أمام كل حجرة قليلا فيبلّغ ساكنها السلام بعاطفة وورع غامرين.

استرجعت أنفاسها بعد خروجهما من "الجنينة"، على الرغم من ارتعاش خلاياها، فراحت تشد ذراعيها على صدرها منعا من الانكشاف أمامه. التفت إليها، ظن أنها تريد أن تسأله عن هوية الموتى: "إنهم من نزلاء القلعة... الشجعان منهم فقط"

سحبت الدفتر المفتوح من سريرها: "كان علي أن أتخلص من مساعدي. معه أصبحت أسرار كثيرة جدا. ولم يكن إيجاد السبب عسيرا: من قال لك أن تشطب أقاربي؟ صحيح أنني اشتكيت لك قليلا منهم، لكن هذا لا يعني أنني أريد أن يصيبهم أي أذى. ماذا سيكون رد فعلك لو أنني فعلت نفس الشيء بأقاربك؟

"تعلمتُ من الزعيم هذا المبدأ: الناس هم أدوات لتحقيق هدف ما، وحال الوصول إليه يجب التخلص منهم. ولم أظن يوما أن هذه القاعدة ستنطبق علي أيضا. كنا أكثر من أخوين"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

فـي الفـراش، التفـت ''المبـدع'' إليهـا فجـأة، فأفزعتهـا تلـك الغضون الثلاثة التي اعتلت جبينـه: هل حـان وقت انتقالها إلـى المقبرة؟ وكأنه كان يقرأ في تلك اللحظـة مـا يـدور برأسـها علـى الـرغم مـن الضـغط علـى فكهـا الأسفل كـي ترسـم ابتسـامة علـى غمازتيها الباهرتين.

"هل تعرفين أن صورة الجنينة حضرت لي في حلم أولا؟"

"كيف؟"

" يجب القول إنه حلم ظل يتكرر كل يوم، ليقطع علي نومي. فكـرت آنـذاك: لمـاذا لا أحولـه إلـى واقـع بعـد تزويقـه بزهـور ونباتات جميلة. وحالما انتهيت منها اختفى الحلم"

"والأرقام؟"

"تقصـدين الأضـرحة؟ إنهـا للأخـوة الأعـداء الـذين نفشـل فـي سلب إرادتهم وجعلها فـي خدمتنا فنضـطر إلـى سلب أرواحهم. إنهـا نـوع مـن التكـريم لهـم. هـل تصـدقين إذا قلـت لـك إنهـم أصدقائي الوحيدون؟"

غمره صمت مهيب. بدا لها، بعينيه شبه المغمضتين، وكأنـه يستحضر ذلك الصنف المتميز من ضحاياه، بينمـا راحـت يـده اليمنى تلامس أجسـادهم الهامدة فـي الفراغ. عـاد صـوته بنبـرة حزينـــة: "تصـــوري أن وزيـــر الصـــحة طلـــب منـــي تزويـــده بأعضـائهم لكننـي رفضـت. أنـا لـن أقبـل بتشـويه جسـد أي مـن هؤلاء الأبطال"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

القسم السابع

بيداء في متاهتها(2)

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

استيقظت فزعة تحت وطأة كابوس ظل يتكرر بأشكال مختلفة. كانت الغرفة غارقة بظلمة مطبقة جعلتها لحظة واحدة تشعر بمجهولية مكان وجودها، لكن شخير ''عبدل'' المنتظم ورائحة الجنس المرشوش فوق جسدها وملابسها أعادا شدها إلى الحاضر. بدأت صور من الكابوس تتقافز فوق سطحي عينيها المفتوحتين على السقف المظلم: ها هي قطع الشطرنج وجها لوجه، بأحجام بشرية حقيقية، وعلى الكرسي الملكي الأسود جلست ''بيداء''، وفي الطرف الآخر جلست ''شهرزاد'' على الكرسي البني. بدأت ساحة الشطرنج قاعة تنتمي إلى القرون الوسطى، ووسط المقاتلين تمكنت من مشاهدة فارسين يرتدي أحدهما ثيابا سوداء ويمتطي صهوة حصان أسود أما الآخر فكان على ظهر حصان أشهب بملابس فاتحة اللون، وحينما تمعنت النظر إليهما تمكنت، على الرغم من قناعيهما، أن تكتشفهما: إنهما ''عبدل'' و''صالح''، ومن حافة القاعة البعيدة ظلت ''شهرزاد''، التي طفحت على وجهها علائم الغضب، تهز يدها مهددة لها.

لا بدّ أن حادثة قتل وقعت دفعتها إلى الصراخ وقبل أن تنهض من كرسيها حضر رجال شرطة بريطانيون صوبها، وحينما حاولت الهروب اكتشفت أنها محاصرة بهم، ولم ينقذها من قيودهم سوى الاستيقاظ، مع ذلك ظل السؤال يدور دون إرادتها في رأسها: مَن قتل مَن؟ على الأكثر كان ''عبدل'' هو

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الذي شج رأس الفارس الآخر. بل في تلك اللحظة راودها شعور بأن الشطرنج لم يكن سوى حجة، وأن اللعبة تغيرت لتصبح صراعا بين الفارسين للحصول عليها، بالمقابل لم تكسب بنت عمتها منهما سوى الإهمال الكامل.

راودها آنذاك شعور بأن ''عبدل'' تمكن من الانسلال إلى أخفى خفايا سريرتها التي لا تكشف عن نفسها إلا لماما، لتفجر لديها صداعا جانبيا حادا. لم يتغير أي شيء في حياتها منذ زيارة ''شهرزاد'' و''صالح'' الأخيرة لهما، فـ''عبدل'' ظل مواظبا على حمامه اليومي الأثير الذي تعقبه ممارسة للجنس تحت نثار الضوء الأحمر الخافت، الذي يبثه مصباح الطاولة الأحمر. بالمقابل ظلت ''بيداء'' محتفظة بطريقة مشاركتها في عمل الحب: إنها هناك واقفة على بعد أمتار من المشهد تراقب بحيادية ما يجري أمامها، ها هو يخلع ملابسها الداخلية التي اشتراها بنفسه لها وفق توصيات أشهر مجلات الموضة الفاقعة، ليمضي في خطاه الدؤوبة البطيئة صوب اقتحامها. في البدء كانت تظل ساكنة كجثة بانتظار انتهاء جلسة التعذيب، لكنها حينما اشتكت لأختها الكبيرة بحياء شديد قالت لها الأخرى غامزة بطرف عينها: "تظاهري.."، ووفق إرشاداتها راحت تتلوى تحت أطراف ''عبدل'' الضاغطة مانحة إياه رضا ومسرات إضافية جعلته يكف عن نقدها والسخرية بها. لكن ''بيداء'' تعلمت الانسحاب شيئا فشيئا عن جسدها تاركة إياه وراءها ليؤدي طقوسه الجنونية، ومع إغماض عينيها كانت عينها الثالثة تقودها إلى السقف لتظل هناك مجللة بملابس بيضاء تراقب المشهد الغريب عن كثب.

يمكن القول إن شعورا واحدا تسلل إليها دون إرادتها بعد مغادرة ''شهرزاد'' و''صالح'' بيتها قبل أسبوعين: هل يمكن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تسميته شعورا بالإنارة؟ أن تكون قد انتقلت من ظلمة مزمنة إلى بقعة مضاءة دائما حتى وسط ظلام الليل؟ ها هي الآن في قلب العتمة تستمع إلى نبض قلبها الصاخب، تتلمس بشرتها الساخنة بأطراف أصابعها الباردة فيمسها تيار حسي جارف. خلف عينيها كانت تتلمس صورة لهذا الشعور اللذيذ: لحظة اللقاء بين التراب الجاف والمطر الغزير. ومن بعيد برزت عينا ''صالح'' لها، أو بالأحرى تلك النظرة المسروقة التي صوّبها نحوها لأقل من ثانية.

في الليلة نفسها ظلت تتنقل محمومة في البيت بعد دخول ''عبدل'' مملكة النوم. شعرت آنذاك بخفة جسدها، بل راودتها لحظة مجنونة جعلتها تظن أن قدميها مرتفعتان قليلا عن الأرض، لكن الشعور بالذنب تسرب إليها: كيف سينظر الأب إليها لو علم بحالها؟ هل سينعتها بخفة العقل ؟ بالانحطاط؟ ما الذي سيحدث لها لو تكسرت الصورة البهية التي سيأخذها الأب معه إلى القبر عنها؟ مضت إلى الحمام لتفتح ماء الدش البارد على رأسها وجسدها، أفرغت ما في معدتها من أحماض صفراء، ثم عادت للاستحمام ثانية، وعند تسللها إلى السرير ظهرت تلك العينان المتلصصتان الوديتان لها لتضعانها مرة أخرى في إحداثيات الزمان والمكان. أو بصيغة أخرى، في نقطة الضوء، في نقطة الاتجاهات الأربعة، في نقطة الوجود.

* * *

لكن حالة الثمالة المفعمة بمشاعر الذنب تلاشت من روحها عندما أخبرتها أختها الكبرى عبر الهاتف عن موت الأب. في البدء، لم يترك النبأ الذي سمعته عصرا أي تأثير عليها، إذ ظلت منذ عودتها من بغداد تتوقعه كل يوم، بل انتابها شك بعد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مرور كل ذلك الوقت ببقاء أبيها حيا. أضافت أختها: "لم يتعذب أبدا، وظلت الابتسامة على وجهه مثلما كانت دائما حتى بعد الوفاة"

واصلت ''بيداء''، كالعادة، تأدية ما تبقى من واجباتها العائلية، بل حتى أنها ذكّرت ''عبدل'' بموعد استحمامه اليومي، بعد ذهاب الأطفال إلى غرفهم. لكنها استيقظت فزعة من دون سبب وسط الليل. بررت لنفسها ذلك الهلع المفاجئ إلى الوهم الذي يتسرب إليها أحيانا أثناء وقت النوم من أنها موشكة على السقوط من حافة جرف شاهق، لتكتشف أنها لم تكن إلا على حافة السرير، لكنها هذه المرة كانت في موقع آمن، وحينما أغمضت عينيها تسربت إليها صورة أبيها لحظة إمساكه بكفها قبل عودتها إلى لندن. هل كان يريدها أن تبقى معه؟ هل هو اعتذار عن خذلانه لها؟ في تلك النظرة تلمست من جديد شعور الأب الذي تشاركه فيه: غربتهما العميقة عن بقية أفراد العائلة، لا على صعيد الأفكار بل على صعيد المزاج. كان كل أخوتها يشاركون الأم في تلك الطبيعة الفجة التي كانت تفتخر بها وتطلق عليها تعبير "القوة". ومع هذه الصفة كانت تترافق خصائص مكملة أخرى: حدة الطبع وتقلباته المتطرفة، ضآلة الرقة والميل الشديد للاستئثار بالأشياء. على العكس منهم كانت هي والأب الطرف النقيض. وإذا كانت ''بيداء'' تتلمس أحيانا شعور الأب بالندم لزواجه، عبر تلاقي النظرات بينهما، فإنها كانت، في الوقت نفسه، تتلمس ذلك الشعور الآخر المتخفي في أعماق روحه، من أن كل الشقاء الذي حصده من زوجته كان ضروريا كي يكسب مرآته التي يرى نفسه بها: ''بيداء''.

مع ذلك، لم يكن الآخرون يمنحونهما وقتا طويلا للتواصل،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

فحالما تفتح دفتر الواجبات لتريه ما أنجزت وما كتبت معلماتها من ملاحظات مشجعة حتى تقتحم واحدة من أخواتها الجلسة لتجذب انتباه الأب بقوة. كان يردد ضاحكا: "نسخة طبق الأصل عن أمك،" وإذا تسربت كلماته إلى مسامع الأم فإنها ستحتج من مكانها: "وما الخطأ في أمها؟" ليجيب الأب مستكينا: "إنه مديح لها بالطبع"

ظلت ''بيداء'' مقتنعة أن موافقة أبيها على إبقاء الخطبة مع ''عبدل'' بعد انقطاعه الطويل عن التواصل معها، كان تحت تأثير الأم. إذ هو لم يفعل طوال حياته شيئا سوى التنازل عما ينوي القيام به إن عارضت ذلك زوجته، تجنبا للجحيم الذي كانت قادرة على خلقه للجميع. وحالما يتراجع ستبدل سحنتها بشكل درامي لتجعلهم يتنفسون الصعداء مرة أخرى.

تسربت إليها قناعة آنذاك بأن حرص أمها الشديد على تزويجها من ''عبدل'' بعد انقطاع أخباره الطويل، هو لإبعادها عن الأب، خصوصا بعد مغادرة كل أخواتها الأربع البيت، وانتقال التوأمين إلى البصرة للدراسة في جامعتها. إذ أصبح ممكنا لهما أن يكونا وحدهما معها، ولا بدّ أنهما سيشكلان حلفا ضدها قوامه الصمت المشترك والتواطؤ.

جذبها النوم إلى أسره ثانية ليظهر لها أبوها هذه المرة مرتديا بدلة ناصعة البياض، كان جالسا على كرسيه الهزاز تحت عريشة شبيهة بتلك التي كانت في بيتهم، لكنها بدت أصغر وأحاطتها جدران عالية جعلت السماء تبدو كأنها فجوة ضيقة. كم تراءى لها معافى، تنضح البهجة من عينيه. راودها الشك بما كانت تراه، تحت وطأة نوم خفيف، أتاها قريبا من الفجر، لكن صلابة الأشياء حولها أقنعتها بحقيقة المشهد. تندفع

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بضع خطوات لتصبح تحت ظلال ورق العنب، تتلمس العناقيد الناضجة فوق رأسها، تتذوق طعم حبيبات منها، فيمتلئ فمها بحلاوة رائقة موشاة بخيط ليموني واه. قبل أن يخرج أبوها من باب موضوع على الجدار المقابل لها، فتح كفه لها لتظهر صدفة بيضاء متكاملة في شكلها الحلزوني: "هذه لكِ" لكنه توقف وسط المسافة الفاصلة بين العريشة والجدار ليلتفت نحوها: "لا تغلقي الباب، سأعود هذه الليلة" وحينما حاولت أن تطلب منه التوقف لتلحق به اختفى صوتها، مما دفعها لمحاولة الصراخ من دون جدوى.

استيقظت على أنفاس ''عبدل'' الثقيلة. كانت عتمة السماء البارزة من الفجوة القائمة بين الستارتين قد شفت، لتتلبسها زرقة داكنة. داهمها شعور غريب بالمقت لـ''سليم''، مواز للشعور بالندم على خذل أبيها، بتركه لأشهر يحتضر بين أيد غريبة عنه، بدلا من ذلك كان عليها أن تبقى إلى جانبه حتى النهاية. لكن الشعور المفاجئ تجاه ابنها البكر اضمحل بسرعة تاركا وراءه فيضا من التعلق المطلق به: إنه مرآتها الحقيقية، عبره تشاهد ضعفها فتمضي أكثر فأكثر في استسلامها، أو بصيغة أدق، في تخليها الكامل عن الفعل. فما الذي تريده أكثر من هذا الشغف الذي يعصف بها له، أو هذه الطاقة الجارفة التي تدفعها لحمايته. مع ذلك، لم تجد أي حرج في تركه مع ''عبدل'' لمدة شهر كي تجنب أهلها صدمة المفاجأة.

* * *

تجرأت أخيرا للاستفسار منه عن جرح ''سليم''. كان يقطّع لوحات خشبية تهيئة لعمل خزانات ملابس جدارية في غرف الأطفال، حينما شعر بحضورها، ألقى عليها نظرة خاطفة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بطرفي عينيه لأقل من ثانية واحدة، ثم عاد إلى منشاره الكهربائي وطاولة القطع. ظلت واقفة وسط المسافة الفاصلة بين باب الورشة و''عبدل''، مسلطة صوبه نظرة غريبة غير مألوفة عنده من قبل. قال ''عبدل'': "هذه الخزانة لـ''سليم''.. سأجعلها أكبر من خزانات أخوته وأحلى" لكن ''بيداء'' ظلت على غير عادتها صامتة. "الجو سيظل مشمسا طوال النهار.. يمكننا أن نأخذ الأطفال عصرا إلى الحديقة.. لا بد أن ''سليم'' سيفرح كثيرا."

فجأة، ارتفع صوتها حادا ومختنقا في آن كأنها كانت تتصارع مع شخص آخر يحاول خنق أفكارها: "ماذا حدث لـ''سليم'' أثناء سفري؟" بادر ''عبدل'' إلى إجابة جاهزة بعد افتعال ضحكة قصيرة: "لم يكن سوى حادث بسيط سأشرحه لك بعد انتهائي من هذا العمل" ثم راح يمرر آلة النشر بدقة فوق اللوح المستلقي على سطح الطاولة. توقف فجأة، لتظهر في عينيه ابتسامة ساخرة: "توقعتُ أن تسأليني عن الندبة عندما وصلتِ من بغداد لا بعد ثلاثة أشهر.. هل اكتشفتِها فقط الآن؟"

انكمشت ''بيداء'' على نفسها، شعرت كأنها أُمسكِت لحظة ارتكابها لخطأ فاحش، بل انبعث في تلك اللحظة شعور معاكس لشكوكها جعلها نهبا لهاجسين متعارضين: أن يكون الأب وراء ما جرى لابنهما، أو أن ''سليم'' ألحق الأذى بجسده نتيجة سهو ''عبدل'' أو المربية في مراقبتهما له.

* * *

كادت تنسى آثار الندبة في خاصرة ابنها، بعد طمأنة ''عبدل'' لها، حتى مشاهدتها لحلم تدور أحداثه داخل قصر

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مهجور ذي سقوف عالية. لم يكن هناك أحد سواها و''سليم''. كان باب كل حجرة يقود إلى حجرة أخرى: متاهة حقيقية، بدا ''سليم'' فيها متنقلا بخفة بين الحجرات، بخطى رشيقة غريبة عن طبيعته، بينما شعرت هي بإعياء جعلها عاجزة عن اللحاق به. كان ابنها يظهر في الحجرة التي تقف وسطها، لكن حال اقترابها منه يندفع إلى غرفة مجاورة، تاركا وراءه ضحكات مجلجلة لا تتناسب مع عمره. فجأة، تسرب دخان إلى حجرتها، جعلها على قناعة أن حريقا موشكاً على الاندلاع في القصر، وأن عليها أن تخطف ''سليم'' وتغادره بسرعة. أين هو الآن؟ ارتفع صوتها مرددا اسمه، لكنه ما انفك يواصل لعبة "الغميضة" معها: "أنا هنا.. التفتي إلى الوراء" كان هناك فرح غريب يعصف بها جنبا إلى جنب مع ذعر شديد: فابنها البكر بدا شديد الفطنة ومولعا بالخداع على الرغم من عدم تغير ملامح وجهه، وهذا ما جعلها أكثر تحمسا للعثور عليه قبل فوات الأوان. كان الدخان يزداد كثافة حولها والحرارة ترتفع في هواء الحجرة مما دفع العرق يتساقط غزيرا فوق وجهها. مع ذلك ظل ذلك السؤال يتردد في أنفاسها: هل من الممكن أن تفقده بعد شفائه من المرض، أن تضيع تضرعاتها للرب لحظة تلبيته لأمنيتها الوحيدة. امتزجت فجأة النار بالدخان الكثيف، مما جعل حركتها أكثر صعوبة ولم يبق لديها سوى الصراخ الذي راحت تتردد أصداءه بضحكات ''سليم'' الشيطانية.

استيقظت فزعة، هرعت لا شعوريا صوب حجرة ''سليم''. وحينما لامست بكفها جبينه فاجأتها حرارة أعادت لها الحلم الذي كادت تتلاشى تفاصيله عن ذاكرتها.

مررت راحة يدها برفق على كتف ''عبدل''، حتى استرجع وعيه. شرحت له ما طرأ لابنهما، وحينما أشارت إلى ضرورة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أخذه إلى المستشفى، انتفض من فراشه غاضبا: "إذا كانت عنده حرارة فقط، فمعناه انه مصاب ببرد.. كمّادات ودواء كَلْبول.. هذا هو المطلوب فقط" لكن نبرته اشتدت لبقائها جامدة فوق رأسه: "كأنك لم تكوني أماً لثلاثة أطفال آخرين.. إذا لم يتحسن سآخذه غدا إلى صديق صيدلاني يفهم أحسن من الطبيب.. لا تقلقي"

* * *

في اليوم الثاني اختفت الحمى، بل كان بإمكان ''سليم'' هبوط السلم وحده والجلوس في المطبخ بجانب أخوته، وإن ظل رافضا لتناول الطعام فقد عزته الأم وسيلة لجلب الانتباه. توقعت ''بيداء'' أن يتجاوز في اليوم اللاحق آثار البرد، لكن ''سليم'' ظل في غرفته حتى الظهر.

قبل دفعها الباب سمعت نحيبا واطئا، وحينما وصلت إليه فاجأتها حمرة عينيه. مررت أصابعها فوق وجهه الملتهب، وحال مسها لأذنه اليمنى، تقلصت عضلات وجهه تحت وطأة ألم شديد، فراح يبكي بصوت مختنق.

لم يكن ''عبدل'' في البيت. ترددت لنصف ساعة في أخذ ''سليم'' إلى طبيب العائلة من دون موافقة الزوج، لكن القلق ظل يتصاعد في صدرها وهي تراقب تقاطيع العذاب فوق وجه ابنها البكر. كانت تقرأ فوقه تلك الاستغاثة اللجوجة بأن تبادر إلى إنقاذه.

لم تستغرق الرحلة في التاكسي أكثر من عشر دقائق، لكنها بدت لها أطول بكثير من ذلك، وفي صالة الانتظار جلست ساعة أخرى. قال الطبيب متبرما: "كان عليك أن تجلبيه من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الصباح... في هذا الوقت، أنا أكون قد غادرت العيادة"

استطاعت ''بيداء'' أن ترى الصمغ المتكدس في أذني ''سليم'' تحت ضوء مصباح اليد الصغير الذي أشعله الطبيب تجاههما. قال بنبرة موبخة، بعد الانتهاء من الفحص، والعودة إلى سجل ''سليم'': "كان عنده مواعيد مع الاختصاصيين، قبل أكثر من ثلاثة أشهر، أنت تعرفين أنه بحاجة إلى فحوصات منتظمة للأذن والغدة الدرقية والبصر.. لا يبدو أنك أخذته إلى أي منها."

لم تنطق بأي كلمة. تذكرت أن تلك المواعيد حُددت في فترة سفرها، وكادت تلغي آنذاك سفرها إلى بغداد، لولا تعهد ''عبدل'' بالالتزام بتنفيذها، بدلا من ذلك تركه يجرح نفسه. قال الطبيب: "إنه التهاب حاد في الأذن الوسطى بسبب انغلاق قناة أوستاكي لفترة طويلة" في تلك اللحظة هاجمها قلق مصحوب بفضول عميق لمعرفة ما جرى لـ''سليم'' أثناء سفرها. قالت في لحظة نهوضه من السرير: "هل يمكنك أن تفحص بطنه.. هو آذى نفسه"

* * *

ظلت ''بيداء'' منغلقة على نفسها. وظلت الوساوس تقضم أنفاسها: ما الذي جرى لـ''سليم'' أثناء غيابها؟ أين أخذه الأب وماذا فعل به بالضبط؟ لازمها ذعر شديد على ابنها كلما اضطرت إلى الخروج من البيت وتركه مع الأب. كانت تصطحبه معها أحيانا، لكن عينيها تظلان تراقبان بخجل نظرات الآخرين الفضولية، فتظل تلوم نفسها على ضعفها: أليس بفضل هذا الاهتمام المبالغ بانطباعات الآخرين تركت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

''سليم'' وراءها برعاية ''عبدل'' حينما سافرت إلى أهلها؟ بدأت تأخذه معها أكثر فأكثر كلما ذهبت إلى مجمَّع التسوق القريب من بيتها. اشترت نظارتين داكنتين لتخفي مشاعرها عند وقوع أعين العابرين عليه، بل كان الغضب يعصف بها حينما تلمح امرأة ما تتطلع باستغراب إليه، لتردد في أعماقها: "ابنك أجمل منه، لكنه سيصبح كغيره شيطانا بعكس ابني"

أصبح الذهاب إلى مجمَّع التسوق برفقة ''سليم'' طقسا لها تكرره كل ثلاثة أيام. هناك تتركه يتحرك كما يشاء حتى يصيبه الإعياء، وتظل تشير نحو الأشياء مرددة أسماءها، حتى يتمكن ابنها من نطقها بشكل صحيح. كان عالم ''سليم'' البطيء يمتص منها تدريجيا التوتر الداخلي ليحل محله رضا وتسليم غامضين، وفي ذلك السوق كانت تنمو علاقتهما كعاشقين لا ينتبهان إلى مَن حولهما.

كانت ''بيداء'' قد نسيت زيارتها الأخيرة للطبيب حينما وصلت رسالة منه موجهة لأبوي ''سليم''. ولم تتضمن سطورها القليلة أي تفاصيل، عدا دعوتهما لزيارته برفقة ابنهما. استرجعت، وللحظة واحدة، مشهد الطبيب وهو يفحص آثار الندبة فوق خاصرة ''سليم'': "إنها، على الأكثر، أثر لعملية جراحية بالكِلية، وليس كما تقولين بسبب لعبه بسكين" انتقل إلى ملف ''سليم'' وراح يقلّبه بعناية: "ليس هناك أي أعراض مرضية من قبل لكليتيه.. هل أجريتما له عملية في الخارج؟" وحينما واجهته بصمت كلي قال متأففا: "علي أن أرى الأب أيضا.. اعملا موعدا قريبا مع السكرتيرة" لكنها بدلا من إخبار ''عبدل'' بزيارتها للطبيب ركنت إلى الصمت.

أثناء إعادتها لقراءة الرسالة، حضرت كلمح البرق، أمامها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

صور عديدة: ''عبدل'' غاضبا، ''عبد الرؤوف'' وابنته الشاحبة وزوجته المتأففة دائما. تسرب إليها شك غير محدد، لكنها أبعدته حالما أطل وجه صديق زوجها الوديع المُطمْئن ثانية ليبعد عنها تلك المخاوف المجهولة التي غزتها لثوانٍ قليلة. كم شعرت بألفة شديدة مع ''عبد الرؤوف'' أثناء زيارته الأخيرة لهما، استرجع ''عبدل'' موقعه في مخيلتها. ظهر لها هذه المرة، وهو يكز على أسنانه ساخطا، حال وقوع الرسالة بين يديه. ها هي تراه يندفع في سيل من الأسئلة الممزوجة بالسخرية والحنق الشديد:

" لماذا لم تنتظري عودتي لنذهب معا إلى صديقي الصيدلاني؟ ألا تعرفين أن الأطباء هنا ليسوا سوى أميين لا يجيدون إلا المبالغة بكل شيء؟ ماذا قلت له؟ تكلمي."

انتابها شعوران متناقضان: شعور بالتشفي جعلها تضحك بهستيرية وهي ترى ''عبدل'' محاصرا في الزاوية، وشعور بالذعر منه بعث في أوصالها البرد والقشعريرة وجعل أنفاسها تضيق في صدرها.

سمعت خشخشة المفتاح بالباب فتصاعد خفق قلبها، وقبل أن يدخل ''عبدل'' البيت دفعت بالرسالة إلى جرّار طاولة الزينة، ثم راحت تتظاهر بتمشيط شعرها أمام المرآة.

كادت ''بيداء'' تنسى تلك الحادثة حينما تساقطت رزمة من الرسائل عبر فتحة الباب المخصص للبريد، فدفعت بتسارع نبضاتها. انقضّت صوبها، وقبل أن يعود ''عبدل'' من ورشته استلت تلك الرسالة الطبية التي ميزتها من لون المظروف البني ودفعتها تحت الكنبة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بعد خروج زوجها من البيت التقطت الرسالة لتفتحها بحذر. كانت من المشرفة الصحية، وتطلب فيها ترتيب موعد للقاء ''سليم''، لإجراء الفحوصات الضرورية له والتحدث مع والديه حول احتياجاته.

* * *

كان صباحا خريفيا متألقا على غير عادته، دفع الشحارير القليلة في الحديقة إلى الغناء بإصرار. وعلى السرير فرشت الشمس ضوءها بسخاء، كأن الطبيعة قررت الاعتذار عن أسبوع مزرٍ من العواصف وسيول الأمطار الغزيرة. كانت زرقة السماء الخالية بشكل مذهل من الغيوم توحي بأزليتها. ولا بد أن ذلك الطقس كان وراء انشراح ''عبدل'' الذي اقترح أخذ الأطفال إلى البارْك. قالت ''بيداء'' مقترحة: أنا سأذهب مع ''سليم'' إلى المجمَّع لشراء بعض ملابس الشتاء للصغار.

اندفع طفلها راكضا بحماسة في تلك الأروقة العريضة، موزعا ابتساماته على جميع الأطفال. "ما اسمك؟" و قبل أن يجيبه أي منهم، كان يردد بحمية: "أنا ''سليم''" بل انتقل حال المرح عنده إلى ''بيداء''. ها هي تجد نفسها تركض وراءه منشرحة بلا مخاوف، وحينما تمكنت من إمساكه أخيرا كانت ضربات قلبه تخفق بقوة.

لحظة خروجها من المجمَّع المغطى السقف فاجأتها كثافة الغيوم التي جعلتها تشك بحقيقة الصباح المشرق. لم تتجاوز الساعة آنذاك الثالثة بعد الظهر لكنها شعرت، مع العتمة التي تغلغلت في الفضاء، بمرور وقت طويل عليهما منذ مغادرة البيت.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

في طريق عودتهما بدت علائم التعب على ''سليم''، لكنه ظل مع ذلك يتابع وجوه ركاب الحافلة الآخرين بتوق، ومن وقت إلى آخر كانت عيناه تنتقلان إلى الرصيف لتلتقطا شيئا ما مجهولا عليه: "ما هذا؟" أو يعود إلى عزلته دافعا بإبهامه إلى فمه، فتسرع لحرفه عن مسعاه: "ماذا أكلتَ في المطعم ؟" أو "ما لون حذائك الجديد؟" وخلال تلك اللحظات تكون قد مسحت عن حافتي فمه اللعاب ومررت برفق أصابعها فوق خصلات شعره الخفيف.

* * *

لكن انقباضا مفاجئا تسرب إليها لحظة تدويرها للمفتاح بقفل الباب الخارجي. كانت قبل لحظات تعيش فرحة خالصة لتمكن ابنها من تمييز مدخل حديقة البيت الأمامية بعد أن تركته يسبقها ببضع خطوات، بل حتى راودتها الرغبة في إخبار ''عبدل'' عن إنجاز ابنهما الجديد.

تراءى لها عند دخولها المجاز القصير أن الصغار ما زالوا في الحديقة العامة، لكنها لمحت من حجرة الجلوس ظهر ''عبدل'' وقذاله. كان جالسا وراء الجدار الزجاجي الفاصل بين الحديقة وحجرة الطعام. لا بدّ أن الأصوات تسربت إلى سمعه، فالتفت إليهما. بدا لـ''بيداء'' آنذاك غريبا: كان وجهه يحمل اضطرابا لم تجد مثيلا له من قبل، وما زاد من غرابة ملامحه، ذلك الزجاج المضبَّب العازل بينهما، مما دفع نبضات قلبها إلى التسرع تحت وطأة خوف غير محدد.

قال ''عبدل'' بنبرة باردة، من دون أن ينتبه إلى وجود ابنه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

البكر الذي ظل ينتظر تربيت الأب على رأسه: "اتركي ''سليم'' مع الأطفال.. عندي كلام معك"

حينما هبطت ثانية من الطابق الأعلى شاهدت ''عبدل'' جالسا على كرسي في غرفة الجلوس، ويحمل بين أصابعه ورقتين. قبل أن ينطق بأي كلمة، عرفت ''بيداء'' بالأمر. إنهما الرسالتان الطبيتان اللتان خبأتهما في أحد الجرارات. كانت قبل يوم واحد على وشك أن تسحبهما للتخلص منهما نهائيا، لكن مجيء أحد التوأمين متشكيا من أخيه أنساها ما أزمعت على فعله، ولم تتذكر ذلك حتى خروجها من البيت صوب مجمَّع التسوق. راودتها رغبة بالعودة إلى البيت ثانية لتمزيق الرسالتين، لكنها اطمأنت لقضاء الأطفال ووالدهم النهار في الخارج. قال ''عبدل'': "''لبنى'' هي التي سحبت الرسائل.. أنا لم أقترب من طاولتك"

اندفع في خطاب تقريعي طويل تتخلله أسئلة غاضبة: "هل أخذته إلى الطبيب من دون إعلامي؟ هل هذا ما تقوم به الزوجة المخلصة لزوجها: طعنه من الخلف؟ كيف تذهبين إلى المشرفة الصحية لوحدك؟ ما الذي قلته لها؟ ماذا سأفعل الآن بعد انقضاء كل هذه المدة على الرسائل؟"

التزمت بالصمت. كان صوت زوجها يصلها متقطعا، وعلى إيقاعه اندفعت دموعها بانتظام فوق عينيها، لتمتص تدريجيا مشاعر الرعب التي سكنتها في البدء والتي جعلت جسدها ينتفض في حركة لا إرادية. تجمعت من نقطة مجهولة في أعماقها قوة راحت تنمو لتتحول إلى كلمات راحت تبعثرها وسط جملها المفككة ووسط هزيمتها: "الطبيب قال إنها عملية جراحية.. أين أخذته أثناء غيابي؟... ماذا فعلت له؟"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

انتابها شعور عميق بالهزيمة. كأنها في تلك اللحظات تسلمت مكافأة مجزية عن كل خياراتها الحياتية، أو بالأحرى عن عدم خياراتها. ولم تحضر صورة الأب إليها لتنجدها حينما ذهبت إلى الحمام بل صورة ''سليم'' وهو يوزع عباراته الغامضة على زبائن المجمَّع العابرين.

* * *

قد لا يكفي القول إن ''سليم'' كان مرآة ترى ''بيداء'' ضعفها فوق سطحها؛ بل قد يكون العكس صحيحا أيضا: إنها ترى قوتها منعكسة على تلك المرآة. كأنها ظلت منذ سنوات طفولتها تكسب تدريبا متواصلا في التضحية للآخر. لكن الآخر يجب أن يكون في وضع أضعف منها؛ أن يكون حقا في حاجة إليها. في مراهقتها كانت تتسرب إليها أحلام اليقظة وهي ترى نفسها وسط مستعمرة جذام كان الأب قد تحدث عنها يوما. هناك تراءى لها أنها رئيسة ممرضات، معنية بأحوال المرضى، فبدلا من إهمال السلك الصحي الذي ذكره الأب لهم، حققت عناية فائقة بهم، جعلها تكتسب شهرة كبيرة. وفي اليوم الذي أراد رئيس الجمهورية أن يلتقي بها لمكافأتها، أصيبت بالجذام. ولم يكن انتقال العدوى إليها إلا بسبب إهمالها للإرشادات الصحية واحتكاكها المباشر بالمرضى من دون استخدام قفاز أو قناع. قبل استيقاظها من حلم اليقظة شاهدت نفسها مركونة في غرفة خاصة للحجر الطبي.

بعد ولادة ''سليم'' ووصول خبر إصابة أبيها بأول جلطة قلبية، ظل حلم يقظة قصير يطوف في مخيلتها من وقت إلى آخر: كانت تشاهد نفسها في شقة صغيرة بلندن، ولم يكن يعيش معها سوى الأب و''سليم''. في تلك اللحظات المكثفة كانت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تعيش الجذل بأقصى تجلياته. لكن ولادة التوأمين و''لبنى'' منحت هذا النوع من الأحلام مرارة الشعور بالتقصير، فتخلت عنها تدريجيا.

* * *

راودتها فكرة الهرب إلى بغداد مع ''سليم''، أثناء متابعتها لحركة ''عبدل'' المضطربة، بين طابقي البيت وورشته والحديقة، لكن استرجاعها لصورة أمها العابسة وهي توبخها لترك أسرتها وراءها دفعها للانكماش أكثر فأكثر على نفسها. ستقول لها إنها جاءت للزيارة فحسب؛ لن تخبرها أنها جاءت لتبقى شهرا واحدا حتى تمر الأزمة بسلام وتعود إلى بيتها. ومع تعمق قناعتها بالفكرة، راحت المعرقلات تتسرب إلى ذهنها كأعشاب ضارة: ها هي ترى أخواتها بصحبة أطفالهن الطبيعيين يتحلقن حول طفلها، وعلى وجوههن الاستغراب والسخرية، كأنهن يقرأن عبر عيني ''سليم'' الزائغتين فشل ''بيداء'' الذي توقعنه، منذ وقت طويل، من دون أن يصرِّحن به.

استغربت لنفاد الخبز واللحم والحليب، كان ''عبدل'' دقيقا في تعبئة البيت بالأغذية قبل استهلاك القديم منها. فهو المسؤول دائما عن التسوق، لمعرفته الفائقة بالأسواق الرخيصة لكل سلعة. حينما ذهبت إليه في ورشته، لتطلب منه شراء ما تحتاج إليه لإعداد الغداء، شاهدته جالسا على كرسيه الهزاز. كان يُمسك بين أصابعه برغيين كبيرين راح يحركهما لا إراديا. لكن الشحوب البارز فوق وجهه وحالة التهيؤ الغريب للخطر جعلاها تتراجع عما عزمت أن تطلب منه: "سأذهب إلى السوبرماركت قليلا"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

توجهت إلى حجرة ''سليم'' لاصطحابه معها، ففوجئت به غارقا في إغفاءة عميقة، وحينما وضعت كفها على صدره لإيقاظه، شعرت كأن يدها الأخرى تمنعها من تعكير نومه. راودتها فكرة: أن تنتظر ساعة أخرى حتى ينهض من فراشه، لكن اقتراب عقربي ساعتها من الثانية عشرة، دفعها للخروج من دون طفلها.

بعد الانتهاء السريع من التقاط الحد الأدنى الذي تحتاج إليه واجهها طابور طويل أمام صندوق البائعة. كان اليوم هو السبت، كأنها نسيت في خضم جو البيت المكهرب، الازدحام الملازم لعطلة نهاية الأسبوع. كادت تتخلى عن سلتها وتنسل من وسط الطابور، لكنها شعرت بالانقباض تحت وطأة صورة أطفالها وهم يبكون من الجوع.

حينما اقتربت من البيت لمحت سيارة إسعاف تقف أمامه، فراودها الظن أنها قدمت لأخذ الجار العجوز الذي تكررت، في الأشهر الأخيرة، زياراته إلى المستشفى. لكن وقوف ''عبدل'' بجانبها جفف اللعاب في حلقها. أشار إليها قبل دخوله السيارة: "ابق مع الأطفال.. هو حادث بسيط.. لا تقلقي عليه"

* * *

عاد الشارع إلى هدوئه، بعد اختفاء سيارة الإسعاف، وتفرق الأفراد القلائل الذين جمعتهم مصادفة العبور بذلك الموقع، وباستثناء نظرات التعاطف القليلة التي رماها بعضهم إليها قبل انصرافهم لم يكن المناخ يوحي بوقوع فجيعة ما وراء جدران بيتها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

القسم الثامن:

''المبدع''(2)

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لم تخبر ''توماس'' عما جرى لها في القلعة، وهو الآخر لم يسألها يوما عن ماضيها. لعله افترض أنها تركت بلدها لأسباب عاطفية، وما عليه إلا أن يتعامل معها ومع حملها ككيان واحد. أثناء ساعات مخاضها كان معها في المستشفى، وفي لحظات الألم الجارف ظلت تضغط على كفه بقوة، مانعةً نفسها من الصراخ، حتى حينما كانت الممرضة تشجعها على ذلك.

خلال الأشهر الثلاثة التي أعقبت الولادة أقام ''توماس'' معها. وكل صباح كان يوقظها بعد إعداده للفطور الإنجليزي. وإن هي أبدت معارضة لتناوله ذكّرها بطفلها: الوجبات الدسمة هي التي تصنع الحليب يا بقرتي الرقيقة.

ما زالت ''حياة'' تحتفظ بتلك الورقة التي كتبها ''توماس'' عن واجباته البيتية. قالت له ضاحكة قبل أن يغادر شقتها: تصلح أن تكون أبا ناجحا... ثم تداركت: بل أم ناجحة. في قائمته التي ما زالت معلقة على جدار المطبخ، وضع ''توماس'' مهماته حسب تسلسل رقمي يبدأ بتحميمهما: هي وطفلها، وينتهي بالتسوق والطبخ.

لكنه لم يعد حقا إلى سكنه. إذ ظل يزورها مرتين أو ثلاثا كل أسبوع، أحيانا كان يأخذها خلال عطل نهاية الأسبوع بسيارته إلى مدن الجنوب الساحلية.

رفضت في البدء فكرة السفر القصير خارج لندن بسبب طفلها الرضيع. لكن ''توماس'' تمكن من إقناعها بتغيير رأيها:

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أنـا سـأتكفل بـه كليـا... هـل تعلمـين كـم هـو مفيـد هـواء الريـف للأطفال؟

بفضـل ''تومـاس'' اكتشـفت ''حيـاة'' خاصـية الديمومـة فـي مشهد الريف البريطاني. فالخضرة الممتدة فوق الهضـاب تظـل محتفظة بكثافتها المذهلة للبصر في كل الفصـول. وأينمـا ذهبـت ترى الأشجار والأسيجة الشائكة مقلَّمةً بأحسن شكل، كأن هنـاك أيدٍ خفية تتـابع كل بقعـة مـن هـذه الحقـول الشاسـعة لتعيدها إلـى قالب جمالي واحد. كأن الزمن ثابت، ولعل سقوط المطر النـاعم طـوال أيـام السـنة يشـارك فـي صـياغة شـعور عـام بغيـاب الماضـي: الحاضـر هـو الموجـود فقط: أمـس واليـوم وغـدا. هـل تستطيع أن تنكر أن تلك الألوان الهادئة التي تمتد بين الرمـادي والأخضر علـى امتـداد فصـول السـنة كانـت وراء خروجهـا مـن كابوس القلعة؟

كذلك هي الحال مع لقاءاتهمـا فـي بيتهـا. إذ أصـبحت كرنفـالا متواصـلا لمسـرات جسـدية ظـل ''تومـاس'' يقودهـا إليهـا. وأي شـيء يقـوم بـه كـان يؤديـه بدقـة حرفـي بـارع، ومتبَّلا بدعابـة جافـة، لـم يلمحهـا أحـد مـن طلابـه أو زملائـه. بالمقابـل، كانـت خراقتـه وملامحـه المغرقـة فـي جديـة زائفـة تعطيهـا عتـادا كافيـا لمناكدتـه باسـتمرار. ومـع تحسـن إنجليزيتهـا تـدريجيا راحـت تكتشـف امـرأة أخـرى، بـدأت تخـرج مـن شـرنقة ذاتهـا. امـرأة جريئة في اختبار رغباتها إلى أقصى حدودها.

بعـد تحمـيم طفلهـا وتنويمـه، يـأتي دورهـا: يمـلأ ''تومـاس'' حـوض الحمـام بمـاء سـاخن ويمزجـه بعطـور طبيعيـة، وحينمـا تصبح رغوة الشامبو فيه كثيفة يناديها. وعلى الرغم من هبوطه معهـا فـي الحـوض، كـان يظـل حريصـا علـى أداء عملـه بجديـة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مثيرة للضحك، إذ تظل أصابعه تمسد بحيادية شديدة كل بقعة في جسدها، حتى حينما تستثار تحت وطأة تلمسه لنقاط مكهربة فوق ثدييها وما بين فخذيها. كانت تشعر براحة في حركتها لقناعة ترسخت في نفسها من عدم قدرته على مشاهدة تفاصيل جسدها من دون نظارتيه السميكتين. وهي تتابع أجفانه السميكة وعينيه الذابلتين، كانت تسأله باستمرار: "من أين اكتسبت كل هذه الخبرة يا ضفدعي العجوز؟" فيردد لاهثا: "استرخي تماما يا حمامتي الضالة، الكلام الآن مضر بصحتك."

لم تفهم أولا إصرار ''توماس'' على شراء خزانة ملابس واسعة لها. وحينما تم تثبيتها، واجهتها مرآة على امتداد الجدار الموازي لسريرها. ظنت في البدء أن هدفه كان تحقيق توسيع وهمي لحجرة نومها الصغيرة، لكنها اكتشفت دافعه الحقيقي بعد انتهائه من تحميمها: ها هي تراقب فوق سطح المرآة راحتي كفيه وهما تلامسان برقة حافتي وركيها، لتهبطا صوب فخذيها، نزولا إلى قدميها. بدا جسدها كأنه في طور التشكل تحت أصابع نحات مهووس تماما بمادته الأولية: الطين.

حاول ''توماس''، ذات مرة، الوصول إلى نظارتيه الموضوعتين على الكومودينو فما كان منها إلا أن دفعتهما بعيدا عنه إلى أرضية الحجرة. قالت بصعوبة تحت وطأة استيقاظ جارف لخلايا روحها: الصورة من حصتي وأنت لك الواقع.

كانت عيناها تتابعان بنهم ما يدور فوق المرآة، بينما تشبثت أصابعها المرتعشة بذراعيه المقفلتين حول ظهرها.

لكن ''توماس'' استخدم المرآة لغرض آخر أيضا: بعد الكثير من جلسات الحب، كان حريصا على تخطيط صورتها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المنعكسة فوق واجهة الخزانة البيضاء، حيث يضع أحيانا في حضنها فواكه استوائية أو يعلق على رقبتها قلادة ما، حباتها من كرز أو عنب أو فراولة.

ولم تجد ''حياة'' أي حرج في مسايرة نزوات ''توماس''. بل بالعكس، كانت منجذبة إليها، على الرغم من السخرية المريرة التي تظل تصبها عليه تجاه كل ابتكار يقترحه، فما كان منه إلا أن يردد بإصرار تحت تضرج وجهه بالدم: نحن نشترك بإبداع هائل يا دميتي الساحرة.

فاجأتها تلك اللوحات الزاخرة بالألوان في شقة ''توماس''. فتلك التخطيطات التي لم تأخذها مأخذ الجد تحولت هناك إلى رسوم مثيرة. مررت أصابعها فوق سطح اللوحة المعلقة على الجدار. فشعرت بطراوة جسدها العاري المستلقي فوق السرير، على الضد من صلابة الفاكهة الناتئة إلى الخارج.

حتى مع كل تعابيرها القاسية التي أطلقتها ضد ''توماس'' كانت ''حياة'' في أعمق أعماقها فرحة بإنجازه. إذ بدت لها تلك الحميمية التي تغلغلت عبر الألوان تأكيدا لها على قناعة ظلت تترسخ يوما بعد يوم في نفسها: هي وطفلها و''توماس'' كيان واحد لن يلحقه أي شرخ. كانت تتلمس هذه الحقيقة كل يوم عبر ملامح صديقها. كم بدا لها مسكونا بفرح عاصف؛ كم أصبح أكثر عناية بملابسه؛ وكم صار واثقا بنفسه. قال لها وهو يضع باقة أقحوان في مزهرية جنب سريرها: أنا ولِدتُ من جديد معك.

لم يثر معرض ''توماس'': "ثمار الفردوس" ردود فعل كثيرة، فمن بين اللوحات الأربعين لم يبع سوى ثلاثة أعمال.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لكن الحدث الأهم بالنسبة له خلال أيام العرض هو تعرفه على ''كريستين''.

أخبرها وهو يفرك باطني كفيه بعضهما ببعض: "سينتقل معرضي إلى مانهاتن. ''كريستين'' تمتلك "غاليري" هناك، وهي متحمسة لهذه اللوحات. هي تحب أن تتعرف عليكِ"

خلال الساعات الثلاث التي قضتها معهما في المطعم، شعرت بابتعاد ''توماس'' لأول مرة عنها. كان مستغرقا تماما في الحديث مع السائحة الأميركية حول رسامين وشعراء ومغنين برزوا في الخمسينات والستينات. آنذاك لم تكن سوى طفلة تعيش في مدينة تبعد آلاف الأميال عن الغرب. مع ذلك لم تشعر بأي تهديد لعلاقتها بـ''توماس''. فالتقاطيع التي ارتسمت على وجه ''كريستين'' تضعها في خانة عمر أمها، على الرغم من شعرها القصير المطلي باللون الأصفر، والماكياج البارع الذي أخفى الكثير من تلك الخطوط تحت عينيها.

التفت ''توماس'' إليها فجأة: ""كريستين'' تقترح إصدار اللوحات في كتاب، مع وصفات طبخ ايروتيكية تمتزج بفواكه استوائية وكونياك. ما رأيك لو تشتركي في كتابتها؟ إنه عمل سريالي من نوع خارق للعادة"

بعد عودته من نيويورك ظل يتجنب لقاءها، مبررا ذلك، كلما هاتفها، إلى مشاغل العمل، وحينما حضر أخيرا إلى بيتها حدست منذ لحظة وقوع عينيها عليه تغيرا ما في عاطفته. كانت عيناه تتجنبانها، حتى عند جلوسها في حضنه. فبدلا من حملها بين ذراعيه وترديد ما اعتاد عليه: ما رأيكِ لو أخذتكِ الآن يا عذرائي الجاحدة؟ قبل أن ينقلها إلى حجرة النوم، تعلقت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

نظارتاه بالنافذة الصغيرة. وحال نزعهما عن عينيه، فاجأتها طبقة حمراء غطت شبكيتهما.

قال ''توماس'' بعد صمت بدا لها دهرا: "لم أنم منذ عودتي. علي أن أقرر ما بين لندن أو نيويورك. ليس لدي هنا شيء سواك. لكنني سأظل نكرة إن لم أنتقل إلى نيويورك."

"وما الذي يمنعك من الذهاب إلى هناك؟ في كل الأحوال سنظل عاشقين، أليس كذلك؟"

"هل تعرفين أن معرضي سيتنقل بين مدن الغرب الأميركي الكبرى؟"

"إنها فرصتك، يجب ألا تتردد"

"لكن ''كريستين'' وضعت شرطا واحدا: أن نتزوج."

كادت تطلب منه تكرار كلمته الأخيرة، حينما شعرت بانحباس الهواء في صدرها، لكن تقاطيع وجهه الحازمة أزالت الشك بصحة ما سمعته.

كم احتاجت من وقت كي تسترجع قناعها القديم وتتخطى غضبا عصف بها ضده لتقول بنبرة هادئة ومطمْئنة: "لو كنت مكانك لوافقت مباشرة. إنها فرصة العمر. وقد لا تتكرر أبدا."

* * *

ظلت ذكرى الأيام التي أعقبت انفصالهما، حاضرة في ذاكرتها. وفي البارْك القريب، الذي هربت إليه بعد سفر ''توماس''، أثار مشهد تساقط الأوراق في نفسها رغبة بالتلاشي، فالجسد الذي كان جسرا لسعادتها مع ''توماس'' أصبح ثانية مصدر شقاء. كم كانا شبيهين بناسكين كلما التقيا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

في بيتها. هناك، يبادران طواعية بالتخلي عن كل أواصرهما بالعالم الخارجي: لا ماض؛ لا حاضر؛ لا مستقبل. وبدلا من ذلك، يقومان فقط بارتداء جسديهما العاريين. كانا في كل لقاء يجمعهما أشبه بتوأمين هبطا للتو من رحمي أمهما. الجسد قبة الروح. أين قرأت هذه الجملة؟ يصيبها دوار في لحظات تعشق جسديهما؛ تضيق الطرق في أنفاسها؛ تنحبس الدماء عن خلاياها؛ تتحشرج الكلمات في حنجرتها. لكن هناك في نقطة غامضة تقع المعجزة: لحظة الذوبان والخلق في آن؛ طوفان عارم يحل خلال رمشة عين، دافعا بكل ذرات جسدها المتفكك للتوحد مع المطلق.

كم مضى عليه قبل أن يبادر بالاتصال بها؟ "هل عرفتني؟" قال لها عبر الهاتف. "ليس تماما" "أنا ''توماس''. يبدو أنكِ نسيتِني" قالت بعد أن تنفست بعمق عدة مرات: "هل تتكلم من نيويورك؟" "لا، أنا هنا في لندن. في الحقيقة، أنا أتكلم معك من كابينة هاتف قريبة من بيتك". تستغرب ''حياة'' كيف تمكنت من تبديل ذلك الجواب الذي كان على طرف لسانها: تعال فورا، لتحل محله عبارة معاكسة: اليوم أنا مشغولة. سألها ''توماس'' متلهفا: "غدا؟"، "لا"، "بعد غد.".

عند لقائهما بدا ''توماس'' محرَجا، بالرغم من نبرة الدعابة التي ظل محتفظا بها. وحينما أراد البدء بترديد ما أعده من خطاب اعتذار وضعت ''حياة'' يدها برفق فوق فمه. وبدلا من الحواجز الجليدية التي توقعها فاجأته بدفن رأسها فوق صدره.

على الأريكة الجلدية الباردة مارسا الحب بصمت. وخلالها ظلت تتلمس بدأب ذراعيه ووجهه، فظن أنها تسعى للتأكد من حقيقة وجوده معها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لكنها، في واقع الأمر، كانت تريد التأكد من حقيقة أخرى: حقيقة موته.

حدث ذلك بعد أسبوع على انفصالهما. كانت تنتظر معجزة ما تخرجها من شرنقة كآبة جارفة، بينما ظل صراخ طفلها الجائع يتردد في أرجاء شقتها.

وصلتها رسالة قصيرة من أخيها: البقية في حياتك. الوالد توفي.

وكأن الحزن الجديد طبقة لافا، انبعثت من بركان جديد، لتغمر الطبقة الأقدم. ومعه تنامى فيها شعور مرضي بالذنب. إذ كيف تفسر انقطاع أبيها عن الاتصال بها لأكثر من عام من دون أن يكون قد سمع بما جرى لها في القلعة؟ هل علم أن ''المبدع'' زرع نطفته في رحم ابنته؟ ولعله حبس نفسه في البيت خجلا من الآخرين؟ لم تخبرها الأم على الهاتف الكثير، ولعلها كانت تخشى أن يكون خط الهاتف مراقبا. كل ما فهمته منها أن موت الأب كان بسبب ارتفاع مفاجئ لضغط دمه، أدى إلى انفجار في دماغه.

تتذكر آنذاك حضور مقارنة فرضت نفسها عليها: بالرغم من تماثل عمري أبيها و''توماس''، يموت الأول تحت وطأة الألم لما حل بابنته بينما يقرر الثاني خلال ساعات قليلة هجر حبيبته والزواج من أخرى. الأول محكوم بقانون الجاذبية الذي يجره إلى القبر؛ والثاني بقانون انعدام الجاذبية الذي يدفعه إلى الأعلى. الأول ينتمي إلى عالم محكوم بقيم مطلقة؛ والثاني إلى عالم محكوم بقيم نسبية، شبيهة بالملابس، يفصِّلها كل شخص حسبما يشاء.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

خلال فترة الحداد على أبيها أغلقت باب البيت وراءها. كانت حركة القطارات صلتها بالعالم الخارجي، والذي ما فتأت تذكّرها بوجوده من نافذة المطبخ. استغربت من نفسها وهي تراقب استيقاظ غريزة البقاء فيها عبر عنايتها الشديدة بطفلها.

فجأة، ومن وسط طبقات الكآبة، انفتح شق في صميم عتمتها على بهجة عاصفة. حدث ذلك حينما استيقظت ظهرا وسط بركة ضوء شمسي، غطت الكنبة الجلدية التي أغفت فوقها في ساعة متأخرة من الليل. ها هي تجد نفسها مغسولة تماما من الحزن، خفيفة كفراشة؛ من قلب الظلمة ينبع الضوء؛ من أعماق الموت تنبعث الحياة.

اكتشفت آنذاك أن الأب كان المشيمة التي تربطها بالوطن، وتجعلها دائمة الدوران حوله، أما الآن فهي كوكب متحرر من الجاذبية يتحرك بلا قيود صوب فنائه.

منذ طفولتها تشكل تحالف سري بينهما. كان شرطه الخفي أن تتفوق على أخوتها الأربعة؛ أن تكون أكثر ذكورة منهم. ولكسب أقصى إعجابه، انتمت إلى الجيش الثوري.

* * *

رن جرس الهاتف. كان ''توماس'' على الخط: "ما رأيكِ لو نلتقي الليلة؟"

"أنا مشغولة اليوم"، "مع مَن؟"، "هذا لا يخصك" وكأنه فوجئ بجوابها. قال بعد لحظات صمت: "أو غدا؟" "بعد غد أفضل. مساء الجمعة يناسب الأمهات كثيرا"

ندمت على قبولها بلقائه. كان عليها أن تقول: "لا"، حتى لو كان ذلك ضد طبيعتها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ظلـت ''حيـاة'' حريصـة علـى عـدم كشـف ضـعفها أمـام الآخرين. ومع قامتها الممشوقة وكتفيها العريضين، أصبحت دون إرادتها مصدر قوة لبعضهم. في البيت كانت مركز توازن أسرتها. وحال بروز مشكلة بين أفرادها يتوجهون إليها لحلها. كان الأب يسميها بشمعة البيت. ولم يخطر بباله يوما أن يسألها عن مشاكلها.

هل كانت ستخبره عما يعتور نفسها لو أنه تحدث معها قبل فوات الأوان؟ قبل أن يجذبها رفيق دراستها إلى "الجيش الثوري" ولعل الأخير بعد فشله في كسب حبها قرر الانضمام إليه أولا ثم إغراءها لاحقا كي تلحق به. هناك ستكون قريبة منه، ولا بد أنه سيكسب إعجابها بأفعاله البطولية. لذلك ظل يسرب لها تلك النشرات السرية، التي كان مجرد العثور عليها مع أي شخص كافيا لإعدامه.

قلّبت في الدفتر القرمزي. جذبتها فقرة مكتوبة وحدها على صفحة. وكأن ''المبدع'' يخاطبها وحدها: "أفتقدك كثيرا. هل تصدقين إذا قلت لك إنني لم أتعلق في حياتي قبلك إلا بشخص واحد: الزعيم. كان التعلق بأي امرأة يعني ضعفا بالنسبة لي. لكنني لا أعرف كيف تمكنتِ من التحكم فيّ. لا بد أنها تلك اللحظة التي كنت راكعة فيها وراء جنوني بك. لقد بدوتِ لي نخلة تقاوم جذورها ضربات الفؤوس. أنا الآن أبحث بحمية عن كل أثر تركته وراءك.."

استحضرت ذاكرتها ذلك المشهد الذي تابعته من وراء ثقب ولا بد أن ''المبدع'' أعده لها ظنا منه أن علاقة حب تجمعها برفيق دراستها: كانا جالسين وجها إلى وجه. وراء الطاولة جلس ''المبدع'' وأمامه رفيقها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

" أنتم من دعاة النضال المسلح ضدنا، أليس كذلك؟" سأل ''المبدع''، بينما ظل الآخر صامتا. "هاك خذه" دفع مدير الأمن له بمسدس، انزلق فوق الطاولة حتى توقف عند حافتها.

"ماذا أفعل به؟"

"تأكد أولا من أنه محشو بالرصاص"

نفذ رفيقها الأمر، في وقت تعمق الشحوب على صفحة وجهه. كانت تستطيع أن تلمح اختضاض ساقيه. فجأة ارتفع صوت ''المبدع'': "إنها فرصتك الآن: أن تقتل الرجل الثاني في الحكم. ماذا تنتظر؟" كانت في قرارة نفسها تردد بصوت صاخب: "هيا نفذ ما يطلبه منك. سأعبدك كل حياتي. سأظل مخلصة لك إلى الأبد" ارتفعت توسلاتها الصامتة أكثر حينما قدم ''المبدع'' عرضا مغريا آخر: "هل ترى هذا الباب؟ حالما تقتلني ستتمكن من الهروب عبره. إنه يقود إلى الخارج"

* * *

أغلقت باب الحمام وراءها. ثم فتحت صنبور الماء الساخن فوق الحوض، فارتفع خريره، كاسرا ذلك الصمت الجاثم في الهواء، بينما ظلت أذناها تلتقطان أي نأمة تأتي من الخارج. سكنتها أمنية واحدة جعلت الثواني جامدة في أنفاسها: أن يغادر ''توماس'' وتلميذه بيتها الآن.

ولم تعلم كم مضى عليها قبل تحقق المعجزة: فجأة تسربت إليها دمدمة خافتة ناجمة عن تماس أقدام بأرضية الممر الخشبية، ثم صرير قصير لقفل الباب الخارجي قبل انغلاقه بتؤدة، وكأن ضيفيها كانا حريصين على الاختفاء من عالمها بأقل ضجيج ممكن.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تجولت في ثنايا شقتها الصغيرة بلا هدف محدد. لعلها كانت تريد التوثق من حيازتها المكان حقا: من أنها سيدته وحدها. وحينما وقعت عيناها على باقة الزنابق التي جلبها ''توماس'' سحبتها من مزهريتها. ترددت قليلا عما يجب فعله معها، قبل أن تفتح نافذة المطبخ وترميها صوب الفراغ المعتم، المجاور لمحطة القطار.

راعها مشهد الملاءات والأغطية البيضاء فوق سرير النوم. بدت كأنها أنقاض تشرئب رؤوسها هنا وهناك، مذكرةً بقصف جامح مر للتو، ولم يترك وراءه سوى رائحة بارود لاذعة. فتحت النافذة على مصراعيها. تسرب هواء صقيعي جاف دفعها للتنفس مرارا بعمق، بينما ظلت عيناها تتابعان نثار الضوء الشاحب المنبث فوق ألواح السقوف الإردوازية.

اقشعرت مسامات ساقيها عند ملامسة القدمين ماء الحوض. بدا لها أسخن مما هو عليه، لكنها انزلقت بشغف بين طيات سيولته. كان البخار يتصاعد بانتظام حولها، جاعلا رؤيتها أضيق فأضيق، بينما تلاشت صورتها المنعكسة على مرآة الجدار الواسعة.

تلمست شعرها نصف المبلل. استحضرت، لحظةً، تلك الأصابع التي راحت تحرث خصلاته بإيقاع متوافق مع نبضات جسدها. كانت الرغبة آنذاك هوة لا قاع لها. تراءت لها لحظة إغماض عينيها، أخطبوطا مفعم الحيوية.

هل كانت تلك أصابع ''توماس''؟

كانت، قبل وصوله إلى شقتها، مقتنعة بأنه لن يبقى طويلا. هيأت كذبة بيضاء لإنهاء أي أمل في نفسه بتجدد علاقتهما من دون فتح جراح الماضي: سيصل خطيبي السابق إلى لندن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

قريبا. وإذا سألها: أنت لم تخبريني عنه يوما، سيكون جوابها: إنه والد طفلي. كان في السجن لأسباب سياسية، وأطلِق سراحه منذ شهرين.

لكنه فاجأها بإحضار شاب جميل معه. أعرّفك بـ''إيان''. لا بد أنك تتذكرينه. كان أحد تلامذتي الموهوبين. وهو يقول إنه يعرفك.

شعرت بالحرج من جملته الأخيرة. كأن ''توماس'' أيقظ عبرها عالما مغرقا في القدم. قالت وهي تتطلع في عيني الآخر بجرأة تتعارض مع حالة الارتباك التي تلبستها: هل جلستُ أمامكَ آنذاك؟ لكن سؤالها المفاجئ لم يترك وراءه سوى حمرة إضافية فوق وجنتي ''إيان''. قال بعد أن تغلب على خجله: كنت أجلس بعيدا عنكِ في آخر الصفوف. استيقظت في نفسها روح الإغراء تجاه الرجال المترددين، وهي تراقب بشغف ملامحه البرية الشقراء. أستطيع أن أعوضك عن ذلك إذا أحببت قالت وهي تغمز لـ''توماس''. قال الأخير الذي بدا أمامها آنذاك مهرجا عجوزا: أنا أغبطكَ على الحظوة السريعة التي كسبتَها. كان علي أن أفكر مرتين قبل استقدامكَ معي.

ما الذي دفع ''توماس'' لجلب ''إيان'' معه؟ هل كان يريد تجنب احتمال رفضها المباشر له؟ أم إنها وسيلة للهروب من سؤالها المتوقع: لماذا عدتَ؟ لعله تحت غطاء صديقه الشاب سيتمكن من الإجابة عنه من دون أن يضع نفسه في موقع المتهم أمامها.

"لم أظن أن معرضي سيكون موضع هجوم الجميع هناك: المنظمات النسوية والدينية بل حتى جمعيات محاربة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الإجهاض" خفف ''توماس'' من نبرته ليجعلها تعبيرا عن تهكم جاف أكثر منه تظلما، بينما ظلت عيناه تلامسان أشياء الغرفة (التي كانت ذات يوم تعود له) بتوق شديد.

سألته بعد انتهاء زجاجة بوردو الأولى عن الحياة في نيويورك. لكن ''توماس'' بدلا من أن يجيبها مباشرة راح يشكو من بعد سكنه عن مانهاتن: "أستطيع القول إنه لا يمت بصلة إلى نيويورك. إنه في قلب الضواحي المملة. لم تخبرني ''كريستين'' بذلك، بل حتى معرضها كان بعيدا عن مركز نيويورك كثيرا"

بدا لها ''توماس'' وكأنه شاخ كثيرا خلال سنواته الثلاث الأخيرة في نيويورك، ولعل روح الشكوى التي لازمته خلال الجلسة ووجود ''إيان'' عمّقا من إحساسها بفارق السن الكبير بينهما.

استيقظ فضول غريب في نفسها صوب الضيف الشاب. "أين تعيش الآن؟" وقبل أن يجيب بادر ''توماس'' على غير عادته: "أنا أقيم معه حاليا. بالطبع مؤقتا. مسكنه مليء باللوحات، يجب أن تشاهدي أعماله. ستعجبك كثيرا"

لا بد أن شعور ''توماس'' بالعزلة كان وراء اندفاعه في احتساء النبيذ بسرعة أكبر.

حتى مع غياب حديث بينها وبين ''إيان'' كان الهواء يكشف انشدادها إليه. كل شيء عداه يشير إلى الماضي: سلام سلمان، مذكرات ''المبدع''، صور أبيها وحبيبها السابق الذي تتمنى لو غادر الآن بيتها. برز ''إيان'' وحده علامة عن حاضرها المتمثل في تلك اللحظة التي جمعتهما في غرفة استقبال شقتها. كل شيء فيه يوحي بعالم لم تمسه أصابع الفساد بعد. "من أين

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أنت أصلا؟" "أنا من إسكتلندا. من قرية تبعد حوالي ثلاثين ميلا عن غلاسكو" "هل زرتِ إسكتلندا؟" يرتفع صدى صوت ''نينا سيمون'' النحاسي من جهاز التسجيل، لكنها لم تتمكن من تمييز أي من كلمات أغنيتها. كان ''إيان'' وحده نقطة تركيزها.

متى نهض ''توماس'' من مكانه ليعلن فجأة: "أنا سأذهب؟" ولم يعط أي وقت لتلميذه كي يلحق به، أو أي وقت لها كي تودعه. إنها المرة الأولى التي تجده ساخطا بهذه الطريقة. غمرتها مشاعر متعارضة ظلت تجذبها بين لحظة وأخرى: الارتياح لغيابه والذنب لإهمالها إياه. الفرح لتركها مع ''إيان'' والأسى لفقدانه مرة أخرى وربما إلى الأبد.

كم ظلا جالسين بصمت قبل أن ينهض تلميذ ''توماس'' معتذرا: "أظن أن علي الذهاب الآن" لكنه حال خروجه من الغرفة مدت يدها صوب كتفه الأيمن. وكأن جسده كان ينتظر تلك اللحظة ليلتفت إليها محتضنا إياها. أطفأت مصباح الرواق القصير لتحل عتمة عميقة يتخللها ذلك الضوء الواهي القادم من غرفة الجلوس. اقتادته من كفه صوب غرفة نومها وحالما أغلقت بابها أحاطتهما ظلمة أكثف تتخللها شذرات ضوء باهتة تتسرب عبر شقوق الستائر الضيقة من الخارج، لتهديهما صوب السرير العريض.

من أين جاء ذلك الرنين اللجوج؟ لا بد أن وقتا طويلا مضى قبل أن تميز إيقاعه كانت خلاله غارقة في التعرف إلى جسد ''إيان'' الفتي، كانت تستطيع أن ترى بعينها الثالثة ملابسها مبعثرة في كل مكان، تحت أسر رغبة جامحة بالانصهار بالآخر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ما الذي دار في خلدها وهي تتلمس ارتعاش خلايا جسده تحت سريان أصابعها الجريئة؟ هل شعرت للحظة بأنها حققت أمنية دفينة في نفس أبيها: أن تكون فتى حقيقيا؟ ألم يكن ''إيان'' فتاتها البكر؟

ارتدت على عجل روبها واندفعت إلى باب الشقة الأمامي. ساورها خوف من استيقاظ طفلها تحت خفقات الجرس المتواصل.

برز أمامها ''توماس''. لم تميز في البدء منه وسط عتمة الفجوة الفاصلة بين الشقتين المتقابلتين سوى نظارتيه، حيث انعكس فوق زجاجها شعاع ضوئي خافت. "أنا متأسف لإيقاظك. تذكرت أن مفاتيح الشقة مع ''إيان''. إذن هو ذهب؟"

ظلت صامتة لثوان: تغلغل خجل طفولي في أنفاسها، كأنها مُسكت فجأة على يد أبيها متلبسة بفعل يستهجنه؛ بالمقابل، تصاعد بقوة شعور معاكس من أعماقها: التمرد على خجلها. كادت تجيبه على عكس طبيعتها: نعم. لكنها وجدت نفسها تردد بنبرة حازمة: "ادخل" وعند بلوغها حجرة النوم التفتت إليه. بدا لها غارقا في استكانة كاملة. وحينما قالت: "ادخل وسأتبعك بعد قليل،" ظل رأسه يتلفت حوله غير مصدق ما تسرب إلى سمعه. فتحت الباب قليلا ثم دفعته برفق إلى الداخل لتعيد غلقه ثانية.

تلاشى البخار حولها. التفتت صوب المرآة. ظهر لها وجه غريب. كم سيكون جميلا لو نُزع عنه شعر الرأس. التقطت بأصابعها الخمسة خصلات منه ورفعته إلى أعلى. ستذهب غدا إلى الحلاق فتطلب منه إزالته كليا. ستكون شبيهة بـ''جان

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

دارك'' كما شاهدتها في السينما. الفارق الوحيد بينهما أن حلق شعر الأخرى كان إعدادا لحرقها. تعميدا لها بالنار. إنها تكسب أخيرا حريتها من سجن الرجال. هي أيضا فضلت التعميد بالنار. لكن بيدها.

كانت معهما في الفراش. ها هي تتحرر من ذلك الشعور بالعار الذي راودها لحظة مشاهدة ''توماس'' أمام باب الشقة. لكنهم الآن على قدم المساواة، يضطجعون صامتين جنبا إلى جنب، وبإغلاقها لستائر النافذة حلت عتمة دامسة لا تسمح إلا بتمييز حدود الأجساد العارية كتلا أكثر دكنة.

ساورها لحظة الدخول إلى الغرفة خوف من ردود فعل غاضبة تكون قد عصفت بـ''توماس'' وهو يجد نفسه في ذلك الوضع الغريب. هل ستعزوها لغيرته الشديدة عليها؟ لتعلقه بها؟ كيف ستتصرف لو حدث ذلك الاحتمال؟ ألن يدفعها موقفه إلى نسيان خذلانه لها، إلى إخراج ''إيان'' من بيتها؟ إلى طلب الصفح منه على فعلها المقيت؟ إنها فعلت ذلك تحت سطوة يأسها بعد تركه لها.

بدلا من ذلك سمعتهما يتبادلان حديثا وديا وضحكات خافتة. راودها للحظة شك بأنهما عاشقان مثليان، فأيقظ غيرة غريبة في نفسها على ''إيان''، دفعتها للإسراع في تعليق روبها على ظهر الباب، وحالما أحكمت إغلاقه انزلقت بخفة في الفراغ الضئيل القائم بينهما وهي تردد ضاحكة: "اسمحا لي"

متى وصلها عويل طفلها الصاخب؟ لا بد أنه ظل يبكي وقتا بنبرة خافتة قبل أن يرفع عقيرته. ولا بد أنها خلال تلك اللحظات فقدت صلتها بالمكان والزمان.

أي قوى جارفة تحكمت بها آنذاك؟ كانت مسكونة بكائنين

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

غريبين عنها، لكنهما متآلفان مع بعضهما البعض: ذكرا وأنثى شديدي الجموح.

نهضت من سريرها على عجل، فاندفعت بخطى متعثرة صوب طفلها.

كم مضى عليها وهي تهدهده قبل تسرب النوم إليه مرة أخرى؟ كان نثار الضوء المتسرب من الممر كافيا للتمعن في ملامح وجهه.

صعقتها تلك الحقيقة التي ظلت تنكرها منذ ولادة طفلها: إنه نسخة عن أبيه ''المبدع''. وقبل أن تغادر حجرته الصغيرة، اخترق ذاكرتها وللحظة مشهد باهر، ظلت تنكر حقيقته، معتبرة إياه مجرد كابوس عابر.

كانت واقفة وراء زجاج معتم يسمح لها بمشاهدتهما. ولا بد أن هناك جلادا قريبا منهما يوجه لهما الأوامر دون أن تتمكن من رؤيته. لم تصدق في البدء أن يكون أحدهما رفيق دراستها. أين تلك الكبرياء التي كان علامته الفارقة في الكلية؟ انتابها شك بأن يكون هو نفسه الذي راقبته قبل يومين فقط. ما الذي جرى له منذ آخر مقابلة له مع ''المبدع''؟

لم تتعرف على الشخص الآخر. لكنها استنتجت أنه واحد من رفاقها أيضا. كان الاثنان عاريين تماما، ويسيران على أطرافهما الأربعة. وعلى الرغم من عزل الزجاج للصوت خمنت أنهما يتبادلان النباح، ومن وقت إلى آخر كانت أعينهما الزائغة تميل صوب الحارس للتوثق من رضاه عن أدائهما. لكن حركتهما جمدت للحظة. ولا بد أنه أصدر أمرا غريبا لهما احتاجا إلى وقت قصير لاستيعابه قبل الشروع في تنفيذه: ها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

هو السجين الآخر يقترب من ردفي رفيق دراستها الذي سكن في مكانه مستسلما، ليعتلي فجأة ظهره.

غمرها غثيان جارف. تلمست طريقها إلى المرافق. وأمام "مقعد التواليت" ركعت وهي تشد ذراعيها على بطنها.

كم مضى عليها هناك؟ كانت النوبات تتصاعد بانتظام من أحشائها، ومع كل حشرجة تتقلص في حنجرتها تقفز مع القيء صورة ما علقت من دون أن تدري من "القلعة". ها هي تستحضر تلك اللحظات عبر أصوات المعتقلين المتوسلة، عبر الفزع الذي جمد في دمائها، عبر المقبرة، عبر تقاطيع ''المبدع'' البريئة. ومع مرارة الكحول العالق في فمها تلمست لزوجة الدم المالح. حينما فتحت عينيها شاهدت قطعا حمراء تسبح في قاع المقعد. بالمقابل تسربت إليها خفة متدرجة مع كل انقباض واستفراغ. كأنها كانت تنزع عنها شيئا فشيئا ثآليل الهلع الملتصقة في جدار معدتها.

شعرت عند عبورها عتبة حجرة النوم أنها انتقلت من كوكب إلى آخر، من حقبة جيولوجية إلى أخرى. فغمت أنفها رائحة أشنية حادة تتعارض مع الهدوء الذي سكن في الهواء. أمامها عالم محكوم بالرقة، بالصدق المقنن، بعبادة الذات، بالجماع الرومانتيكي، بالبراءة الكاذبة؛ وراءها عالم محكوم بالقسوة النقية، بالعاطفة الجامحة، بالجنون، بالحقائق المطلقة، بنكران الذات.

تنامى في أنفاسها غضب على عشيقيها الهاجعين. كأنهما طفلان بريئان لا علاقة لهما بما شاركا فيه للتو. هل عليها أن توقظهما الآن وتخبرهما بما جرى لرفيق دراستها؟ ذلك الحالم بتحقيق فردوس أرضي للفقراء. كيف كان يتابع بدأب كل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أخبار الثورات والنكسات في العالم. لا بد أن أكثر ما فجعه وهو يمشي عاريا على أطرافه الأربعة تلك الحقيقة التي تتعارض مع كل قناعاته المطلقة: جلاده من عائلة معدومة.

كيف سيكون رد فعل ''توماس'' و''إيان'' لو أنهما خضعا للتجربة نفسها؟ هل سينتحر أي منهما مثلما فعل زميل دراستها لاحقا؟

ترجّع السؤال في رأسها المشوش والثقيل. كانت تستطيع أن ترى في قلب العتمة كرة ثلجية تنزلق فوق سطح جليدي مائل، حيث راح حجمها وسرعتها يتزايدان. كانت تستطيع أن تسمع أصواتا تتسلل إلى حنجرتها؛ ''سلام سلمان'': "السيدة ''حياة''؟" "لا، أنا أم ''المبدع'': هل تريد أن تراه؟ لقد ولِد من جديد، وسيعود قريبا إلى القلعة" "لماذا تحملين في يدك هذه العصا؟" "لا تخف، هي مجرد ذراع مكنسة. إنها أنبوب فارغ"

لا بد أن لحظة جنون عصفت بها، فأطفأت مصابيح ذاكرتها. ها هي تسترجع كل ما تلاها من تفاصيل من دون تسلسل. كان مصباح السقف الكبير مشتعلا. وكانت جالسة على كرسي تراقب جانبيا ما يجري على المرآة ببرود كامل: أخطبوط يتلوى بضراوة وتتلوى أذرعه بكل الاتجاهات.

برزت أمامها لحظة صاعقة أخرى: ها هي تنقض على ضحيتيها، فترفع الغطاء السميك عنهما. يتسرب الهلع إليهما وهما يتابعان تلك العصا المرفوعة فوقهما بينما جعلهما الضوء الجارح كائنين عاريين مجهريين تحت عدستها. صاحت بصوت أجش غريب عنها تماما: "حان دوركما الآن معا. عليكما أن تقدما لي عرضا ممتعا"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

القسم التاسع

بيداء في متاهتها (3)

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

حالما أغلقت الباب وراءها استقبلها ضجيج الشارع، وانقطع عنها في الوقت نفسه ذلك المزيج المتناقض من روائح العطور والأصباغ. بدا لها صالون التجميل عبر زجاج الواجهة الأمامية بعيدا عنها. كأنها لم تكن قبل ثوان في الداخل، بين يدي الحلاق الشاب الذي عبّر عن إعجابه بشعرها الناعم، أو أمام تلك العاملة التي انشغلت ببرد أظافرها ثم إزالة آثار الطلاء السابق ووضع آخر أكثر حيوية.

لم ينشأ القرار بالتخلص من شعرها الطويل إلا بعد أن أنهى الحلاق غسله. أمام المرآة بدت لها امرأة شاحبة تتناثر خصلات شعر مبتلّة فوق رأسها بلا انتظام. كانت أول مرة تنظر فيها إلى المرآة بإمعان منذ وقوع الحادث، ولم تبرز أمامها سوى صورة وجه لا يمتّ لما كانت ''بيداء'' تشعر به آنذاك. كان الوجه حياديا، لا يشير إلى تلك الرحلة التي عاشتها في شعاب الجحيم، أو إلى حقيقة أنها كانت تعيش أول يوم لها خارج بواباته. قال الحلاق: "كيف تحبين أن أقصه"؟ وقبل أن تردد مثلما اعتادت: "الحواف فقط" وقعت عيناها على صورة بالأسود والأبيض لفتاة في العشرين تلبس قميصا أبيض بياقة مرفوعة إلى أعلى وشعر قصير يرتفع فوق أذنيها، فأشارت إليها.

قال ''عبدل'': "ستأتي ''شهرزاد'' اليوم". ولأول مرة منذ وفاة ''سليم'' حملت هذه الكلمات لها معنى. سألته: "متى؟" فأجاب "الساعة السادسة". ظلت بنت عمتها تحضر بانتظام

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لزيارتها خلال فترة مرضها. ولا بدّ أنها هي التي طلبت من ''عبدل'' نقل زوجته إلى المستشفى بعد مرور أسبوع واحد على انقطاعها عن الطعام، وهناك دفعوا بالسائل المغذي عبر شرايينها. لم تظهر ''بيداء'' أي مقاومة لتوجيهات الأطباء والممرضين: "اجلسي على هذا الكرسي،" "افتحي فمك،" "ارفعي كمّ قميصك أكثر". كانت تتصرف كإنسان آلي ينفذ التعليمات من دون أن تثير أي عاطفة داخلها. أحيانا تنتابها نوبات ضحك أو بكاء قسرية لما يجري حولها تحت وطأة فقدان سلسلة المشاهد الخارجية لمغزاها؛ فأن ترى أطفالها الثلاثة يقفون مفزوعين أمامها واحدا وراء الآخر تحضر إلى ذهنها صورة طابور الزبائن أمام البائع، فيثير المشهد ضحكها، وفي لحظة لاحقة تسترجع نفسها واقفة بينهم في السوبرماركت قبل وقوع الحادث بساعات، لتبدأ توسلها بالزبائن الوهميين: "أرجوكم اسمحوا لي بالدفع قبلكم... ابني سيسقط من النافذة... نسيتها مفتوحة". ولن يقوم ''عبدل'' آنذاك إلا بسحب الأطفال من الحجرة وسط بكائهم.

حتى عند حضورها مراسم الدفن أثارت ''بيداء'' استغراب بعض الحاضرين، فلم تظهر على وجهها بعكس ''عبدل'' أي ملامح حزن. بل بدت كأنها ترتدي قناعا شاحبا. لكنها في تلك الساعات كانت كالمُسرْنَم برغم تمكنها من تبادل الحديث بحيادية كاملة مع ''شهرزاد'' التي ظلت تسير جوارها، وحينما سألت ''بيداء'' إن كان المطر سيسقط غدا، حدقت الأخرى في وجهها قبل أن تشد على ذراعها بقوة. لكن السؤال الذي ظل يتناوب البروز في ذهنها آنذاك هو: من بقي مع ''سليم'' في البيت؟ فموعد غدائه قد حل قبل أكثر من ساعة، ولا بدّ أنه في حاجة للذهاب إلى المرافق. مع ذلك، كانت تحضرها كشرارة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

عابرة، بين فينة وأخرى، حقيقة أن كل ما يجري حولها يخص ابنها البكر. بالمقابل، كان صفاء السماء وامتزاجها بخضرة قمم الأشجار في المقبرة يوحي بالطمأنينة التامة: أن تكون البراءة المطلقة التي يمثلها ''سليم'' محط حماية الملائكة.

صدمتها في البدء صورتها على المرآة، فبدت لها وسط قطرات الماء التي تسربت إلى عينيها ووسط عبق العطور الصارخة كائنا غريبا يشق طريقه عبر جدران حديدية ليتمكن أخيرا من الظهور أمامها. ها هي تراقب ملامح المرأة الأخرى بفضول: عينين جريئتين محملتين ببريق المرح والمخادعة وعلى حافتي الفم كانت هناك ابتسامة تحدّ ساخرة. لكن الضباب المتصاعد من إبريق قريب من كرسيها أخفى صورتها عنها قليلا. التفتت إلى فتاة الموديل فاكتشفت انفتاح الزرين العلويين من قميصها، وبروز أعلى الظل الساكن بين حدود النهدين، وحال التفات الحلاق إلى جرار مجاور لالتقاط مقص آخر، تسللت أصابعها بسرعة إلى قميصها لتفتح أول زر فيه.

عند العودة إلى البيت من المقبرة ظلت تبحث عنه في الغرف؛ بين الأغطية وداخل خزانات الملابس وتحت الأسرّة، من وقت إلى آخر، كان صوتها يرتفع بنبرة رتيبة: ''سليم''. وحينما اقتادها ''عبدل'' إلى حجرة نومهما وأغلق الباب وراءه، راحت ''بيداء'' تخاطب ابنها كأنه جالس إلى جوارها قبل أن يتسرب النوم إليها تحت تأثير العقار المنوّم.

انشغلت في الأيام اللاحقة بألعابه. كانت تقضي ساعات برفقتها في غرفته، حيث تمضي في صفّها بنفس طريقته: النمر بجانب الحمل، القطار بجانب السيارة، والسوبرمان بجانب الصبيّة باربي، وحينما يطل رأس أحد أطفالها من خصاصة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الباب، تفتح كفها بوجهه لمنعه من الدخول: "اترك أخاك وحده... لا تزعجه".

لكن الندم تسرب إليها، ليحل تدريجيا محل صدمة عدم التصديق: ماذا لو أنها تجرأت وطلبت من ''عبدل'' الذهاب إلى السوبرماركت، لو أنها عملت للصغار ما تبقى لديها من المعكرونة وظلت في البيت، لو أنها أيقظت ''سليم'' وأخذته معها؟ كم سيفرح هناك وسط السلع الغزيرة ووسط حركة الناس.

كانت دائرة مقفلة تلك التي دخلت فيها، حيث راحت أدوات الشرط تنخر بدأب روحها. وفي تلك الفترة فقدت شهيتها الكاملة للأكل والكلام، قبل نقلها إلى المستشفى.

هناك تعلمت ''بيداء'' تدريجيا كيف تتجنب المشي فوق ألغام الذاكرة التي تعيدها إلى دائرة الشقاء نفسها؛ كيف تتجنب حضور اسم ''سليم'' فوق لسانها بتجنب نطق كل الكلمات التي تبدأ بحرف سين؛ كيف تغطي صورته بإقحام صور أطفالها الآخرين فوقها كلما برزت لها. ولم يقع التحول إلا حينما التفتت لأول مرة إلى الصغار الذين أحضرهم في ذلك الصباح الملفع بغيوم ثقيلة. فجأة بدوا لها بشعرهم الأشعث وملابسهم المهلهلة ونظراتهم التائهة خرافا صغيرة ضالة. وفي ذلك اليوم طلبت لأول مرة من الممرضة طعاما.

مع انحسار الندم عن روحها راحت مشاعر الحنق تجاه زوجها بالتصاعد، حتى بامتناعها القسري عن استرجاع أي تفصيل يخص طفلها المتوفى، كأنها أسقطت مسؤولية ما حدث على ''عبدل'' كليا. أليس ممكنا أن يكون قد تعمد فتح النافذة وشجع ابنه المعاق على رمي نفسه منها؟ وكلما راودها الشك

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بصحة هذا الافتراض زادت إصرارا على التشبث به. لعلها بفضل هذه العاطفة التي لم تعرفها من قبل تمكنت من لملمة شظايا نفسها كسرة كسرة، وبفضلها انكبّت على الأكل لتسترجع بفترة قياسية ما خسرته من وزن، وها هي الآن وجها لوجه مع امرأة أخرى لا تمت لها بصلة، تبرز لها عبر المرآة كحلم ظل يراودها منذ وقت طويل عن شخص آخر كان يشاركها الجسد لكنه تجنب الإفصاح عن نفسه حتى تلك اللحظة.

قد لا يكون حكمي منصفا إذا اعتبرت الحنق هو القوة الوحيدة التي تحكمت بعالم ''بيداء'' الشعوري أثناء تلك الفترة. كانت تعيش من حين إلى آخر مشاعر العرفان بالجميل لـ''عبدل''، وهي تراه منكبا على العناية بالأطفال، ولا بدّ أن لقوة اللحظة المُعاشة تأثيرا قويا على تلاشي الماضي، الذي لا تبقى منه سوى تلك النبضات الضوئية الصادرة عن نجم ميت.

سعت لاستحضار ذكرى أبيها كي تعينها خلال وحدتها في المستشفى، لكن ذاكرتها ظلت عاجزة عن الغوص أبعد مما حدث قبل دقيقة واحدة؛ الدمدمات المتسربة إليها من الممر المجاور لحجرتها؛ لون باقة الورد التي رمتها المنظفة توا في سلة المهملات بعد ذبولها؛ روائح الطعام الفاغمة... بدت لها كل الأشياء والنشاطات في المستشفى كأنها تتكاتف بعضها مع بعض لتشكل جدارا عازلا بينها وبين العالم الخارجي، وكلما حاولت تخطي ذلك الجدار عبر مخيلتها اجتاحتها تفاصيل المستشفى أكثر فأكثر.

قال الحلاق وهو يضع لمساته الأخيرة فوق شعرها: "تشبهين كثيرا بإطلالتك الجديدة ''أودري هيبرون''"، ثم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أضاف حين لم يصدر أي رد فعل منها باستثناء تلك النظرة المحايدة التي صوّبتها عبر المرآة إليه: "اسألي أيا كان وسيقول لك نفس رأيي"، ولعل ذلك الإطراء كان وراء قبولها بعرض عاملة الأظافر.

قبل عودتها إلى البيت عرجت على البارك المحلي. أدهشها التحول الذي طرأ على الأشجار منذ وقوع الحادث. فخضرة أوراقها تحولت إلى اللونين الأصفر والأحمر وما بينهما من درجات. كانت الأشجار على وشك الوصول إلى التعرية الكاملة، إذ راحت تنفض بغزارة أوراقها، لتوشّي لون الحشيش الأخضر بألوان شاحبة. بدت الأشجار لـ''بيداء'' كأنها تهيئ نفسها بحماس كبير للشتاء الموشك على الوصول: لموتها. مرت بالساحة المخصصة لألعاب الأطفال. كان هناك عدد منهم برفقة ذويهم، وراح بعضهم يتسلق المُزحلِقة. شعرت بانقباض، فدفعت قدميها للخروج عن الطريق الإسمنتي المخصص للمشي والاندفاع وسط المرج الأخضر، وتحت خفقات حذائها كان بإمكانها أن تسمع تكسر بعض الأوراق الصفراء التي احتفظت بجفافها تحت تأثير صحو نادر اعترى السماء ذلك النهار.

* * *

كان الغروب على وشك الانطفاء عند وصولها إلى البيت. شاهدت سيارة ''شهرزاد'' واقفة أمامه، فشعرت بدوار خفيف. برز سؤال في سريرتها ثم اختفى سريعا من دون أن يترك أثرا وراءه عدا الارتباك الذي راح يتسرب إلى أنفاسها: "هل حضر ''صالح'' أيضا؟" وفي الداخل استقبلها ضجيج لم تتوقعه: كان أطفالها موزعين بين الضيوف الثلاثة: ''شهرزاد'' و''صالح''

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

و''هيلين''. وراح كل منهم يسعى إلى انتزاع أقصى الانتباه إليه. التفت ''عبدل'' إليها مندهشا. قال بنبرة ساخرة مبطنة، بعد أن ألقى نظرة سريعة على شعر بنت عمتها: "أصبحت تشبهين ''شهرزاد'' كثيرا"، لكن الأخرى تدخلت للتخفيف من مشاعر الحرج التي طفت على عيني ''بيداء'': "كم أتمنى لو كان كلامك صحيحا". أضاف ''صالح'' بعفوية: "هذا يناسبك أكثر"، وفوق عينيه لمحت إعجابا خفيا بها، تمثَّل بتلك الابتسامة الواهية واسترخاء عضلات العينين، كأنها سمعته يهمس في أذنها من دون كلمات: "كنت أحلم بأن تكوني بهذا الشكل".

لا بدّ أنهم جميعا اندهشوا بالتحسن الهائل الذي طرأ عليها، إذ لم تمض سوى أربعة أيام على زيارة ''شهرزاد'' الأخيرة لها. حينما ظلت ''بيداء'' ملازمة حجرة النوم، على الرغم من تكرار دق ''عبدل'' للباب الذي أغلقته وراءها، ليبشرها بقدوم قريبتها. كانت في تلك الساعة تحت نوبة غضب عاصف تتساقط سهامه عليها لتنتقل صوب زوجها ثم ترتد ثانية نحوها. اندفعت لا إراديا في تمزيق ملابسها الداخلية، قطعة قطعة، بأسنانها وأصابعها. وعند قدوم ''عبدل'' للنوم في ساعة متأخرة بعد مغادرة ''شهرزاد'' وهجوع الأطفال كانت أشبه ببالون فارغ. ومن وسط تلك العتبة الواقعة بين النوم واليقظة، مدت بأطراف أصابعها لتلامس ظهره الذي بدا لها جدارا عازلا يقيه من فيض الكراهية الجارف الممزوج بأنفاسها، لكن ''عبدل'' فسر مداعبتها علامة على حاجتها للجنس، وعلى شفائها التام. وحينما التفت إليها سحبته إليها بأصابع كلتا يديها. ها هما بعد انقطاع طويل يعاودان لعبة الجذب والدفع، لكن الشيء الجديد الذي ضاعف من تهيجه تحكم ''بيداء'' بحركته، مثلما كانت الحال مع ''جوانا''. ها هي تتسلل يدها اليمنى، على الرغم من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الظلمة المطبقة، إلى عضوه المنتفخ لتسحبه بإصرار صوب زهرتها، ثم تتركه يمضي متسارعا في الولوج إلى خباياها.

بين عنفوان اجتياح اللذة التي لم تعرفها من قبل والألم الذي تراءى لها عن طعن نفسها بخنجر وهمي ظلت ''بيداء'' تتقلب بين نوبات مشاعر جامحة تسكن قلبها لأقل من ثانية تم تنسل ليزورها شعور آخر على جناح صورة حياتية مرت بها أخيرا.

استرجعت الدمدمة الناجمة عن أحاديث الكبار وتدخلات الأطفال. ظهرت في مخيلتها صورة أشجار البارك الشاحبة وأوراقها، جنبا إلى جنب مع ذلك الضياء الصاخب فوق قممها أو مفروشا على أطراف البارك الفسيحة، ليخلق ذلك الشعور الذي سكنها آنذاك من دون أن تتمكن من إدراكه إلا في هذه اللحظة: المزيج بين الرغبة العميقة بالموت والتوق الشديد للبدء بحياة أخرى، لا تمتّ بصلة لحياتها الحالية، في مكان وزمان آخرين. استرجعت لثانية تلك المضاجعة القصيرة الجامحة قبل أربعة أيام فقط لا كتفاصيل بل كشعور محض، كيف سهّلت الكراهية البحتة التي لم تعرفها من قبل في تلمس متعة قرأت وسمعت كثيرا عنها من دون أن تعيشها. فلأول مرة تخلت ''بيداء'' عن التسلق إلى السقف كما اعتادت لتترك جسدها بين يدي ''عبدل'' يقلبه كيفما يشاء. بدلا من ذلك، انغمرت مع جسدها في تلمس تلك الارتجافات التي كانت تقودها بدأب وإصرار خطوة خطوة عبر شق نفق ضيق يؤول إلى باب تسكن وراءه الشمس وتنتفي فيه قوة الجاذبية. كأن الكراهية أصبحت آنذاك درعا يحميها من الآخر ويجعله في الوقت نفسه أداة محايدة قادرة على منح إمتاع وتعذيب جارفين في آن واحد.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

حينما غادر الضيوف، عادت ''بيداء'' إلى حجرة الجلوس. رمت بجسدها فوق الكنبة: في المكان الذي جلس ''صالح'' عليه. سألها ''عبدل'' إن كانت تريد النوم لكنها لم تميز أيا من كلماته. كانت تشعر كأنها تحت وطأة أفيون تسرب في عروقها فنمّل خلاياها. ها هي تتلمس غمازتيها البارزتين فتستلم أطراف أصابعها وهجهما فقط. تلمست حافة الكنبة حيث ظل ''صالح'' مسندا كوعه. استرجعت ذاكرتها مرارا ما جرى قبل دقائق. مع ذلك راودها الشك بحقيقته، بل بدا لها حلما قصيرا راودها خلال إغفائها لحظة واحدة: بعد أن قبّلت ''شهرزاد'' و''هيلين'' مودعة مدت يدها إلى ''صالح'' كالعادة لمصافحته بشكل رسمي، وإذ تلامست أصابعهما شعرت بقوة خفية تدفعها للضغط على كفه لأقل من ثانية. سكنها خجل عاصف في تلك اللحظة وحاولت أن تسحب يدها، لكنها وجدت الآخر متشبثا بها. كانت ضغطاته الثلاث أشبه بتيار كهربائي أوصلها إلى حدود الإغماء نظرت إليه متوسلة فحل وثاقها ليردد قبل مغادرته البيت وهو ينظر صوب ''عبدل'': "نراكم قريبا".

* * *

مع ذلك، لم يبادر ''صالح'' بأي خطوة أخرى، حتى تسرب إليها الشك في حقيقة استجابته لأصابعها الطائشة. فكيف يمكن لرجل يحظى بعلاقة متحررة مع امرأة متميزة كـ''شهرزاد'' أن ينجذب إلى امرأة نكرة مثلها؟ حتى لو أنها أجمل وأصغر سنا من بنت عمتها، إذ يكفي أن تكون زوجة ''عبدل'' كي تنكمش نفسه منها. كم كانت تلمح ابتسامات ساخرة يتبادلها ''صالح'' و''شهرزاد'' سرا أثناء انغمار زوجها متباهيا بحديث ممل عن أحد مشاريعه التجارية، مما كان يجعلها منكمشة خجلا فوق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كرسيها، أو يدفعها للتذرع بالذهاب إلى الطابق الأعلى لرؤية أطفالها. لكنها منذ زيارتهما الأخيرة أصبحت أكثر ترددا على المرآة مما كانت عليه بكثير. ومع التفاصيل التي تعرفها عن جسد ''شهرزاد''، راحت تجري مقارنة بينها وبين الأخرى: الرشاقة، اتساق الساقين، تقوس الردفين ومدى اتساع الوركين. كان كل شيء يشير إلى رجحان الكفة لصالحها. عدا تلك الجاذبية التي تمتلكها فقط ''شهرزاد'': كان الكل يسعى إلى كسب اهتمامها حتى حين التزامها الصمت، لتصبح ضمن أي لقاء مركزا يحفز الآخرين على الخوض بأطراف الحديث. كيف وصلت بنت عمتها إلى هذا الموقع وهي التي لا تتذكر عنها من بغداد سوى صورة باهتة عن فتاة خجولة منكمشة على نفسها. كم تمنت لو تستطيع اكتشاف الطريق الذي مضت فيه ''شهرزاد'' منذ مغادرتها الوطن. وإذا تراوح شعور ''بيداء'' تجاه ''شهرزاد'' قبل وقوع الحادث بين الإعجاب المتطرف بها والاشمئزاز العميق منها، فإن دعمها غير المتوقع لها بعد وفاة ''سليم'' أقصى الشعور الثاني عنها. لكنها تدريجيا بدأت تميل إلى تقليدها. بل حتى أثناء إقامتها في المستشفى كانت تستطيع أن تلتقط، من وقت إلى آخر، بين حنجرتها نبرة شبيهة بنبرة ''شهرزاد''.

مع ذلك، أبقت الأخرى ذلك الحاجز الفاصل الذي لا يجيد وضعه سوى الأطباء بينهم وبين مرضاهم. لكن ''بيداء'' اعتبرته لا شعوريا حاجزا بين القوة والضآلة، ولن يكون ممكنا تخطي ذلك الحاجز إلا بتبني شخصية الأخرى كليا، ثم الشروع في منافستها. كأن ''شهرزاد'' التي أحاطت ''بيداء'' بعناية خاصة وحميمة، خلال تلك الفترة، شاركت لا إراديا بتحويلها إلى خصم عنيد لها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أمام مرآة الحلاق، انتابها إحساس غامض بنجاحها أخيرا في اجتياز الحاجز، لحظة انتهاء الآخر من تثبيت شعرها، ثم إطرائها. لكن شكا من نوع خاص سكنها بعد انقضاء أسبوعين عن تلك الملامسة العاصفة: تراءى لها ''صالح'' مستلقيا جنب ''شهرزاد''، وتحت دافع رغبته بإضحاكها بعد شوط جسدي شائق معها راح يسرد لها ما قامت به بنت خالها. تلتفت إليه الأخرى متشككة أولا، لكنها تحت إصرار عينيه وتأكيده القاطع تصدقه، فتنفجر بالضحك. تلتفت إليه بعد قليل مستدركة لتردد بنبرة حزينة مفتعلة: "إنها مريضة، هل نسيت ذلك؟ صحيح، أنت لم ترها في المستشفى". راودها هاجس التوقع بأن تتصل ''شهرزاد'' هاتفيا بـ''عبدل'' لتخبره بما جرى، فعمّق لديها خوفا لا إراديا كلما دق جرس التلفون. كانت معلَّقة آنذاك بين عتلتين: أمل يائس بالاستماع إلى صوت ''صالح'' وخوف شديد من صوت بنت عمتها.

لكنها استيقظت ذات صباح على قرار غريب حضرها فجأة آنذاك كومضة برق، ودفع بالدماء للجريان بقوة في عروقها: أن تشطب الماضي الذي ما عاد له أي وجود إلا عبر مخلفاته. ها هي تخرج رزمة رسائل الأب وصوره القديمة، ثم تسحب ألبوما سريا لصورها مع ''سليم'' كانت تأخذها من وقت إلى آخر في محلات التصوير الأوتوماتيكي. ألقت نظرة على بعضها فلم يثر أي منها شيئا في نفسها. كأنها إشارات قادمة من كوكب آخر. وحينما مزقت واحدة منها شعرت للحظة بانخلاع قلبها. لملمت كل ذخيرتها ونقلتها إلى الحديقة. وهناك راحت ترمي بها واحدة بعد الأخرى إلى ألسنة النار التي أوقدتها في الشواية.

حال الانتهاء منها سكنتها خفة غريبة جعلت جسدها يبدو

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كأنه يعوم حرا في الفراغ. اندفعت صوب حجرة ''سليم'' التي ظلت مقفلة منذ موته. بدا لها لون الجدران مختلفا عما كان عليه من قبل: الزرقة الباهتة أصبحت أغمق. لكن الفراش حافظ على فوضاه، كأن طفلها لم يترك سريره إلا قبل دقائق، كذلك هي الحال مع رسومه التي لا تعدو أن تكون خطوطا وبقعا ملونة بدت لها فوق الجدران إشارات غامضة لا تمتّ بصلة لابنها لكنها أثارت في نفسها توقا غير قابل للتعريف. اتصلت بمحل متخصص في بيع الأثاث المستعمل، وعرضت على صاحبه سرير ''سليم'' وخزانة ملابسه مجانا. جمعت كل ملابسه وألعابه في حقيبتين كبيرتين وثلاثة أكياس بلاستيكية، ثم أخذتهما في سيارة أجرة إلى محل قريب يعود إلى جمعية خيرية. وعند حلول الليل كانت الحجرة خالية تماما إلا من الرسوم. قالت ''بيداء'' لـ''عبدل'' الذي ظل صامتا: "سأنام في الحجرة الأخرى". ولم تأخذ سوى اللحاف المخصص للضيوف ووسادة واحدة، مكتفية ببساط الحجرة السميك.

كانت ليلتها الأولى حافلة بأحلام مفككة متداخلة بعضها ببعض. بين الفينة والأخرى كانت تستيقظ على بكاء طفل فتذهب لرؤية صغارها، لكنهم بدوا دائما غارقين في نومهم. تمكنت وسط العتمة المطبقة أن تسترجع حلما قصيرا شاهدته قبل دقائق: كانت تسير في مرج أخضر واسع مع ''شهرزاد'' التي ظلت تحمل مظلة واسعة غطت كلا رأسيهما. انتابها شعور بالاستغراب من تصرف بنت عمتها، إذ كانت السماء صافية تماما، وكأن الأخرى قرأت ما دار في ذهنها: "انتظري وسترين". تبدل المشهد فجأة. فبدلا من ذلك الحقل، كانت على حافة جرف شاهق تصارع وسط أمطار غزيرة للتشبث ضد السقوط، عبر مسك حجارة ناتئة. بالمقابل لم تلق صرخات

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

استغاثتها استجابة من ''شهرزاد'' التي ظلت تتابع خطواتها تحت مظلتها. لكن يدين قويتين قبضتا على ساعديها بقوة وراحتا تسحبانها بدأب. حينما أمعنت النظر في وجه الرجل الغريب بدا لها وسط الضباب والعتمة شبيها بوجه ''صالح''، فاستيقظت فزعة.

* * *

مع ذلك، لم تستطع التخلص حقا من ذلك الشعور بالفراغ الذي تركه غياب ''سليم'' في نفسها. بل لعله كان أكثر من ذلك: مزيجا زئبقيا من توق وحيرة وندم، ظل يدفعها للتنقل من دون هوادة صعودا وهبوطا بين طابقي الدار، حتى بعد نجاحها في إيقاف الذاكرة من استحضاره. كانت كبسولة الفراغ تتحرك صوب الآخرين لتوقظ أحاسيس متناقضة فيها. فعند حضور اسم ''صالح'' إلى مخيلتها يسترجع جسدها تلك الحمى التي سرت فيها لحظة تلامس أصابعهما معا، مصحوبا بالخجل والرغبة بالاختفاء عن الوجود، بينما لا تثير ''شهرزاد'' في نفسها إلا خوفا وشعورا مبهما بالفشل. تندفع مبتعدة عن بنت عمتها صوب ''عبدل'' فيستيقظ الغضب مرة أخرى في أنفاسها.

لكن استيلاءها على حجرة ''سليم'' أيقظ فيها تدريجيا شعورا بالتواطؤ مع ''عبدل'': إذا كان هو المسؤول عن سقوطه من النافذة، فهي المسؤولة عن التخلص من آثاره. ها هي تتلفت حولها فلا تجد أي شيء يشير إلى بقاء ابنها في البيت سبعة أعوام. بل حتى الأطفال تواطئوا معها، فلا أحد منهم يذكر اسمه. ولن يكف أي منهم عن القدوم إليها شاكيا من غيره، بأسلوب مبالغ به، كسبا لعطفها وانحيازها معه. تحضرها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

للحظة صورة ''سليم''، وولعه الشديد بأخوته على الرغم من ولعهم بإيذائه. فما أن يطلب أحدهم لعبة ما منه حتى يسارع بابتهاج في منحه إياها، ناسيا الصفعات التي كالها الآخر له قبل دقائق. راودت ''بيداء'' فكرة غريبة للحظة واحدة: الطيبة الخالصة معجونة من البلاهة والشر الخالص ثمرة الذكاء الأولى.

* * *

استيقظت على صخب جرس الهاتف. ومن سريرها سمعت صوت ''عبدل'' يلعلع بعبارات الترحيب: "أهلا بكم... ننتظركم غدا على العشاء". توقعت أن تكون ''شهرزاد'' على الخط، لكن زوجها فاجأها حينما قال إنه ''صالح''. تطلعت في وجهه بحثا عن أي أثر للاستغراب من هذه المكالمة، لكنها لم تقرأ سوى ارتياح لفكرة اللقاء. كانت ''شهرزاد'' هي التي تتكلم دائما فما الذي تغير هذه المرة؟ هل توقع ''صالح'' غياب ''عبدل'' عن البيت آنذاك؟ كانت الساعة المنضدية تشير إلى العاشرة والنصف، وغالبا ما يكون زوجها في هذا الوقت بمشغله أو في محلات الأدوات المستعملة، لكنه تأخر اليوم بشكل استثنائي عن مغادرة البيت.

انتابها اضطراب لفكرة رفع سماعة الهاتف وغياب ''عبدل'' عن البيت. ما الذي كان الآخر سيقوله؟ أو لعل ''شهرزاد'' كانت تقف وراءه أثناء حديثه، للتثبت من مزاعمه؟ استرجعت ''بيداء'' تلك النظرات الخاطفة التي تبادلاها في اللقاء الأخير، تشبثه الجريء في متابعة خطواتها. تراءى لها آنذاك أنه كان يجري مقارنة بينها وبين ''شهرزاد''. هل خالجته للحظة واحدة أمنية حلولها محل بنت عمتها؟ تطلعت في المرآة، مررت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أصابعها برفق فوق صدرها هبوطا نحو وركيها. انتقلت إلى شعرها القصير الذي بدا لها على الرغم من تقارب قصته من قصة شعر ''شهرزاد'' أكثر نعومة ووفرة. هل يحب ''صالح'' أن يقبض على خصلات الشعر المتدرج فوق قذال الرأس في لحظات الوهج؟ فإن كان طول بنت عمتها لا يتجاوز حافة كتفه حينما يمشيان جنبا إلى جنب، فإنها لا بدّ أن تعوض ذلك في الفراش، بجعل رأسها مجاورا لرأسه. تستطيع أن تراهما الآن عبر المرآة وهما غارقان وراءها في عمل الحب. ها هي ''شهرزاد'' المعتدّة بنفسها تنتقم من قصرها عبر تقمص دوري الصبي النزق والطبيب المرشد: "توقفْ، اندفعْ، ضع يدك هنا، هناك، احضنّي أكثر..." حضرتها سلسلة أحلام يقظة غريبة قبل عودة الأطفال من المدرسة وانشغالها التام بهم. في واحد منها وجدت ''بيداء'' نفسها مع ''شهرزاد'' جالستين على سرير بنت عمتها الواسع. التفتت الأخرى إليها هامسة بمرح: "أخبرني ''صالح'' بكل شيء"، وحينما قرأت الخجل والانكسار في عينيها ضغطت على كفيها المتلاحمين برقة شديدة: "هذا شيء مألوف لدينا... ". ومن مكانها صاحت على صديقها الواقف وراء الباب. أضافت هامسة لها: "أنا متأكدة أنك ستحبين هذه اللعبة".

* * *

لكنها استيقظت وسط الليل على شعور ملتبس بالوحشة؛ لا بدّ أنها شاهدت كابوسا أخرجها عنوة من عالم الكرى اللدن، ومن ذلك الشغف الحسي اللزج الذي تركه شريط أحلام اليقظة فيها. عبر النافذة، بدت لها شجرة الحور العارية وسط الضباب الشفيف المائل إلى الحمرة قطعة من عالم خيالي، لا يمت بصلة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

للواقع الذي راح يتفكك حولها. تلمست جدران الحجرة وستارة النافذة الزرقاء سعيا لإثارة ذاكرتها: أين هي الآن؟ استلقت على الأرضية ثم غطت جسدها ورأسها باللحاف. برزت لها كريّات ملونة تسبح بحرية في فضاء وهمي فبعثت في نفسها بهجة متوحشة، ثم راحت الحجرة تدور بإيقاع متوافق مع حركة الكريات. مدت يدها غريزيا للتشبث بجسم صلب يمنعها من الانفلات فأمسكت بذراع ''عبدل'' الذي تسلل إلى حجرة ''سليم'' في إحدى لحظات إغفائها الأخيرة. دمدمت هاذية: "شدّني بقوة".

استدرجت تدريجيا أصابع زوجها وقبلاته جسدها للانجذاب إليه، لكن عقلها الواقع بين عالمي الصحو والنوم، بين الوهم والحقيقة، جعلها عاجزة عن التعرف على الآخر، الذي راح يعريها شيئا فشيئا. حضرها أنين ''شهرزاد''، وفي هذه المرة اخترقت الحجرة لتتابع المشهد عن قرب. وكلما مضى ''عبدل'' خطوة أبعد كانت ملامح بنت عمتها تصبح أكثر فأكثر شبها بها. اندفعت في تقليد ذلك الصوت المتوحش الذي خرق آنذاك بإصرار جدران الحجرة، كي يضعها أمام عالم لم يراودها وجوده من قبل. ها هي تتماهى كليا مع الأخرى على فراشها الوثير. وحينما غادر ''عبدل'' حجرة ''سليم''، راضيا على حصاد تلك الليلة، ظلت ''بيداء'' محتضنة وسادتها.

* * *

وصل ''صالح'' و''شهرزاد'' مساء. كانت ساعة المطبخ الجدارية تشير إلى السادسة وخمسة. لكن العتمة كانت مضاعفة بسبب الغيوم الكثيفة التي ظلت لابثة طوال اليوم مما

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

جعل الوقت يبدو أكثر تأخرا بكثير. مع ذلك كان الجو شديد الدفء لبداية ديسمبر. قال ''عبدل'' وهو يستقبلهما عند الباب الخارجي بعد أن عبّرت ''شهرزاد'' عن أمنيتها بنزول الثلج قبل أعياد الميلاد: "سيكون لدينا شتاء هندي هذه السنة". قال صالح: "لا تتسرع في الأحكام...الطقس البريطاني ماكر جدا".

بعد استقبال ضيفيها ومرافقتهما إلى حجرة الجلوس، مضت ''بيداء'' إلى المطبخ لإعداد الشاي. شعرت آنذاك كأن رئتيها تقلصتا، مما عرقل تدفق الهواء إليهما، عزت حالتها إلى البلوفر السميك الذي كانت ترتديه فتخلت عنه من دون جدوى. فتحت النافذة. جذبتها ظلال الأشجار المتسمرة وسط الهواء الثقيل. كان كل شيء حولها ينبئ بوقوع العاصفة، لكن المناخ في تلك اللحظة لم يخلق في نفسها سوى ذلك التوق غير القابل للتعريف. جاءها صوت مفاجئ: "هل من الممكن أن تعطيني كأس ماء"، وحينما التفتت صوبه لم تصدق عينيها. كان ''صالح'' واقفا بجوار الباب، في الفراغ الفاصل بين المطبخ والممر المعتم مما منح وجهه إضاءة أشد لكنه في الوقت نفسه بدا غريبا عن ذلك الشخص الذي رأته قبل دقائق برفقة ''شهرزاد''. اندفعت تحت وطأة المفاجأة تبحث عن الكؤوس في عدة خزانات صغيرة، على الرغم من وجود صف منها فوق المائدة، ولا بدّ أن ''صالح'' اكتشف ذلك الارتباك الذي تسرب إلى ''بيداء'' حال ظهوره أمامها، فتقدم خطوات إلى الكؤوس التي لمحها: "ها هي".

وقفا وجها لوجه، تفصلهما مسافة قدمين، ومن الحجرة الأخرى كانت تصلهما أصوات متفرقة. مد ''صالح'' كأسا فارغة لها، لكنها تلمست في عينيه الضاحكتين تلذذه بارتباكها. فضغطت بأسنانها على حافة شفتها السفلى. راودها هلع من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

فكرة أن يمسك يدها، فراحت تسعى إلى إخفائه عبر انشغالها بملء الكأس بالماء المعدني.

قال ''صالح'' مازحا: "إنه ماء حقيقي كيف صنعته؟" فرددت بنبرة غريبة عنها: "هذا سرّ". أضاف الآخر بابتهاج قبل عودته إلى غرفة الضيوف: "أرجو أن تكشفيه لي يوما".

تحركت في الفراغ بانتشاء، كأنها كانت تسعى إلى ملامسة موجات الهواء التي حملت صوت ''صالح''. اتجهت لا إراديا إلى الطاولة، فرفعت كأسه وراحت ترتشف قطرات الماء المتبقية فيه، بينما راحت عيناها تبحثان عن موقع شفتيه فوق حافة الكأس.

* * *

أثناء تناول العشاء، ظلت عيناها تختلسان النظر إلى ''صالح'' الذي بدا لها منغمراً بشهية في الأكل. أثنت ''شهرزاد'' على طبخها: "هذا يذكرني بأسلوب أمي"، ثم انصرف الثلاثة في حديث متقطع لم تكن ''بيداء'' تسمع منه سوى إيقاعه، لكن حواسها ظلت تستيقظ كلما نطق ''صالح'' بعبارة، كأن درجة الانتباه المتطرف جعلتها عاجزة عن فهم كلماته، بدلا من ذلك، كانت تتنفس صوته، فترجّع خلايا جسدها الصدى عبر الاقتراب منه خارج إرادتها، عبر انحباس الهواء الحامل لها بين شعاب رئتيها، وحينما كانت تنجح أخيرا في نفثه تحل محله حرقة، تبعث في روحها خدرا مجنَّحا رائقا. كانت ''بيداء'' تجلس إلى جوار ''عبدل'' وأمامهما كانت تجلس ''شهرزاد'' و''صالح''. وتحت حجة العناية بضيفيها وزوجها، ظلت تدس في صحونهم أطعمة يتراوح مذاقها بين المالح

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

والحامض والحلو، وحينما يلتفت أحدهم إليها مستفسرا عن سبب تجنبها للأكل، كانت تدفع عن مضض بلقمة صغيرة إلى فمها، لكنها تعتذر بعد قليل متحججة بذريعة مثل إلقاء نظرة على صغارها، كي تتمكن من الهروب إلى الحمام والتخلص منها.

لم يحدث ذلك التماس إلا بعد تقديم الشاي والحلوى، وبعد تنظيف الطاولة من الصحون وفضلات الأطعمة، حيث قام ''صالح'' بمساعدتها في أداء تلك المهمة. وحينما تلامس قميصه بقميصها لحظة وضعهما الصحون في المجلى، اضطرت إلى مسك حافته تجنبا للسقوط الناجم عن دوار مفاجئ داهمها.

مع ذلك، ظلت موقنة من وجود هوة كبيرة تفصلها عن ''صالح'': وكل تلك الابتسامات والعبارات الرائقة التي كان يرميها لها ليست ناجمة إلا عن شفقة محض. وحينما طافت تلك القناعة في خاطرها لحظة واحدة خلقت في نفسها شعورا بالنفور منه ومن ''شهرزاد''. لا بدّ أنهما سيتحدثان عنها في الفراش: كم تمكنت من تجاوز المرض وكم ظل عالقا بها منه. ها هي تلمح بنت عمتها تتابع خطواتها بفضول بحثا عن خلل ما فيها.

انتقت أجمل ما في البيت من أكواب خزفية لتقديم الشاي، ومعها وضعت ملاعق ذهبية اللون. "ما رأيكم بإشعال الشموع؟" قال ''عبدل''. فأبدى الكل حماسا للفكرة. عبر النافذة تسرب إليهم شدو متقطع لطائر الشحرور، على الرغم من تأخر الوقت، ولعل دفء الطقس غير العادي ولون الغيوم المشرّب بلون طيني متألق خلق لديه وهماً بحلول الفجر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

كـان كـل شـيء حـولهم يغـري بمغـادرة المطـبخ الصـغير والخروج إلـى الشـارع. مـع ذلـك ظلـوا مسمَّرين وسط نبضـات الضوء الخافت المنبعث من الشموع. تـراءى لهـا مشـهد البـارك المحلي بظـلال أشجاره العاريـة وكـادت تعـرض علـيهم الـذهاب إليه في ذلك الوقت لكن الخوف من تأويل عرضـها علامـة علـى جنونهـا جعلهـا تمتنـع عـن الكـلام. بـدلا مـن ذلـك، قادتهـا أحـلام اليقظـة إلـى هنـاك بسـهولة. هـا هـي تـرى نفسـها تـركض وسـط مـرج واسـع تحـيط بـه أشـجار الأرز ووراءهـا كـان يعـدو ''صـالح''. كانـت خطواتهمـا تنـدفع صـوب تلـك الرابيـة الكثيفـة بأشـجار السـنديان والـزان، إذ تركـا هنـاك خيمـة صـغيرة ستحتويهما الليل كله.

استرجع الآخرون جو الحديث المرح، فتظـاهرت بالاستماع إليهم، ومشاركتهم الضحك حال تألق عيني ''شهرزاد'' وانفراج مبسـمها. عرضـت علـيهم وجبـة أخـرى مـن الشـاي، وقبـل أن يعبّروا عن موافقتهم نهضـت مـن مكانهـا لإعداده. تجنبـت عنـد دفـع كرسيها إلـى الـوراء النظـر إلـى ''صـالح'' الجـالس أمامهـا، مثلما هـي الحـال طـوال الجلسـة، علـى الـرغم مـن ذلـك الهـاجس القوي الذي ظل يعتمل في داخلها من أنه كان هنـاك مثبِّتـا بعنـاد عينيه عليها، وإن عليها تجنبه خوفا من افتضـاح مشـاعرها أمـام ''شهرزاد'' و''عبدل''. غزتها للحظة فكرة غريبـة: أن يكـون مـا يعتمل في أعماقهـا مكشـوفا لهمـا، فبعثـت فـي أوصـالها الرعـب، ودفعتهـا لمغـادرة المطـبخ، متذرعـة بإلقـاء نظـرة علـى أطفالهـا النائمين. وحينما عادت إلى مقعدها رأتهم منغمـرين فـي احتسـاء آخر جرعة من الشاي. ألقت ''شـهرزاد'' نظـرة علـى ''صـالح'' حاثـة إيـاه علـى التهيـؤ للمغـادرة، ثـم التفتـت إليهـا: "لا بـدّ أن ''بيداء'' تشعر بالتعب بعد كل هذا المجهود". آنذاك، ودون أن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تراودها للحظة واحدة إمكانية حدوث أي تماس متعمد بـ''صالح''، شعرت بضغط خفيف فوق حذائها. في البدء ظنت ذلك مجرد هفوة غير مقصودة، لكن استمرار الضغط الخفيف في شكل مداعبة راحت خلالها القدم الغريبة المتسللة تتنقل في حركتها بين طرفي حذائها الأيمن ثم تندس قليلا تحته أو تتسلق فوقه، وحينما سلطت عينيها لأول مرة على عيني ''صالح'' لاستكشاف ما يجري تحت الطاولة لم تقرأ فيهما سوى حيادية مخادعة. كادت تمسها الدغدغة، وهي تخلع في مخيلتها الحذاءين المتماسّين اللذين راحا يتحاوران بشغف أكبر، لتجد بدلا من ذلك القدمين العاريتين منغمرتين في لعب لا تجيده سوى قطتين صغيرتين عابثتين.

* * *

في الصباح اللاحق رن جرس الهاتف، وقبل أن تصل إليه توقف الضجيج. لكنه استرجع نبرته ثانية بعد ابتعادها عنه قليلا. كان هاجسها أنه ''صالح''، وحينما رفعت السماعة جاءها صوت بدا غريبا عن أذنها، ولا بدّ أن الآخر شعر ببرودة ردة فعلها: "هل الوقت غير مناسب؟" فاستدركت بحماس: "لا، أبدا... لكن نبرتك بدت مختلفة..." قال ''صالح'' مازحا: "أصواتنا تتغير عبر التلفون، لكن المشاعر هي نفسها... لا تنسي أنها المرة الأولى..." ولم تفهم ''بيداء'' ما قصده الآخر بعبارته الأخيرة، مع ذلك رددت: "صحيح". كان ''عبدل'' قد غادر البيت قبل دقائق، ولا بدّ أنه لن يعود قبل الظهر، وهذا ما جعلها تتشبث بالسماعة بقوة على الرغم من شعورها بالاضطراب. بدا لها سلك الهاتف الهابط حتى حافة الجدار والمغروز في الرأس الموصل بالشبكة كأن له امتدادا وهميا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ينتهي عند فم ''صالح''، وهذا ما دفعها إلى ملامسة الجزء الأعلى من السماعة بأصابع يدها الطليقة، سعيا لالتقاط ما كان يبقى من ذبذبات صوت الآخر. تركت عباراتها المقتضبة انطباعا معاكسا في نفس ''صالح'': "يبدو أن مكالمتي ضايقتك". ولم يمنعه من إنهاء المكالمة إلا ذلك النداء المتضرع الذي وصله بعد صمت طويل: "بالعكس...". قال ''صالح'': "خذي رقم تلفون بيتي الآن.؟".

* * *

بادرت بعد ثلاثة أيام إلى مكالمته، وحينما بلغها صوته، انتابها ندم جارف لفعلها؛ بدلا من الشعور بالرضا لتحقيق رغبة عارمة ظلت تعتمل في أنفاسها أياما، ها هي تجد نفسها مسربلة بالخجل والاضطراب. حاولت من دون جدوى استحضار ذلك التوق الذي تغلغل إلى مسام روحها للالتقاء به؛ بدلا من ذلك غمرها شعور بالعار. كأنها برفع السماعة كشفت للجميع عن مكنون جسدها الحقيقي: جسدها المختلف تماما عن ذلك الذي يتعاطى ''عبدل'' معه، أو بصيغة أخرى، وضع ذلك الفيض العاطفي الذي عصف بكيانها موضع العرض. ها هي تجتر بصعوبة عبارات مستهلكة، لا صلة لها بما ظلت تشعر به في كل لحظة: "كيف حالك؟" "أنا... أنا بخير... وأنت؟"

منذ زيارة ''شهرزاد'' و''صالح'' الأخيرة، عاشت ''بيداء'' فوق كوكب آخر، تحكمه قوانين أخرى تجعل جاذبيته أخف بكثير. فلم تكن بحاجة إلا إلى ثوان قليلة لصعود السلالم إلى الطابق الأعلى، وعند تسلقها حافة البارك الحادة كانت ساقاها تندفعان أمامها طليقتين من ثقل جسدها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لا بدّ أن لنهايات الخريف في لندن تأثيرا ما عليها: تلك الغيوم الثقيلة المتقلبة الألوان بين البياض والحمرة التي لا يرى البريطانيون فيها إلا تعبيرا عن الطقس السيئ أصبحت بالنسبة لها أرضا ينمو الشغف بلا تحديد فوقها، وذلك الهواء الساكن المشبع بالطل ظل يحفزها للاتحاد بجزيئاته حتى حينما ينفلق عنها رعد وبرق كانا حتى فترة قصيرة مصدر رعب مرضي لها، لكنها الآن تجدهما تعبيرين عما يعتمل في ثنايا روحها.

جاءها صوت ''صالح'' ليقطع ذلك الصمت الذي حل طويلا بينهما: "أليس ممكنا أن نلتقي؟". "لكننا نلتقي دائما أليس كذلك؟" قالت بعفوية، وكادت تمضي في الإفصاح عن أسرارها؛ كيف أنه أصبح حاضرا معها؛ إليه فقط توجه حديثها حتى حينما تكون بصحبة آخرين؛ وفي لحظات الصمت كان بإمكانها التقاط نبرات صوته عبر الوهم، ليدور بينهما حديث شيق، يفضي كل واحد منهما للآخر بما يدور في رأسه من أفكار شديدة الخصوصية. تخيلته ذات مرة يسألها إن كانت تشعر بالضيق لارتباطه بـ''شهرزاد''، فهزت رأسها نافية بنفس طريقة بنت عمتها الجريئة حينما ترفض فكرة شخص ما.

* * *

سلّمت أخيرا بضرورة اللقاء، بعد أن أصبحت مكالمته فعلا قسريا تقوم به، ولا يخلِّف وراءه سوى خيبة وشكوك جديدة في نفسها. فحال الانتهاء من عبارات التحية المتبادلة تتفتت كل تلك الأفكار والمشاعر التي صممت قبل لحظة على نقلها إليه عبر أسلاك الهاتف، بدلا من ذلك كانت تغزوها صورة ''صالح'' على الطرف الآخر من الخط، وعلى وجهه ملامح السخرية واللامبالاة فيصيبها العيّ والخدر. وحالما تعيد السماعة إلى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

موقعها، تبدأ العواصف بالتجمع مرة أخرى لتدفعها مرة أخرى صوب الهاتف. أحيانا، لا يكون ''صالح'' في شقته، فتشعر بالراحة لانعتاقها المؤقت، لكن مخيلتها تتابعه إلى بيت ''شهرزاد''. ها هي تتقمص شخصية بنت عمتها، لتتابع تفاصيل اللقاء العاصف بينهما.

شاهدت ''بيداء'' حلما غريبا، وحينما استيقظت لم تتذكر منه إلا القليل: كانت في حجرة صغيرة شديدة الظلمة وخالية من أي نافذة مما جعلها تفقد الحس بالاتجاهات. اندفعت تتلمس الجدران الناعمة بحثا عن منفذ لها؛ ولا بدّ أنها عثرت على كوة دائرية ما إن دفعت غطاءها حتى تهاوى إلى الخارج. أمامها الآن بحر هادئ والوقت كان قريبا للغروب أو للفجر. اكتشفت فجأة وجود حركة غير عادية: أناس كثيرون يهرعون صوب الشاطئ هربا من خطر ما. وهناك على الرمل رُصفت زوارق خشبية فراحوا يدفعونها بسرعة إلى الماء. هل تسرب إليها الذعر آنذاك أم أنها تلك الخطوات التي راحت تقترب منها كانت وراء سعيها للإفلات من الزنزانة؟ ها هي تدفع برأسها داخل الكوة مع تسرب خشخشة مفاتيح وراء الباب، ثم تحشر كتفيها بصعوبة، وحينما يصبح نصف جسدها في الخارج تكتشف أنها على ارتفاع شاهق. قبل استيقاظها سمعت ضربات الأحذية قادمة من الخلف وحالما فتحت عينيها مذعورة وجدت ''عبدل'' جنبها غارقا في شخيره فتشبثت به.

كان اللقاء بـ''صالح'' أسهل مما تراءى لها. رفعت السماعة بعد خروج زوجها، جاءها صوته مستفسرا، وحالما ميز نبرتها تهادت ذبذباته. "الجو مشمس اليوم" قال مستدركا. سألته بعد صمت طويل: "هل تظنه سيبقى هكذا حتى السبت؟"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

"على الأكثر..." لكنها لم تتمكن من التعرف إلى صوتها الذي بدا لها قادما من جدار سميك: "ما رأيك لو نخرج إذا..." فأسرع ''صالح'' مرددا: "حتى إذا كان الجو سيئا هناك أماكن أخرى نستطيع الذهاب إليها".

* * *

ولم تكن تلك "الأماكن الأخرى" سوى شقته. قالت لـ''عبدل'' قبل خروجها: "أنا ذاهبة إلى شارع أكسفورد لأشتري بعض الحاجيات". وإذ أراد أن يحتج على تركها الأطفال معه حضرت إليه المخاوف من انتكاس حالتها النفسية فجعلته يركن إلى الصمت. ولم يستغرق مشيها سوى دقائق حينما ظهرت سيارة ''صالح'' حسب الموعد الذي اتفقا عليه.

راودها لحظة إغلاقها الباب خوف من تقصي ''عبدل'' لخطواتها فكادت تمد يديها لا إراديا صوب ''صالح'' طلبا للحماية، لكنها تمكنت من التحكم بحركتها. بالمقابل راحت نبضات قلبها تخفق بغزارة جعلتها تشد ذراعيها بشكل غريزي حول صدرها. انتابها هاجس بالموت الوشيك فملأها الرعب من الفضيحة أكثر من أي شيء آخر. أرادت تحت وطأة تسلط هذه الفكرة أن تطلب من ''صالح'' التوقف عن السياقة، فما زال بإمكانها أن تمشي المسافة التي قطعتها سيارته حتى تلك اللحظة لتعود إلى بيتها. ثم رددت وراء شفتيها بتصميم قاطع: "سأوقف هذا الجنون إلى الأبد. أطفالي فقط. لا تلفونات، لا حماقات، لا..." وكأن ''صالح'' كان يقرأ رغبتها الأخيرة حينما ضغط بقوة على الكابح. ها هي فجأة، تجد نفسها قادرة على التراجع وكل ما تحتاج إليه هو مغادرة السيارة. وحالما مدت يدها صوب ذراع الباب اختفى الخفق الحاد ليحل محله انقباض

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

غريب جعلها عاجزة عن الزفير. في تلك اللحظة، كانت تعرف أنه هناك يتابع خطواتها باهتمام كبير، على الرغم من تظاهره بالعكس، مع ذلك فهي لن تستطيع التراجع عن المغادرة من دون أن يبادر هو إلى منعها. بدت تلك الثواني زمنا طويلا ثقيلا حضرت خلالها إلى ذاكرتها كطيف عابر كل سنوات عمرها الهلامية، كل بقعها السوداء التي ظلت تتسرب إليها عبر الكوابيس، كل غيظها المكتوم الذي ما انفك يقضم روحها تجاه ''عبدل''. ولا بدّ أنها اعتبرت حركة ''صالح'' حدثا أقرب للمعجزة عندما مد لها يده آنذاك. كان المطر الذي راح ينقر بانتظام على زجاج النافذة الأمامية قوة حاسمة أخرى دفعتها للاستسلام إلى سحب يده الخفيف ها هي تجد وجهها يقترب من وجهه بعد أن تسللت يده اليمنى لتُسند مؤخرة رأسها. لكنها قاومت سعيه للثم فمها تحت وطأة دوار غامر داهمها فبعث الخوف فيها من توقف قلبها عن النبض. لعلها تخيلت في تلك اللحظة عبء الفضيحة على ''صالح'': كيف سيبرر للشرطة موتها بين ذراعيه؟ أو ما الذي سيقوله الآخرون؟ بدلا من ذلك أبعدت ''بيداء'' رأس ''صالح'' عنها لتمضي في مراقبة عينيه المولهتين آنذاك واضعة كلا صدغيه بين كفيها. كانت تسعى في تلك اللحظات إلى التوثق من حقيقة انشداده لها. وإذ انتابتها القناعة بتحقق ذلك تسرب إليها الشك بحقيقة اللحظة نفسها. ها هي تصغي إلى نقرات المطر على زجاج النافذة حيث يتداخل معها لهاث أنفاسهما المتوثبة. دفنت رأسها فوق صدره. انتابها شعور عميق بأنها تدخل أخيرا بيت أهلها بعد تيه طويل. كانت تستطيع أن ترى نفسها طفلة على سرير والديها الكبير حينما تختبئ تحت اللحاف السميك لتمضي في سباحة وهمية حدودها العالم كله.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بدت لها شقة ''صالح'' أكبر من المرة السابقة، كان قد مضى على قدومها إليها أكثر من سبعة أعوام. ولم يكن مجيئها آنذاك إلا لمساعدة ''عبدل'' في شد قطع المكتبة. ألقت نظرة مواربة عليها فشعرت بالارتباك. بدا لها زوجها آنذاك حريصا على الظهور بمظهر الحِرفي الذي لم يعرف زبونه من قبل. تمنت حينما مد ''صالح'' بالنقود إليه أن تنشق الأرض وتبتلعها. لم تفكر في تلك الزيارة بغرفة نوم ''صالح'' التي تلاصق غرفة الجلوس، لكن السؤال خرق ذهنها الآن بعد مضي دقائق على جلوسها فوق الكنبة الجلدية السوداء: هل سريرها لشخصين؟ تخيلت بنت عمتها وهي تدفع ''صالح'' ساخرة صوب غرفة النوم، ولا بدّ أنها تأتي إلى شقته بصدريتها وسماعتها في وقت الراحة، فالمستشفى الذي تعمل فيه يقع على بعد عشر دقائق مشيا على الأقدام كما قالت ''شهرزاد'' لها. تذكرت كيف ارتسمت ابتسامة تواطؤ فوق وجهيهما حينما أخبرتها قريبتها عن ذلك.

عاد ''صالح'' من المطبخ حاملا صينية صغيرة فيها إبريق وكوبان. قال وهو يضعها فوق الطاولة الواطئة وسط الحجرة: "الشاي الصيني سيدفئك". لكنها بدلا من ذلك شعرت ببرودة تدب في أوصالها، وهي تراقب الآخر الجالس أمامها على كرسي هزاز. بدت المسافة الفاصلة بينهما أكبر من حقيقتها بل لاحت الغرفة أكبر من المرة السابقة، هل هو لون السجاد الجديد الفاتح وراء ذلك؟ حينما حضرت مع زوجها خلق ''صالح'' في نفسها شعورا بالشفقة عليه. كم بدا لها آنذاك أخرق في حركاته المرتبكة، في عروضه المتنوعة أثناء انهماكها و''عبدل'' في تثبيت أجزاء خزانة الكتب: "ما رأيكما بالقهوة الآن؟" وحينما التزم كلاهما الصمت سأل بحماس: "إذن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

عصير برتقال طبيعي". قالت ''بيداء'' وهي تحمل طرف رف خشبي بيديها: "لا تتعب نفسك". التفت ''صالح'' إلى زوجها: "عندك زوجة ماهرة... أنا لا أعرف حتى تثبيت مسمار في الحائط". لكنه الآن شخص آخر في عينيها لا يمت بصلة لذلك الذي رأته في زيارتها الأولى: أجمل، أهدأ، أطول، أكثر أناقة، أخبث، أطرف، وكلما ظل مصرا على البقاء بعيدا عنها ازدادت شغفا به. ها هو يرشف بتأن الشاي الذي لم تتذوقه من قبل والذي لم يترك في فمها سوى مرارة غريبة. "هل وجدت تغييرا في الغرفة؟" سأل ''صالح''، وقبل أن تجيبه أدارت عينيها حولها: كثيرا... أصبحتْ أجمل". شعرت ''بيداء'' بحضور ''شهرزاد'' في الهواء، على الرغم من غياب أي أثر لها. لا بدّ أنها كانت وراء الترتيب الصارم الذي يحكم تفاصيل الغرفة.

غمرتها أمنية قوية واحدة: أن يجلس ''صالح'' الآن إلى جوارها بدلا من البقاء هناك متابعا إياها بشغف رائق. بدت لبيداء المسافة الفاصلة بين موقف السيارات وباب شقته أطول بكثير من حقيقتها، وظل ''صالح'' متقدما أمامها قليلا ليفك أولا باب العمارة الثقيل ثم يسحبه بقوة. في المصعد شعرت بثقل الهواء. كان الذعر يملؤها حتى كادت تطلب منه التوقف والعودة بها من حيث أتت، لكن الكلمات جفت في فمها. شيء واحد منحها الطمأنينة من اعتداء أغراب عليها في تلك البناية المعتمة هو طول قامته الذي سيكون كافيا لحمايتها منهم. قبل أن يفتح ''صالح'' باب شقته جمدت الدماء في أوصالها: بُم... ها هي ''شهرزاد'' أمامها. إنه فخ...مررت أصابعها فوق شعرها سعيا لإقصاء أوهامها. وحينما تحدث ساخرا: "لا بدّ أن عدد المفاتيح في السجن أقل". لم تسمع من كلماته سوى آخرها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مع ذلك هزت رأسها موافقة، ثم قسرت نفسها على ابتسامة لم تلبث أن اختفت وهي تدلف إلى رواق الدخول المعتم.

حضرها سؤال بعد جلوسها على الكنبة وذهابه إلى المطبخ: هل خطط ''صالح'' مسبقا لجلبها إلى بيته؟ شعرت بالانكماش حينما وقعت عيناها لأول مرة على باب حجرة النوم المغلق. راودتها رغبة بالانسلال والخروج من شقته قبل أن يظهر ثانية ليقتادها مثلما يفعل ''عبدل'' إلى السرير. هل هو يهيئ نفسه الآن في الحمّام؟ لكن قدوم ''صالح'' مع صينية الشاي وبقاءه جالسا في طرف الحجرة الآخر سحب تلك الغمامة الثقيلة عنها، ليجعلها تدخل تدريجيا صحوا داخليا غريبا يتعارض مع المطر الشديد الذي راح ينقر بانتظام فوق زجاج النافذة.

* * *

لم يتجاوز الوقت الخامسة حينما دخلت بيتها. مع ذلك كانت العتمة مطبقة. توقعت أن ينفجر ''عبدل'' في وجهها حال ظهورها أمامه لكنها بدلا من ذلك وجدته جالسا باسترخاء مع الأطفال أمام التلفزيون. بدوا لها بملابسهم النظيفة ووجوههم اللامعة كأنهم خرجوا توا من الحمام. ولا بدّ أن وجود الأب منعهم من الركض صوبها، إذ ظل منذ مرضها الأخير يحذرهم من مضايقتها. سألها ''عبدل'' بحيادية تامة إن كانت اشترت أي شيء. "لا". قالت ''بيداء''. "الازدحام كان شديدا...السبت يوم غير مناسب للتسوق". أضافت وهي تخنق ضحكة لا إرادية انفجرت في أعماقها: "الأطفال يحتاجون إلى بعض الملابس الشتوية. سأشتريها لهم بعد غد". هز ''عبدل'' رأسه موافقا من دون أن يلتفت إليها وظلت عيناه ملتصقتين بشاشة التلفزيون تتابعان فيلم ويسْترن قديما. بدت لها الإضاءة أقوى في غرفة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الجلوس وهذا ما جعلها عاجزة عن مراقبة ما حولها لفترة طويلة. كانت الأشياء تكتسب أمام عينيها حواف ضوئية براقة ومتحركة. شعرت أن وقتا طويلا مضى عليها منذ خروجها هذا الصباح. تلمست بشغف الأزهار الصغيرة المنقوشة على قماش المقعد المنفرد. غمرتها رغبة بالنهوض والجلوس وسطهم على الكنبة الكبيرة، بل أن تحضن كل واحد منهم بمن فيهم ''عبدل''. حينما أراد ''صالح'' إيصالها إلى البيت رفضت. شعرت أنها بحاجة إلى فترة فاصلة تقضيها وحدها قبل العودة إلى عالمها المألوف. وقبل وصول المترو ظلت قدماها تتنقلان بلا انتظام فوق الرصيف. بدا لها الهواء أشبه بالكحول قابلا للمسك لكنها حالما تقبض عليه يتبخر من بين أصابعها. جمدت ذاكرتها لحظات مما جعلها عاجزة آنذاك عن معرفة موقعها، ولم تسترجع صلتها بالعالم الخارجي إلا بعد قطع المترو عدة محطات لتكتشف أنها سافرت بالاتجاه المعاكس. غمرها شعور عميق بأن العالم الذي يلفها لم تمض على ولادته سوى ثوان، وأنها لم تحظ بجسدها طوال حياتها إلا في تلك اللحظة، ها هي تتلمس بشغف بشرة وجهها لتهبط بأطراف أصابها اليمنى صوب رقبتها وصدرها. اندفعت ذاكرتها للتجول بانتشاء في تلك الساعات القليلة التي قضتها مع ''صالح''، لكن الصداع راح يتسرب إليها قطرة قطرة كلما أوغلت في استرجاع ذلك الوقت.

"يبدو عليك التعب"، قال ''عبدل''.

"لا شيء... مجرد صداع خفيف".

"الحمام سيريحك كثيرا".

فأشارت برأسها موافقة، وقبل مغادرتها الحجرة كادت تمس

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

شعره من دون أن ينتابها أي شعور بالنفور منه. هل هي عاطفة الشفقة وراء ذلك الميل؟ أم هو شعور بالذنب تسرب إليها عبر صداع نصفي ظل يضغط عليها أكثر فأكثر كلما حاولت مخيلتها استرجاع قبس ما من ساعات النهار الغريبة؟

لم تجد عند خروجها من الحمام الأطفال في غرفة الجلوس، فشعرت في آن بالانقباض والعرفان بالجميل لـ''عبدل''. كانت تنتابها رغبتان آنذاك: أن تكون معهم لتعويضهم قليلا عن حرمانهم منها منذ الصباح، وأن تكون مع ''عبدل'' فقط تخلصا من قبضة الشعور بالذنب الذي ظل مواظبا على ضرب رأسها بمطرقته.

* * *

استيقظت وسط الليل تحت شعور وهمي بأنها نامت طويلا. كانت حمرة الغيوم المتجهمة توحي بحلول الفجر عبر الفتحة القائمة بين ستارتي النافذة، في وقت راح شخير ''عبدل'' الصاخب يقنعها بعكس ذلك. بدا لها نومه العميق تعبيرا عن فرحه بعودتها إلى سريرهما الزوجي. بعد خروجها من الحمّام تسللت من دون أن ينتبه لها إلى حجرة نومهما، ولم تضع على جسدها سوى قميص الساتان القصير. أصرت على إطفاء مصباح الطاولة الصغير المغطى بمظلة حمراء. وفي الظلمة المطبقة امتلأت عيناها بكريات لامعة تتقافز في كل الاتجاهات، وإذ انشغل ''عبدل'' بخلع ثيابه كانت يداها تحثانه لأول مرة على الإسراع، بالمقابل كانت مخيلتها تقصيه عنها لتجلب ''صالح'' محله. مع ذلك كان اندفاعه الأخرق يخرجها من وقت إلى آخر عن دائرة الوهم ليغمرها شعور بالضيق منه.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

رأت نفسها آنذاك كمصباح للزينة يتناوب الاشتعال والانطفاء عليه.

سحبت إحدى ستارتي النافذة، ففاجأها تحول لون السماء إلى بياض كابٍ. انتبهت فجأة إلى سطوح البيوت الإردوازية التي غطاها الوفر. نقّلت عينيها بين أرضية الحديقة البيضاء والأشجار التي تشبثت على غصونها اليابسة القاتمة بقع بيضاء، وحينما رفعت رأسها إلى السماء اكتشفت تساقط رقائق الوفر الغزير الناعم. تراءى لها كأن هبوطه يجري في هيئة نبضات متدفقة جعلها تسترجع تلك اللحظات التي توحدت في أثنائها كليا بـ''صالح'' في وقت كانت نبضات جسديهما العنيفة تتناغم معا في إيقاع وحشي فتدفعهما للتشبث أكثر فأكثر ببعضهما البعض، والمضي أبعد فأبعد صوب المستحيل.

غمرها إحساس جارف أمام هطول الثلج بتوحد مطلق مع القبة البيضاء اللامتناهية. كأن كل رقائق الوفر المتراقصة أمامها راحت تتسرب عبر شعاب خلاياها قبل اندفاعها صوب جذور الأشجار. ها هي تجد نفسها معلقة بين السماء والأرض، مسكونة برغبة عارمة في الموت تعادلها رغبة بالخروج عارية وطمر جسدها تحت الثلج النقي. التفتت إلى الخلف فواجهتها الغرفة المظلمة. راودها الشك بحقيقتها لكن رائحة الجنس المنثور فوق الفراش وشخير ''عبدل'' أعاداها إلى مسار الواقع.

* * *

استيقظت متأخرة على أصوات أطفالها الذين كانوا يحومون قرب حجرة نومها من دون أن ينسوا للحظة نهي أبيهم لهم من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

اختراق بابها، وحينما صاحت على بنتها مدّ الثلاثة برؤوسهم الصغيرة واحدا فوق الآخر، وهم يتطلعون بفضول وخشية إليها. ربتت على السرير داعية إياهم للقدوم إليها فاندفعوا صوبها بقوة حيث راح كل منهم يعرقل الآخر كي يكون هو الأول الذي يتسلق السرير. وجدت ''لبنى'' نفسها آخر من بقي على أرضية الحجرة بعد أن احتل التوأمان أقرب المواقع إلى الأم فراحت تبكي محتجة فما كان منها إلا أن تنهض وتحملها بين ذراعيها.

أزاحت ستارتي النافذة، فسحرها المشهد: كان بهاء اللون الأبيض وصمته خارقين للمألوف، دفع حتى الأطفال إلى رفع رؤوسهم قليلا صوبه قبل أن يعودوا إلى لعبة التخفي تحت اللحاف السميك. ظهرت الأشياء أمامها مكفَّنة ببياض باهت يبتدئ من سمت السماء، وهابطا صوب السقوف والأشجار ليغطي أخيرا حديقة البيت الصغيرة. تمنت لو تكلس الوقت آنذاك على ذلك المشهد: برودة الخارج وبياضه مقابل دفء الداخل وصخبه. وحينما حضر ''عبدل'' تنقّلت عيون الأطفال بين الأب والأم متوجسة. بادرت ''بيداء'' قائلة: "دعهم يلعبون هنا مثلما يريدون". ها هي الأسرة تجتمع في لحظة وفاق نادرة وسط بياض نادر: على حافة السرير جلس الزوج، في الوقت الذي ظل جسدها تحت اللحاف السميك وحولها راح الصغار يتخاصمون لاحتلال أقرب موقع منه. كأنهم جميعا كانوا هنا منذ الأزل، وكأن ''سليم'' لم يكن يوما معهم. حينما كانت جالسة أمس أمام ''صالح'' في بيته بدا لها شبيها بابنها المتوفى. لعلها هي تلك النظرة المستعطفة التي تجمع بعضهما ببعض. ولم تجد صعوبة في أن تطلب منه مثلما كانت تفعل مع ابنها:

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

"تعال هنا"، في وقت راح باطن كفها اليمنى يربت على سطح الكنبة.

أقسمت لنفسها مرارا بأنها لن ترى ''صالح'' مرة أخرى، في وقت راحت أصابع يديها تداعب شعر أطفالها. قال ''عبدل'' بحزم مفتعل: "هيا انهضوا جميعا للفطور".

* * *

في المساء حضرها شعور بالانقباض. بدت لها الأشجار والسقوف والغيوم منغلقة على نفسها. اندفعت للخروج إلى حديقة البيت وتلمس الثلج والطين والعشب بأطراف أصابعها، وحينما لم تثر فيها شيئا راحت تنتزع كرات صغيرة منها وتدفعها إلى فمها. تسرب إليها صوت ''صالح'' بلا كلمات، فمضت تدمدم طاردة إياه. لن تلتقي به غدا مثلما اتفقا.

في الفراش راحت ذاكرتها تستحضر أحداث النهار السابق. ملأها أولا شعور بعدم التصديق. هل حقا وضع ''صالح'' رأسه أولا في حضنها بينما ظلت ساقاه بارزتين من حافة الكنبة؟ كم مضى عليهما قبل أن يدفع بشفتيه صوب منطقة الثوب المتكورة فوق رأسه؟ كانت أصابع يدها اليمنى منغمرة بمداعبة شعره مثلما كانت تفعل مع ''سليم'' حينما فاجأتها ذراعاه اللتان طوقتا أسفل ظهرها. حاصرها شعور بعدم التصديق بل كأن كل ما كان يجري لها محكوم بسرعة متناهية في البطء، وحولها تضاعف جرس الأصوات، تناهى لها حتى هسيس الكنبة الناجم عن ضغط جسديهما المتلهفين فوقها ضجيجا حادا دفع في أنفاسها الخوف وجعلها تتشبث أكثر فأكثر بـ''صالح''.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تتذكر الآن أنها أغفت للحظة شاهدت خلالها حلما قصيرا: ها هي تسير فوق حبل مشدود على طرفي جبلين وتحته كان البحر الهائج. حضرتها فكرة آنذاك: إنها لا تعرف السباحة، فاستيقظت فزعة، لتجد نفسها في حجرة نوم ''صالح'' وسط عتمة مخففة. كان شريط الضوء القادم عبر الباب نصف المغلق كافيا لرؤية حدود وجهه. كانت ذراعه اليسرى مندسة تحت رقبتها بينما راحت يده اليمنى تداعب شعرها القصير. شعرت بارتباك حينما التقت عيناها بعينيه المثبتتين فوق وجهها فدفنت رأسها بصدره، كأنها كانت بفعلها تتابع طقسا قسريا يدفعها من دون إرادتها للمضي أبعد فأبعد في نفق لا نهاية له. حضرتها صورة قريبتها، لعل ذلك يعود إلى وقوع عينيها، لحظةً، على ظهر الباب. هناك كان معلقا روب نسائي لا بد أنه يعود إلى بنت عمتها ولا بد أنه مخصص لجلسات ما بعد عمل الحب. ها هي تسمع نبرتها الجريئة، تتخيلها وهي تتنقل في الشقة بخفة ومرح، أو لعلها تظل عارية، مواصِلةً مناكدة ''صالح'' وتحفظه حتى يلسعها البرد. انتابها، لحظة، خجل من قريبتها وكادت تعتذر له بالنيابة عنها، لكنها اكتشفت هي الأخرى عريها، ولا بد أن ''صالح'' الذي يعطي انطباعا بالعجز خلع ملابسها عنها خلال لحظات إغفاءتها القصيرة. غزتها فكرة أخرى بثت الرعب في نفسها: ماذا لو حضرت ''شهرزاد'' الآن؟ لا بد أنها تمتلك مفتاحا إضافيا للشقة وتستطيع أن تأتي في أي وقت تشاء. تناهى لها صوت المفتاح وهو يدور في قفل الباب فجمد الدم في عروقها. مع ذلك تسربت إليها قوة أخرى لم تكن تتخيل يوما امتلاكها. ها هي تنهض من السرير تحت نظرات ''صالح'' المتولهة لتمضي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

صوب الروب البنفسجي فترتديه. كانت تستطيع حتى من دون النظر إليه، مشاهدة عينيه بعد أن ملأتهما الدهشة.

* * *

رنّت ساعة التنبيه لثوان بدت لها دهرا. كانت منذ وقت طويل على حافة اليقظة لكن الصوت الحاد ذكّرها بموعد الثانية عشرة مع ''صالح''. اتفقا على الذهاب إلى ريجنت بارك لمشاهدة الثلج والبجع الأسود. تثبتت صورة قوية في مخيلتها: ها هما يمشيان هناك وسط الوفر الأبيض جنبا إلى جنب، هي بمعطفها الأسود وهو بمعطفه المطري التبني حيث تطوق ذراعه كتفيها. انقلبت على بطنها، دفعت برأسها تحت الوسادة، أغلقت سمعها بحافتيها، ووسط الظلمة المطبقة برزت أمامها صورة فتاة طافية فوق سطح نهر ضيق ببدلة عرس ناصعة البياض، ومعها كان يجري في حركة بطيئة فيض من البتلات البيضاء، وحينما أمعنت النظر في وجه الغريقة ذكّرها بوجهها قبل عشرين عاما باختلاف واحد فقط: بياضه المتشح بشحوب ناصع.

غمرها الندم وهي تتابع في ذهنها عبور عقرب الدقائق موعد اللقاء. كان بإمكانها أن ترى ''صالح'' اليوم لتخبره على الأقل بقرارها: من الأفضل أن نكف. أنا عندي ثلاثة أطفال وزوج، و''شهرزاد'' بنت عمتي. تلمح ابتسامة فوق عينيه فتشعر بخجل مفاجئ. هل هو يريد تذكيرها بأحداث الأمس؟ كما تشائين، يردد بهدوء. لا أنا أمزح، تجيبه بعد أن انغلقت قصيبات رئتيها على نفسها. أنت بالنسبة لي الهواء الذي أتنفس. شدت الوسادة أكثر فأكثر فوق رأسها بينما راحت أذناها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

تفصلان الضجيج القادم من الشارع لتبقيا هدير سيارة ''صالح'' بعد مغادرته المكان الذي اتفقا عليه.

* * *

أيقظها ''عبدل'' برفق: "هل تريدين صحن شوربة؟" قالت بنبرة اعتذار، "من بعد... أنا عطشانة". تدارك زوجها بعد أن شربت نصف الكأس، "''شهرزاد'' ستزورنا اليوم". خفق قلبها بعنف، أدارت وجهها صوب النافذة. "هل تريدين أن اعتذر منها؟". "لا، نحن لم نرها منذ فترة طويلة". وعلى لسانها جمد سؤال كادت تطلقه: "هل ستأتي وحدها؟"

* * *

عند وصول الضيوف كانت نصف نائمة. لكنها التقطت رنين الجرس وتسربت إلى سمعها نبرات مختلفة. استطاعت أن تميز أصوات أطفالها و''هيلين'' المرحة. راودتها رغبتان متعارضتان في آن: أن يكون ''صالح'' حاضرا وغير حاضر. بدا لها الوقت الذي مضى منذ التقائها به طويلا جدا: ثلاثة أشهر لا ثلاثة أيام قضتها بين طبقتي النوم واليقظة بين الطابق الثاني والأرضي بين الحديقة وغرف البيت. كانت تراقب جسدها وهو يدور طليقا، لكن وراء حنجرتها سكنت صرخة ظلت تقاوم انفجارها. أحيانا كانت تستسلم إلى سكون عذب فترتمي على الفراش متهالكة، مؤملة النفس بنوم عميق، ثم يحضرها عند حافة الصحو الأخير من نقطة مجهولة اسم ''صالح'' جرسا ناعما يتضخم تدريجيا في أذنيها حتى يعيدها إلى دائرة الأرق العميق.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ملأت الدهشة أنفاسها حينما فتحت النافذة: كان الثلج قد اختفى تماما ولم يعد هناك أمامها أي بياض سوى الغيوم الداكنة نفسها التي تكاد تمس الأشجار. بدا لها كل شيء ساكنا بشكل مروع: الهواء، الشجر الجاف، الحشيش وأضواء المصابيح المنبعثة من نوافذ البيوت الخلفية، فعمّق لديها الشعور بوهم الأيام الأخيرة كأن لم يسقط ثلج قط، ولم تلتق بـ''صالح'' آنذاك، ولم تكن هناك أي ليال بيضاء.

دق ''عبدل'' باب الحجرة. "أين أنتِ؟ الكل ينتظرك". "أنا قادمة؛ دقيقة واحدة فقط". ظلت ''بيداء'' جالسة أمام المرآة، إذ راحت تعمق بطبقة الماكياج الأولى إخفاءً لتينك الدائرتين السوداوين حول عينيها والشحوب الذي تشربت بشرتها به. حضرها سؤال جعلها تشعر بالارتباك: "هل اعترف ''صالح'' لـ''شهرزاد'' بالعلاقة؟"، وحينما تمكنت من طرده حضرها سؤال آخر: "هل ستفضحها عيناها بالخيانة؟" لا تتذكر أين قرأت أن النساء مزودات بمجسات يكتشفن بها أسرار أزواجهن. فكرت في قدراتها: إنها تستطيع معرفة ما فعله ''عبدل'' حال دخوله إلى البيت وكلما حضرت قريبتها وصديقها كانت قادرة على التقاط ما قاما به ذلك النهار معا وغالبا ما كان يشعرها ذلك الحدس بالضيق والاستفزاز خصوصا حينما يحضرها شعور بأنهما مارسا الحب قبل وصولهما إلى بيتها بفترة قصيرة.

ساد الصمت للحظة عند دخولها غرفة الجلوس التي بدت لها أصغر من حقيقتها، بينما منحتها المصابيح التي فاضت بأضوائها شعورا بالعوم الطليق في لجة الفراغ. أدهشها استقبال الضيوف لها. احتضنتها ''شهرزاد'' بحرارة غير مألوفة وقبّلت ''هيلين'' بشغف حقيقي وجنتيها وحينما جاء دور

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

’’صالح‘‘ لمصافحتها انكمشت قليلا، حدقت في عينيه بحثا عن ردود فعل غاضبة منها فلم تلمس فيهما سوى حيادية مصطنعة اعتاد كلاهما إظهارها كلما وجدا نفسيهما مع الآخرين.

رن جرس الهاتف في المدخل، فنهض ’’عبدل‘‘ صوبه. تسرب إليهم صوته مرحِّبا: "يجب ألا تتأخروا، سننتظركم على العشاء". قال بعد ظهوره في حجرة الاستقبال، "إنه ’’حسين‘‘... سأل إن كنا نرغب بلقائهم!"

* * *

استرجع الكل خيط النقاش الذي تركوه قبل العشاء عن الحرب بين العراق وإيران. "ستكون أطول حرب في التاريخ.. عشرين أو ثلاثين عاما"، قال ’’حسين‘‘. "أنت متشائم. لن يستطيع صدّام أن يستمر في حربه لأكثر من ستة أشهر أخرى" قال ’’صالح‘‘، فسألته ’’شهرزاد‘‘ ساخرة: "كيف توصلت إلى ذلك؟"، ثم تبادلت ابتسامة تواطؤ مع ’’حسين‘‘. قال ’’صالح‘‘ بانفعال واضح: "جميع القوى السياسية في الداخل ضده بما فيها حزبه الذي قتل أبرز قادته." قاطعهم ’’عبدل‘‘ بحماس: "ما رأيكم بالشاي؟" فأبدى ’’حسين‘‘ تحمسه للفكرة. قالت ’’بيداء‘‘ وهي تنهض من كرسيها المركون في الزاوية: "أنا سأعمله".

كانت منكبة على إعداد الأكواب والصحون حينما جاءها صوته: "تحتاجين أي مساعدة؟" التفتت إليه، كان يقف قرب باب المطبخ وموشكا على صعود السلّم للذهاب إلى الحمّام. تملكها اضطراب شامل. بدت لها تلك اللحظة هي الأخيرة التي ستراه فيها، في وقت راحت يداها ترتعشان أمامها. ها هي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تشاهد قدميها تندفعان من دون إرادتها صوبه فتجره أصابعها إلى داخل المطبخ وتغلق الباب وراءهما. كان بإمكانها أن تسمع أطراف الحديث في الغرفة المجاورة التي لا تفصلها عنهما سوى مسافة مترين فتزيدها تهورا. شبكت ذراعيها وراء رأسه ودفعت بجسدها إلى جسده كأنها كانت تريد محو الفراغ الفاصل بينهما ولم يكن أمام الآخر سوى تطويق خصرها مما منحها القدرة على التعلق أكثر به إلى حد ارتفاع قدميها عن الأرض لحظة عناقهما.

طفح الارتباك على وجه ''صالح''، ففسرته للحظة دليلا على النفور منها، ولا بد أنه قرأ آثار الصدمة فوق وجهها، همس في أذنها بابتسامة مطمئنة: "إنهم ينتظرون الشاي"، فاسترجعت صلتها بالحاضر. اندفعت لآخر مرة تطبع قبلة عميقة على شفتي ''صالح'' في وقت حضرت صورة بنت عمتها إليها. غمرها للحظة شعور غريب بالتكافؤ معها لكنه اختفى ليحل محله خوف غريزي من احتمال قدوم أحد ما من الغرفة المجاورة. دفعت بجسدها عنه ومضت إلى الطاولة لتكمل إعداد الأكواب، بينما انسل ''صالح'' من المطبخ.

* * *

قبل مغادرة ''حسين'' وأسرته البيت تدارك موجها حديثه إلى ''شهرزاد'': "أمس جلبوا إلى المستشفى امرأة دهسها المترو". توقف قليلا تحت علامات الدهشة التي علت وجوه الحاضرين ليضيف بنبرة محايدة: "ولم تبق سوى دقائق في قسم الإنعاش قبل موتها". سألت ''شهرزاد'': "ماذا حدث لها؟" أجاب ''حسين''، "أنا لم أرها لكن الذين شاهدوها قالوا إن موتها كان رحمة". سأل ''صالح'' عن كيفية وقوع الحادث. "يبدو أنها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

رمت بنفسها أو رماها أحد من الرصيف قبل وصول القطار"، قال ''حسين'' ثم استطرد، "أو لعلها سقطت بعد أن فقدت توازنها أو نتيجة لضغط الازدحام... هناك آلاف الأسباب كما تعلم". استفسر ''عبدل'' عن اسم المحطة التي وقع فيها الحادث فأثار سؤاله استغرابا قرأته ''بيداء'' على الوجوه وجعلها تشعر بالانكماش. "لا أعرف"، قال ''حسين''، وقبل أن يتجه إلى الباب الخارجي اندفع ''عبدل'' منتقدا سوء الخدمات في لندن. "لا يمكن مقارنة المترو هنا بأي مترو في أوروبا. إنه عالم ثالث حقا" أضاف ''عبدل'' بنبرة حادة لا تناسب تلك اللحظات فعجلت من خروج جميع الضيوف.

* * *

ظلت ''بيداء'' جالسة في غرفة الجلوس. قالت لـ''عبدل'' إنها تريد غسل الصحون قبل الذهاب إلى الفراش لكنها وجدت نفسها بدلا من ذلك منجذبة إلى المقعد الذي احتله ''صالح'' طوال الأمسية. لم يزل هواء الحجرة مفعما برائحة الدخان وذبذبات الأصوات والضحكات، حيث ظلت تتسرب إليهم، من وقت إلى آخر، صرخة أحد الأطفال الذين تكدسوا في حجرة ''سليم'' الفارغة. التزمت طوال الجلسة الصمت، عدا عن عبارات المجاملة التي كانت تتبادلها مع ''بربارة''. كان ''حسين'' يتطوع أحيانا بترجمة شذرات من الأحاديث الدائرة لزوجته الاسكتلندية لكنه ما يلبث أن تستثيره الحماسة للانغمار ثانية في النقاش. صعدت ''بيداء'' إلى الطابق الثاني بعد أن ارتفع صوت ابنتها بالبكاء. كان أحد التوأمين قد سرق دميتها. لكنها بدت لها جاهزة للنوم فحملتها إلى حجرتها، بينما ظل ولداها وابن ''حسين'' الصغير منغمرين في لعبة الغميضة في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وقت كانت ''هيلين'' و''نادين'' ابنة ''حسين'' جالستين في غرفة ''سليم'' الهادئة تشرفان على مسار اللعبة وتوفير أماكن جديدة لاختباء الصبيان الثلاثة. من الظلمة التي كانت فيها ميزت ''بيداء'' نبرة ''شهرزاد'' التي صعدت إلى الحمام وسألت ابنتها إن كانت تريد العودة إلى البيت، ثم سمعت حمحمة زوجها ولم تمض سوى ثوان حتى فتح باب حجرة ابنته. لكنه لم ينطق بأي كلمة وعاد سريعا إلى ضيوفه. فجأة جاءتها دمدمة ناجمة عن تماس القدمين ببساط السلم، فاندفع الدم بعنف في عروقها. قفزت من فراش ابنتها وكأنها كانت تنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر. كان الرواق المجاور للدرابزون خاليا للحظة من الأطفال، وحينما أطل ''صالح'' مدت يدها إليه على عجل لتدخله إلى ظلمة الحجرة وتغلق الباب وراءهما.

* * *

استيقظت على حلم: كانت في مترو يسير ببطء شديد وإلى جانبها جلس ''سليم''. بدا لها معافى تماما وراح يردد نشيدا بحماس متميز بينما ظلت يدها تداعب شعره الخفيف، وحينما كان يريد النهوض والمضي في الركض تمسك به بقوة خوفا من اختفائه. توقف القطار وحالما انفتح البابان الانزلاقيان صعد بعض الأشخاص، ومعهم تسرب ضباب إلى القطار، ولم تمض سوى ثوان حتى أصبحت الرؤية عسيرة. التفتت إلى المقعد المجاور لها فشاهدت طفلا ظنته ''سليم'' لكنها حينما أمعنت النظر فيه اكتشفت شخصا آخر. قفزت هلعة بحثا عن طفلها حيث ظلت عيناها تحاولان بلا جدوى خرق حجب الضباب، ثم سمعت انغلاق البابين الأوتوماتيكيين وقبل تحرك القطار

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

سمعت بكاء ''سليم'' على الرصيف فاستيقظت فزعة.

تملكها ندم غريب لعدم هبوطها من المترو. كأن ''سليم'' ما زال ينتظرها على الرصيف، تسرب إليها بكاء حقيقي من الخارج وحينما أصاخت السمع ميزت صوت ابنتها، فاندفعت إلى حجرتها. كانت ''لبنى'' قد بللت نفسها وهذا ما زرع الخوف في نفسها من قدوم الأب الذي ما انفك يحذر أطفاله من العقاب تجاه أفعال كهذه. "إنه المطر" كررت الطفلة جملتها وسط نشيج متقطع، فشدتها ''بيداء'' إلى صدرها مطمْئنة إياها بأن أباها لن يأتي، ثم اندفعت بسرعة لتبديل الشراشف قبل ظهوره.

استرجعت بوجل صورة المترو الذي شاهدته في الحلم وحضرتها قصة ''حسين''. تذكرت أنها كادت أثناء حديثه تطرح عليه سؤالا، لكنها أحجمت في آخر لحظة خوفا من إثارة سخرية الآخرين بها وبالخصوص ''عبدل'': "ما اسم المرأة المدهوسة؟". انتقلت إليها آلام تلك المجهولة على الرغم من تجنب ''حسين'' الخوض في نقل ما أصابها. كانت تستطيع أن ترى بعينها الثالثة الجسد الهش الذي نهشته كتل الحديد الباردة فخلفت وراءها نوافير من الدم، وحينما ودعت ضيوفها كانت آلام مبرحة قد انتقلت إلى ساقيها وذراعيها جعلتها تجاهد لتقف على قدميها.

بعد أن أغفت ''لبنى'' عادت إلى فراشها. سارت بخطوات حذرة كي لا توقظ ''عبدل''، وحينما استلقت على ظهرها حضرها مشهد ''سليم'' في الحلم وهو يراقب من الرصيف القطار الذي راح يتحرك بعيدا عنه في وقت ظلت عيناها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المتلهفتان له ملتصقتين بزجاج النافذة. راودها آنذاك شعور غريب بالاستسلام، كأن القطار كائن حي يقرر ما يجب وما لا يجب حدوثه.

لا بد أن هناك من يرافق كل طفل في العالم الآخر؛ ملاك يتقمص شكل امه فيمنحه خيط الأمان. وماذا عن ''سليم'' وعزلته عن الأطفال الآخرين؟ من سيلعب معه؟ من سيلبي احتياجاته الخاصة؟ لكن إلهاما آخر حضرها كالبرق: هناك سيتحرر ابنها من جسده لينطلق حرا خارج عاهته مثلما هي الحال مع انطلاق فراشة خارج شرنقتها.

تسلل النوم إليها في هيئة شاشة بيضاء التصقت فوق قرنيتي عينيها. شاهدت نفسها تتجول طليقة داخل حجرات واسعة مغمورة ببياض باهت وعبر نوافذها العارية التقطت عيناها مشهد هبوط الوفر الأبيض بغزارة وبطء مذهلين، لكن الظلمة احتلت الفراغ فجأة لتعيدها إلى دائرة الصحو حيث شخير ''عبدل'' المنتظم. أفلتت ذاكرتها من طوق لحظة الحاضر صوب لحظات أخرى بدت لها آنذاك ضربا من الوهم. "هل تحب أن تلعب الغمّيضة؟" همست لـ''صالح''. وقبل أن يجيبها سحبت يده صوب سرير ابنتها. جلست عند حافته فاضطر إلى مجاراتها. كانت أصوات الصغار تتعالى وراء الباب لتعطي انطباعا بأن واحدا منهم سيدفعه في أي لحظة. وكأنها قرأت الخوف في أنفاس ''صالح'' فدفعت بجسدها إلى الفجوة الفاصلة بين السرير وسجاد الأرضية من دون أن تطلق يده، ما أجبره هو الآخر على حشر جسده الطويل النحيل أيضا ليستلقي بجانبها تحت سرير ''لبنى''.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كان الفراغ لا يكفي لهما إلا أن يبقيا جسديهما في وضع جانبي وجها لوجه. وحينما سمعت صوت صرير الباب سحبت ساقيها أقصى ما يمكن وفعل ''صالح'' مثلها. تسرب إليها صوت ''هيلين'' الخفيض موجهة ابن ''حسين'' للاختفاء، في وقت راح أحد التوأمين يعد تنازليا من الغرفة المجاورة قبل أن ينطلق في البحث عن الآخرين. "اذهب تحت السرير" وقبل أن يتمكن من الاختفاء خرجت ''هيلين'' من الحجرة وأغلقت بابها. لم ينتب الضيف الصغير أي خوف حينما تلمس وجود كبيرين معه في نفس المكان، لعله ظن أن الكل يشارك بلعبة الغميضة: الكبار والصغار. حضر ''بيداء'' سؤال آنذاك: "هل سيخبر أهله بما شاهد؟" لكن جوابا برز على لسانها: "من يصدق ما يقوله الأطفال؟".

* * *

استيقظت في ساعة متأخرة من الصباح. سمعت أصوات أطفالها، لا بد أن يكون اليوم هو السبت وحينما التفتت إلى موضع ''عبدل'' وجدته خاليا. قدرت أنه ذهب إلى سوق السلع المستعملة الأسبوعي، فحضرتها رغبة عارمة: النهوض والاتصال بـ''صالح'' هاتفيا. وقبل أن تقفز من السرير تذكرت أنه يقضي عادة عطلة نهاية الأسبوع في بيت ''شهرزاد''. انكمشت تحت الغطاء. شعرت باحتباس الهواء في صدرها وكلما نفثت زفيرها تلمست حرارته فوق راحتيها.

مع ذلك ملأتها أحاسيس متعارضة: مزيج من ندم وتوق وشهوة وخوف وفرح عارم ورغبة عميقة بالموت راحت تتواثب معا في روحها، على خلفية شعور عميق بالذنب. إنه اليوم الأول الذي تستيقظ فيه دون أن يحضرها الأخير في هيئة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

صداع نصفي بل كجرح مفتوح يطالبها بالمضي أبعد فأبعد، تاركة وراءها مثل تلك المرأة المدهوسة خيطا متواصلا من الدم. لكن صورة أخرى خامرتها: ها هي ترى نفسها في مدينة الألعاب راكبة مقطورة مفتوحة راحت تتسلق ببطء سكتها العالية وحال بلوغها القمة اندفعت بحركة طليقة صوب الهاوية. آنذاك ساورها الخوف والندم من اختيارها هذه اللعبة يوازيه شعور بفرح متوحش.

لا بد أن الشعور بالاستسلام التام لقواعد تلك اللعبة قد تحقق عند خروج ''صالح'' من غرفة ابنتها: بعد هبوطه سلمتين أو ثلاثا، خرجت ''بيداء'' بحذر. لا بد أنه وصل إلى حجرة الجلوس، حينما جاءها صوت ''هيلين'' من نقطة مجهولة، بنبرة مرحة مشاكسة: **"أنا أمسكتك!"**. مع ذلك تحكم فيها شعور بالقوة أو لعله شعور بضعف مطلق ناجم عن العجز. العجز عن تغيير مسار القاطرة المندفعة فوق السكة المعلقة عاليا في الفضاء. اتجهت صوب الصوت المنطلق من غرفة ''سليم''. كان الباب مفتوحا قليلا ومن الفجوة الصغيرة القائمة بينه وبين حافة الجدار بدت ظلال وجوه أخفت ملامحها الظلمة السائدة داخل الغرفة. كانت ''هيلين'' و''نادين'' قد أغلقتا الضوء وراحتا تراقبان الممر بدأب شديد. قالت ''بيداء'' ساخرة بعد أن أشعلت الضوء: **"الظلام يتعب عيون الفضوليين"**. لكن المراهقتين المتضاحكتين التزمتا الصمت. بل تسرب إليهما قدر من الخوف الناجم عن صدمة المفاجأة، قرأته ''بيداء'' فوق نظراتهن إليها.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

خفق قلبها حينما رن جرس الهاتف، كانت قد مرت عشرة أيام على زيارة الضيوف

ظلت خلالها تدير رقم هاتف ''صالح'' على قرصه كلما خرج ''عبدل''، وأحيانا تستغل وجوده في ورشته لتحاول دون جدوى مرة أخرى.

رفعت السماعة بلهفة عطشى، وكادت تطلق اسمه قبل معرفة المتحدث، لكن صوتا نسائيا جاءها ولم تتمكن من تمييزه إلا بعد أن عرّف بنفسه: "أنا ''شهرزاد''. هل نسيت نبرتي؟". وبدلا من الاندفاع كعادتها بالاعتذار وجدت ''بيداء'' صوتها يتلبسه اعتداد الأخرى الشديد بنفسها وأسلوبها الساخر: "لا، ولكن صار صوتك أرق من قبل." وبدلا من أنْ يثير ضحك ''شهرزاد'' مثلما توقعت سكن صمت ثقيل بينهما بدا لها كأنه دهر. بادرت بنت عمتها في إعادة خيط الحديث: ""عبدل'' في البيت؟" وقبل أن تجيبها بالنفي واصلت ''شهرزاد'' مبررة: "هناك صديق يحتاج إلى نجار ماهر".

كانت ''بيداء'' جالسة مع أطفالها أمام التلفزيون حينما اتصلت قريبتها ثانية. وفي هذه المرة كان ''عبدل'' أقرب إلى الهاتف منها. رفعت رأسها إلى الساعة الجدارية. كان عقرباها يشيران إلى السادسة والنصف. ومن الشق القائم بين الستارتين لاحت لها عتمة السماء العميقة. تسرب إليها صوت زوجها من الممر. بدا لها أولا صاخبا ومرحا، لكنه انخفض على غير عادته ليتحول مع استمرار المكالمة إلى كلمات استفهام غامضة: صحيح؟ مستحيل؟ أنت متأكدة؟ ثم اكتفى بالصمت ليردد من وقت إلى آخر كلمة تعبر عن تأييده لإرشادات ''شهرزاد'': نعم... طيب... حسنا.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

حدست آنذاك أنها كانت موضوع حديثهما. واسترجعت لأقل من ثانية صوت ''هيلين'' لحظة تسلل ''صالح'' من غرفة بنتها، فغمرها شعور عميق بالانكماش. أراها أمامي مستلقية على الكنبة حيث شدت ذراعيها فوق صدرها وطوت ساقيها أقصى ما تستطيع، فكأنها بواسطة ذلك تستطيع أن تحقق المعجزة: العودة إلى عالم الممكنات؛ الاختفاء تماما من واقع أضاعت لفترة قصيرة شفرات حركته، وحينما استرجعتها كان الوقت متأخرا.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

القسم العاشر

الأسماء الإلهية (1)

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

عودة متأخرة إلى ممكنات الوجود.

كان ''محيي الدين بن عربي''، عند محاصرة السلطان "الكامل" لدمشق، غارقا تماما في ذلك السؤال الذي ظل يسكنه كل يوم: هل هناك بعث للحيوانات في الحياة الأخرى؟

ولعل ذلك جعله بعيدا عما كان يجري في الخارج من استعدادات للدفاع عن المدينة، إذ ظلت الأصوات تتسرب إليه: صرخات الجنود وقعقعة الأسلحة وصهيل الخيول، ومن بعيد كان دعاء المؤذن يأتيه خافتا بعد كل آذان بأن ينصر الله الملك "الناصر"، ودعوة الناس للجهاد ضد السلطان "الكامل" الذي سلّم القدس للإفرنج من دون قتال.

أتخيله جالسا في إيوان شبيه بإيوان بيت جدتي البغدادي، وتفصله عن الحوش ستارة سميكة من الجوخ بلون تبني تمتد ما بين الجدارين المتوازيين. وما بين لحظات الصمت الصافية التي تكتنف البيت بعد انحسار موجة الأصوات الهائجة في الخارج كانت وشوشة ماء النافورة القادمة من وسط الحوش تتسرب إلى سمعه لتخرجه قليلا من حالة المكوث في تلك المنطقة التي يسميها بالخيال والتي يراها مكانا يلتقي فيه الرب بعبده الصالح عبر الوهم والحلم. هناك في تلك المدينة الساحرة يلتقي البعدان المشكِّلان لجوهر الإنسان: الناسوت واللاهوت. لكن ذلك لا يتحقق إلا عبر مجاهدات شتى من صيام وصلاة متواصلين إلى صمت وسهر وترديد داخلي لأسماء الله الحسنى.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

نحن الآن في أبريل 1129 ميلادية، حضر الربيع إلى دمشق هذه السنة بقوة، مما جعل شجرة البرتقال في الحوش تنشر أريج أزهارها صوب كل الاتجاهات، ومن الحيز الضيق تحت الستارة العريضة ظلت الرائحة العذبة تتسلل فتعيد ''محيي الدين'' إلى مسكنه.

كان كل أفراد أسرته الواسعة غارقين في نومهم، وهو إذ يخرج من صلاة قيام الليل التي ظل مواظبا عليها منذ أكثر من أربع ساعات تسحبه أفكاره صوب حديث تلامذته هذا الصباح. كانوا مستائين مما قام "الكامل" به: بعد خمسة وعشرين عاما على تحرير القدس يقوم ابن أخي صلاح الدين بتسليمها لملك الإفرنج "فريدريك الثاني" من دون أن يكون هناك أي تهديد على ملكه، ناسيا كل التضحيات التي قدمها المسلمون بقيادة عمه لتحقيق النصر في معركة حطين وما آلت إليه من تحرير للقدس ومدن كثيرة. لم يكتف "الكامل" بذلك بل جاء لينتزع دمشق من ابن أخيه "الناصر" الذي حل محل أبيه المتوفى "المعظم".

لكن ''محيي الدين'' ظل صامتا طوال الوقت. كان ذهنه مشغولا فقط بذلك الصراع الذي يراه أينما حل بين الأشقاء أو الأغراب؛ بين أبناء طائفة واحدة أو طائفتين مختلفتين. فما شاهده من خراب وحرائق ومذابح في طريقه من اشبيلية إلى دمشق جعله يؤمن شيئا فشيئا باستحالة توقفه. بل حتى حينما كانت هناك حالة سلم تظهر أوبئة مثل الطاعون. تحضره تلك الصور العنيفة التي مرت به أثناء إقامته في القاهرة، كانت الشوارع عامرة بأنين المرضى وجثث الموتى. وفي الليل كان يرى الناس يبحثون عن أحبائهم بالمشاعل، ليقوموا بدفنهم وفق الشريعة، قبل مجيء عمال السلطان كي ينقلوا من بقي ملقى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

فوق الشارع، فيدفنوه في حفرة واسعة تم إعدادها توا للموتى.

أكثر ما أدهشه هو استمرار الحياة في القاهرة. كان باعة الأطعمة والسلع المختلفة يواصلون عملهم بينما استمر زبائنهم بالحضور إلى دكاكينهم. كان بعضهم يذهب إلى السوق بعد دفن أحد أقاربه مباشرة. وكأن هناك قوتين تتحركان بشكل متواز: واحدة تقود للردى والأخرى تقود للحياة. آنذاك برزت في ذهنه تلك النظرية التي ستكون موضع اهتمام أكاديميين بارزين بعد ثمانية قرون على موته: الأسماء الإلهية. إذ كيف يستطيع تفسير الحماية التي تتوفر لبعض الناس والدمار الذي يلحق غيرهم من دون أن يؤثر أحدهما على الآخر: إنهما الاسمان الإلهيان: المميت والمحيي اللذان يتنافسان فيما بينهما على فرض سلطتيهما في أزقة القاهرة وأحيائها. أحدهما يسحب صوب الحفرة والآخر يسحب صوب الحياة، ومن يدخل ضمن سطوة واحد منهما يكف الآخر عن التدخل لتغيير مصيره.

هل تختلف حروب الأخوة الأيوبيين فيما بينهم عن كل تلك الحروب التي دارت بين النصارى والمسلمين في الأندلس؟ عن حروب السلاجقة ضد البيزنطيين في الأناضول؟ الصليبيين ضد المسلمين؟ الموحدين ضد المرابطين؟ الإفرنج ضد البيزنطيين؟ الأيوبيين ضد الفاطميين؟

وها هي الحكاية تتكرر مرة أخرى.

* * *

استيقظ في اليوم اللاحق متأخرا. وبدلا من عودة السؤال الملح نفسه، حضرته صورة قديمة ظن أنه نسيها تماما. جاءت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أولا في هيئة صوت نسائي راح يقرأ عليه أبياتا شعرية. ها هو يجد نفسه يدور حول الكعبة. ولم يكن هناك ضوء سوى غلالة البدر التي تشربت بها كل بقع ذلك المكان المقدس، ودفعت الكثير من أبناء مكة يطوفون مثله في هذا الساعة المتأخرة. وجد خطواته تخرج عن الأرض المبلطة إلى الرمل. تدفقت على لسانه أبيات شعرية جديدة:

ليت شعري هل دروا أي قلـــب ملكـــــوا

وفـــــؤادي لو درى أي شِـعْب ســـــلكوا

أتراهم ســـــــلموا أم تراهـــم هلكـــوا

حار أربـــاب الهوى في الهــوى وارتبكــوا

من أين جاءت تلك الأصابع التي راحت تضرب ما بين كتفيه ضربا ألين من الخز؟ حينما أدار رأسه إلى الخلف شاهد فتاة أضاءت أشعة القمر عينيها الواسعتين. "ما الذي قلته يا سيدي؟" قالت بنبرة مرحة وجادة؛ عذبة وصارمة. ردد عليها البيت الأول بصعوبة، غير مصدق أن من يراه كان إنسيا حقا. "عجبا منك" قالت باستغراب مضخم "وأنت عارف زمانك تقول مثل هذا! أليس كل مملوك معروفا؟ وهل يصح المُلْك إلا بعد المعرفة وتمني الشعور يؤذن بعدمها... وماذا قلت بعد؟" فقرأ بتلعثم بيته الثاني: "وفؤادي لو درى أي شعب سلكوا" صاحت باستياء مصطنع: "يا سيدي الشعب الذي بين الشغاف والفؤاد هو المانع له من المعرفة فكيف يتمنى مثلك ما لا يمكن الوصول إليه إلا بعد المعرفة؟ وماذا قلت بعد؟" وقبل أن ينطق بكلمة جاءها صوت نسائي آخر: "هيا ''نظام'' لنذهب".

كم مضى على تلك الحادثة؟ أكثر من عشرين عاما؟ على

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الرغم من بقاء ذكراها طرية في نفسه، كأنها لم تقع إلا أمس فقط. بعد عودته إلى مسكنه وأداء صلاة العشاء مضى إلى الفراش مبكرا. وقبل أن يغفو، توقف أثناء ترديده الأسماء الحسنى عند "الجميل ". كانت صورة تينك العينين المتوهجتين والمشبعتين بالكحل تحضران أمامه لتزدادا سحرا على إيقاع هذا الاسم الإلهي. يتسرب إلى سمعه اسمها فيبدأ بتكراره على طبقة أخرى أقل خفوتا: ''نظام''. أي اسم يحمل في طياته سحر الكون: نظامه.

في الصباح شعر بالإثم: كيف يسمح لاسم بشري بالتقاطع مع اسم إلهي؟ ومثلما اعتاد في الأندلس من الاعتراف أمام شيخه ورفاقه لا بما يقترفه من أخطاء فقط بل حتى بما يدور في ذهنه، توجه إلى أبي شجاع الأصفهاني. وهناك اكتشف المفاجأة الكبرى.

قال الشيخ وهو يخفي بصعوبة ابتسامة عن وجهه: "أنت لم تفعل شيئا أكثر من ترديد ملمح من ملامح الاسم الجميل.. كيف يحقق كل اسم عينه إلا عبر تمثله في خلق الله؟". ولم يعطه وقتا طويلا. قبل أن يسأله:

"ما اسمها؟"

''نظام''

"اسمها الحقيقي هو ''النظام''"

"وكيف عرفتم يا سيدي؟"

"لأنها ابنتي... عمتها تلقبها بـ''عين الشمس''"

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كان كشفا ذلك الذي حضره في هيئة حلم تلك الليلة: ها هو يرى كائنات عملاقة مشعشعة بالأنوار، وعلى ظهر كل منها نُقش اسم إلهي متوهج بضوء تتقلب فوقه ألوان قوس قزح. ومن بعيد تتقدم كتل هلامية تكاد عتمتها تتماثل مع عتمة الفراغ المحيط بها، وعند اقترابها من الأسماء تتوقف على مبعدة أمتار منها. كأن الخشية التي تسربت إلى نفوسها جعلتها أكثر فأكثر عتمة. يسمع ''محيي الدين'' صوت أحد الأسماء الإلهية سائلا: من هؤلاء؟ فيجيبه آخر بنبرة خافتة: إنهم بعض من أعيان الممكنات. تقترب الأخيرة بوجل صوبهم. يصيح أحد المجتمعين: ماذا تريدون؟ فيأتي صوت من وسطها بدا كأنه أشبه بصدى لصدى: العدم أعمانا عن إدراك بعضنا الآخر... وعن معرفة ما يجب لكم من الحق علينا. يواصل ذات الاسم الإلهي الذي لم يتمكن من التعرف عليه بسبب إحاطته بكائنات مضيئة أخرى: وماذا بعد؟ فارتفع صوت خافت كالنشيج الواهي: لو أنكم أظهرتم أعياننا وكسوتمونا حلة الوجود لأنعمتم علينا بذلك ولقمنا بما ينبغي لكم من الإجلال والتعظيم... وأنتم أيضا كانت السلطنة تصح لكم في ظهورنا بالفعل، واليوم أنتم سلاطين علينا بالقوة والصلاحية.. لذلك فإن ما نطلبه منكم هو في حقكم أكثر منه في حقنا.

ساد صمت بين الأسماء ثم انطلق همس غاضب بينها: صحيح. نحن نكاد نختنق.

يتغير المشهد أمامه. ها هو يرى فريقا منها يدخل فناء واسعا يجلس فيه رجل بهي الطلعة وفوق عرشه كان هناك اسم يشتعل وينطفئ بأضواء براقة: **القادر**. يتحول حديثها معه إلى نبرة خافتة. لا بد أنها كانت تطلب منه بث الوجود في أعيان

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الممكنات التي يحمل كل منها خصائصها في حالة كمون خانقة. قال **القادر**: أنا تحت سلطة **المريد** ولا أستطيع أن أوجد عينا منكم إلا باختصاصه، كذلك لا يمكِّنني الممكن من نفسه إلا أن يأتيه أمر **الآمر** من ربه فإذا أمره بالتكوين وقال له كن مكنني من نفسه وتعلقت بإيجاده فكونته من حينه.. لذلك فنصيحتي هي هذه: اذهبوا إلى الاسم **المريد** عسى أن يرجح ويخصص جانب الوجود على جانب العدم.. حينذاك نجتمع أنا و**الآمر** و**المتكلم** ونوجدكم.

ها هو يرى ذلك الوفد يتحرك صوب جناح آخر كتب على بوابته: **المريد**. ولم تكن إجابته مختلفة عن **القادر**: إنه **العالِم** الذي يعرف الحكم فيكم.. إذا كان قد عرف بإيجادكم فسيكون بإمكاننا أن نخصص لكم وجودا ما.. عليكم أن تذهبوا إلى العالم لأنني تحت هيمنته.

لكن إجابة **العالِم** هي الأخرى كانت مخيبة: صدق **المريد** وقد سبق علمي بإيجادكم ولكن الأدب أولى.. نحن جميعا تحت سطوة الاسم **الله** فلا بد من حضورنا عنده فإنه حضرة الجمع.

قال **الله** حينما رأى وفد الأسماء الإلهية يحيط به: ما بالكم؟ بعد صمت ثقيل جاء صوت **العالِم** ثابتا وواضحا: الممكنات التمست الوجود منا.

انتظروا قليلا، قال الاسم **الله** سأدخل على حضرة الحق لأخبره بالأمر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

القسم الحادي عشر:

خطوط متوازية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

كان على وشك مغادرة غرفة الجلوس حينما استوقفه آخر خبر محلي نقله المذيع في نشرة الساعة العاشرة.

استحضر ''عبدل'' وهو يتابع تفاصيله التي لم تستغرق أكثر من دقيقتين، قصة ''حسين'' عن المرأة المدهوسة بقطار الأنفاق. ولم تتجاوز اللقطات المرافقة لقراءة الخبر أكثر من شهادتين مقتضبتين لرجلين عاملين من نفس المحطة التي وقع فيها الحادث. قال أحدهما إن ملامح الضحية آسيوية ووجهها الذي لم تمسه عجلات القطار يشير إلى أنها في الثلاثين. ترى هل هذه الحادثة هي نفسها التي تحدث عنها الطبيب ''حسين''؟

لم يترك الخبر في نفسه أثرا عدا تعميق شعوره بتخلف الخدمات في هذه "الإمبراطورية العجوز" كما كان يحب تسمية بريطانيا مع رضا إضافي عن النفس لصدق أحكامه. لكن يده تحركت من دون إرادته نحو الورقة المكورة الموضوعة فوق طاولة القهوة والتي كان على وشك رميها في سلة المهملات. بدلا من ذلك أعاد فتحها ليفرشها على سطح الطاولة مخففا من آثار الدعك على صفحتها.

بدت له الكلمات المكتوبة فوق الورقة بفعل الأخاديد التي نجمت عن تكوير الورقة وكأنها هي الأخرى متكسرة ومتلعثمة. أو كأن كاتبها كان تحت وطأة مخدر قوي. زوجي العزيز...سأسافر إلى أهلي...أنا مريضة جدا... آسفة... سأعود قريبا إن شاء الله...

في السطر الأخير كتِبت كلمة واحدة، ثم مرّت فوقها خطوط

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

متكررة جعلت قراءتها صعبة. لكنه حال قلبه للصفحة بدت له الحروف وكأنها مستنسخة بالمقلوب: سامحني.

راودته رغبة بمهاتفة ''حسين'' ليسأله إن كان ما شاهده في التلفزيون هو نفس ما تحدث عنه، لكنه أقصاها بغضب: إنها الآن في بغداد. وهو سيبادر إلى الاتصال بها ليحثها على العودة. فليس هناك أي سبب حقيقي للانفصال. أنت أفضل أمّ في العالم.. نحن جميعا بحاجة إليك.. لنفتح صفحة جديدة.. سنقطع علاقتنا بقريبتك والسلام.. لندن مدينة كبيرة جدا.. ولا أحد يتدخل بشؤون أي أحد...

لم يفهم ''عبدل'' سبب غضب ''شهرزاد'' من ''بيداء''، فهو لم يتساءل يوما عن مدى سلامة علاقتها بـ''صالح''. شيء واحد ظل يحضره هو فارق السن بينهما، حتى أنه فكر ذات مرة بتقديم النصح لصديقها كي يفكر بإنشاء أسرة، فأقاربه في بغداد يستطيعون أن يبعثوا له بعروس حال توقف الحرب مع إيران وفتح السفر من جديد بوجه العراقيين.

تسلل قلق من نوع آخر إليه دافعا إياه خارج دائرة شكوكه الأولى: منذ أسبوع وهو يحاول أن يسحب مبلغا من الحساب المسجل باسم عبد الرؤوف لكن من دون جدوى. أخبره أمين الصندوق في مصرف الـ"نات ويست" بانغلاق الحساب مؤقتا، وكاد يسأله عن ودائعه. إذ أعطاه صديقه دفتر الصكوك الذي تسلمه من المصرف بعد توقيع كل أوراقه كي يتمكن ''عبدل'' من سحب ما يشاؤه. حضرت إلى ذهنه تلك الأموال التي دخلت الحساب كإيجارات شهرية للمسكن الذي سجله باسم عبد الرؤوف، فشعر بالخوف: هل تبدل صديق عمره من الكائن الذي كان يعرفه إلى إنسان محتال؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

حاول خلال الأيام الأخيرة الاتصال به هاتفيا لكن دون جدوى. إذ ظل كل ما يصل إليه صفير متواصل ينبئ بانقطاع الخط تماما.

فكر بالسفر إلى الإمارات للتحقق مما جرى وكان ينوي المغادرة بعد غد، وها هي ''بيداء'' تتخذ قرارا غريبا لا مبرر له: الذهاب إلى أهلها. ألم يكن بإمكانها البقاء حتى تنفيذ سفره. أليس ذلك الحساب المصرفي يخصها مثلما يخصه.

غمره ندم عميق: لو أنه أخبرها بما حدث له مع عبد الرؤوف لأجلت قرارها أو لعلها ألغته تماما. فهو كان قادرا على إظهار عدم اهتمامه بما قالت ''شهرزاد'' له عبر الهاتف، مخففا عنها مشاعر الذنب أو أي مشاعر أخرى تنتابها. كان ممكنا لسفرة عائلية مشتركة إلى إيطاليا أو إسبانيا أن تزيل عنها كل تلك الأفكار السوداء وتعيدها إلى مسار حياتها معه ومع الأطفال.

حينما كلمته عبر الهاتف بدت ''شهرزاد'' له شخصا آخر. كانت نبرتها حانقة وتخلو من الدعابة الجافة: علامتها الفارقة التي بفضلها كانت تربك الآخرين. بدلا من ذلك انطلق صوتها خشنا وغاضبا: هل تعرف ما فعلته ''بيداء''؟ وقبل أن يجيبها بالنفي صاحت وهي تضحك ضحكا هستيريا: بالتأكيد لا... الزوج آخر من يعلم كما يقولون.

لم ينطق ''عبدل'' بكلمة واحدة لـ''بيداء'' عما أخبرته ''شهرزاد''. كان يراها تتعقبه بنظراتها وهي جالسة في حجرة الجلوس أو في المطبخ، بينما ظلت تسند حنكها وخديها بباطني كفيها. كانت أنفاسه تغلي وهو يمر من أمامها جيئة وذهابا. ولا بد أنها تحسست بوقوع حدث جلل. وإذا كانت تعرف أنه يعرف

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بما جرى بينها وبين ''صالح'' فهل كانت ستظل هادئة كما بدت له. لم يكن هناك أمامه سوى ذلك الشحوب الذي علا وجهها وذكّره بملامحها بعد موت ''سليم''. بدت له في بعض اللحظات وكأنها ترتدي قناعا ثابت الملامح.

غمرته رغبة بضربها حينما كانت جالسة ذات مرة بجوار طاولة الطعام في المطبخ. لكنه قبل أن يشرع بصفعها غمرته رغبة أخرى أقوى من الأولى: أن يحضنها. كانت مجرد فكرة استجابتها له كافية لإثارته وسط عزلة سميكة عمقتها نقرات المطر فوق النافذة.

كان ''عبدل'' واقعا تحت قوتين متكافئتين جعلتاه عاجزا عن دفع خطوة أخرى صوب ''بيداء''. تسللت إليه فكرة أخرى قرّبته لأول وهلة إلى ''بيداء'' قبل أن تنقلب في اللحظة اللاحقة إلى الضد: طوال فترة عيشهما معا أبدت ''بيداء'' طاعة مدهشة له: لا يتذكر أنها اعترضت على أي قرار يخص حياتها أيضا أو أنها احتجت على لحظات غضبه العاصفة التي تصيبه من وقت إلى آخر.

لا يستطيع تصورها شخصا يتحرك خارج القيم التي رسمتها أسرتها لها. فبينها وبين ''شهرزاد'' فارق ما بين السماء والأرض. ولم يكن انشداده إلى ابنة عمتها إلا بسبب ذلك الاختلاف. كم كان يشعر بالمتعة عند لقائه بـ''شهرزاد''، فوراء كل تلك اللغة المتحررة وحركة الجسم شبه الذكورية تذكير بعالم مبدأه الحرية. وفي هذا العالم ظل ''عبدل'' يتراءى له أن كل فعل ممكن وقابل للتجريب. تخيل نفسه مرارا بديلا لـ''صالح'' في الفراش معها، لكنه كان يكف عند تلك اللحظة حينما تحضر إلى مخيلته ''بيداء''، وأنوثتها المفرطة، ليواجه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بدلا مما يمكن أن يكون سلطة نسائية متحكمة استكانة كاملة لفحولته الجامحة.

هل يمكن أن يكون كل ذلك تلفيقا ابتكرته مخيلة مراهقة طائشة؟ ألم تلمّح ''شهرزاد'' مرارا حول غيرة ''هيلين'' من ''صالح'': كم كانت ابنتها تطلق أوصافا ساخرة عليه حتى بحضور الضيوف. اتجه بحذر إلى حجرة ابنته فواجهته عتمتها. كانت أنفاس ''لبنى'' تتوالى بانتظام لفترة قصيرة ثم تتوقف فجأة لتعود ثانية مطلقة شهيقا مختنقا. ترك باب الحجرة مفتوحا قليلا. جلس على السجادة بجوار السرير الصغير، ثم مد يده صوب الفراغ القائم بين قاعدة السرير والأرضية ليقيس بأصابعه المسافة الفاصلة بينهما. قالت ''شهرزاد'' حينما سألها أين يمكن أن يختفي ''صالح'' وزوجته في طابق غاص بالصغار، جاء جوابها محملا بقدر من السخرية: كانا تحت سرير ابنتك... يمارسان لعبة الغمَّيضة. سعى إلى دفع جسده تحت السرير دون جدوى. كانت كل المؤشرات تدل على استحالة الانحشار تحت السرير حتى لشخص واحد.

سيتصل بـ''شهرزاد'' لتفنيد زعمها. إنها أوهام ابنتك ليس إلاّ. لكن شكوكا أخرى تسربت إليه وهو يقلب الرسالة المجعدة. هل تكون ''بيداء'' ضحية مكيدة أوقعها ''صالح'' بها ليسيء إليه. كان يرى في عيني الآخر دائما غيرة منه وكم كانت تسخر ''شهرزاد'' بقدراته الهزيلة حينما تلقى في كل مرة تحسينا جديدا للبيت قام به ''عبدل'' وحده. ألم تقل ذات مرة بنبرة مازحة: علي أن أبحث عن عريس يجيد ثلاثة أعمال فقط: السمكرة والكهرباء والنجارة. التفتت إليه سائلة بمرح: هل تعرف شخصا بهذه المواصفات حتى لو كان أميا؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لم يسمح ''عبدل'' للأطفال بمشاهدة التلفزيون. بل أجبرهم على الذهاب إلى الفراش قبل السابعة. كانت ''لبنى'' هي الوحيدة التي سألت عن أمها فقاطعها بنبرة حادة: سأعاقبك إذا سألت مرة أخرى عن ماما.

تابع من وقت إلى آخر استراق السمع من بابي غرفتي أطفاله للتأكد من التزامهم بمبدئه الصارم المفروض عليهم حتى قبل أن يتمكنوا من النطق: حال الدخول إلى الفراش عليهم الامتناع عن الكلام أو الضحك أو البكاء. كان دائما ينتقد ''بيداء'' على استسلامها الكبير لإرادة الأطفال. وها هي الفرصة تتوفر لديه لمساعدتهم على تجاوز هذا الاعتماد على الآخرين.

من الغد سيبدأ بتلقينهم أداء أعمال البيت بأنفسهم.

تنقل ما بين غرفة الجلوس والمطبخ مرارا. بدا له طلاء الجدران باهتا جدا. تذكر أنه كان ينوي صبغ كل جدران البيت، لكن وفاة ''سليم'' المفاجئة جعلته يؤجل تنفيذ المشروع. سيكون هذا العمل أفضل وسيلة لإشغال الأطفال خلال العطلة الأسبوعية المقبلة والبدء بتعليمهم. ألم يبدأ هو بتعلم النجارة حينما كان أكبر قليلا من التوأمين؟

كور الرسالة بشدة ثم رماها في صندوق القمامة. وضع يديه تحت حنفية المغسلة وراح يفركهما طويلا بالصابون والماء الساخن. حضرته آنذاك فكرة الغطس في حوض الحمام. وقبل النزول إليه برز أمامه سؤال لأول مرة: كيف ستدفع ''بيداء'' أجور بطاقة السفر إذا كانت تنوي حقا العودة إلى أهلها؟ هل أعطاها ''صالح'' نقودا؟ أم إنها قلدت توقيعه على صك وسحبت مبلغا من حسابه؟ كان ''عبدل'' يطلب منها من وقت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

إلى آخر دفع فاتورة ما مع صك. ولا يبدو توقيعه عسيرا على أي شخص يعرف العربية لمحاكاته: إنه اسمه الأصلي قبل أن يغيره الأب دون رجعة: عبد الوهاب.

* * *

لكن ''بيداء'' لم تفكر بأجور السفر إلا بعد أن أغلقت باب البيت وراءها. ولم يكن في حوزتها سوى تلك النقود المخصصة لنفقات الأسبوع. كل ما حملته معها كان حقيبة رياضية وضعت فيها أشياء متفرقة لا رابط بينها: زوجين من ملابس داخلية، دمية كلب خاصة بـ''سليم''، قلمين من أحمر الشفاه، فرشاة أسنان، منشفة، وجواز سفرها.

اكتشفت أنها تركت المفتاح في الداخل. ومع الرسالة التي تركتها لـ''عبدل'' تكون قد قطعت آخر خيوط لها به. هو سيعود بعد قليل. بعد أن يوصل الأطفال إلى مدرستهم. مررت أصابعها فوق الباب وكأنها كانت تسعى إلى تلمس الصغار الذين تركوا وحدهم مع أبيهم الحازم. كيف سيستقبلون غيابها عنهم؟ بدأت بدفع أول خطواتها إلى الوراء. مررت يدها على سياج الآس الذي قام ''عبدل'' بتشذيبه قبل يومين فقط. قطعت غصينا صغيرا وفركت وريقاته بين أصابعها.

استقبلتها سماء رمادية بدت لها قريبة منها بشكل استثنائي. كان المطر يهبط ناعما إلى حد يجعل اكتشافه صعبا قبل تلمس آثاره على الوجه. جذبتها بقايا أوراق الشجر اليابسة تحت قدميها. على الرصيف الآخر شاهدت شجرة زان عارية كانت، حتى قبل وقت قصير، معتمرة ثوبا زاهيا مصنوعا من أوراق قرمزية اللون. هل وجدت قاسما مشتركا معها وهي تقف

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أمامها في وقت راحت أصابعها تمسح رذاذ المطر الرقيق عن أهدابها؟

حضرتها صورة ''عبدل'' لحظة مكالمة ابنة عمتها الأخيرة له. كانت تتابعه من المطبخ. ولعل ذلك المشهد دار في رأسها قبل وقوعه مرارا. فمنذ أن سمعت صوت ''هيلين'' معلنا ضبطها لها ولـ''صالح'' وهي تنتظر باستسلام كامل تنفيذ الحكم الصادر بحقها.

شاهدت، خلال الأيام العشرة التي سبقت مكالمة ''شهرزاد'' الأخيرة، سلسلة أحلام بدت كأنها حلم واحد بتنويعات مختلفة: وجدت نفسها في أحدها واقفة بجانب سور جسر حجري قديم. ظنت للوهلة الأولى أن الجسر يربط طرفي نهر لكنها حينما سلطت ناظريها إلى أسفله استقبلت هوة مغرقة في العمق. ازدادت العتمة حولها وحينما أرادت الانسحاب اكتشفت انغلاق بوابات الجسر الجانبية عليها.

ازدادت سرعة خطواتها تحت هاجس الخوف من وصول ''عبدل''. كيف سيكون رد فعله لو أنها أخبرته بنسيان المفتاح في البيت؟ سيلقي عليها نظرة متجهمة أولا ثم يتأوه ثانيا ليكتفي مرددا بنبرة باردة تنتقل إليها صداعا نصفيا حادا: هذا ليس غريبا منكِ.

تنويع آخر للحلم الأصلي: كانت تسير في بارْك واسع تنتشر على أطرافه الأجمات وبرك الماء. ووراءها بخطوات قليلة كان ''صالح'' يسير بخطى أبطأ. كانت رقائق الثلج تهبط بانتظام بينما امتصت العتمة لونا ما بين الحمرة والصفرة. بدا لها كل شيء متعاليا عن غيره، محملا بجمال غامض. ما الذي أثاره ذلك المشهد في نفسها؟ انبعاث شعورين متعارضين في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

نفسها؟ شعور بيأس مطلق وشعور بشغف مجهول عاصف. كانت تبدو شخصا آخر عما هي الآن: أكثر جرأة وأكثر انبساطا. وحينما التفتت إلى الوراء شاهدت ''صالح'' بعيدا عنها. كادت تناديه ليسرع خطاه، لكنها شاهدت شخصا آخر محله: هل كان ''عبدل''؟ كان غطاء الرأس يمنحه شكلا لا إنسانيا. كأنه إنسان آلي مكلف بأداء مهمة ما. هل يريد قتلها؟ دفعت بخطواتها أسرع فأسرع. مع ذلك ظلت المسافة تقصر بينهما، لتستيقظ فزعة على شخير ''عبدل''.

ها هي تدخل محطة المترو. التقطت أذناها قرقعة القطارات بشكل نقي. بدت لها كنبضات قلب صاخبة، بينما اختفت أصوات الناس حولها. كانوا يمشون بخطى مسرعة في كل الاتجاهات وعند قدوم حشد منهم باتجاهها ظنت أنهم سيدهسونها فلاذت إلى جدار.

حالما دفعت بجسدها داخل آخر عربة، انتابتها رغبة قوية بالنزول من القطار والعودة إلى منزلها، لكن انغلاق الباب حسم ترددها. ها هي المسافة الفاصلة بينها وبين ''عبدل'' تتزايد. تستطيع أن تراه بعين عقلها وهو يقرأ في كلماتها المتعثرة، حيث راح حجمه يتزايد أمامها.

أخرجتها وجوه الركاب للحظة عن تيار أفكارها. كان كل منهم يتجنب تماسّ عينيه بعيون الآخرين عبر الاستغراق في القراءة، أما الواقفون فكانت أنظارهم ملتصقة بصورهم المنعكسة فوق زجاج النوافذ. أثار انتباهها صعود شاب وصديقته إلى العربة. وعلى الرغم من الازدحام الشديد ظلا ملتصقين ببعضهما البعض. انجذبت إليهما أكثر فأكثر عند استغراقهما بقبلة طويلة وسط تجاهل الركاب الكامل لهما.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تسرب إلى ذاكرتها كلقطة سريعة تترجع مع اهتزازات القطار ذلك المشهد الذي بدا بعيدا زمنيا عنها ويعود لامرأة أخرى لا صلة لها بها: هناك في تلك الفجوة المظلمة، تحت سرير ابنتها الصغير، كانت أصابع ''صالح'' تمضي متلمسة مناطق مغلقة تماما في جسدها لتفتح منافذ لروحها المنكمشة على ذاتها. بالمقابل كانت أصابعها متشبثة بثيابه. كأنها دون وعي منها تسعى إلى إبقاء تلك اللحظة قائمة في الأبد: لحظة فناء أحدهما بالآخر، وسط ضجيج الأطفال المتواصل خلف باب الحجرة.
ما الذي يحفظ لحظة ما في الذاكرة فيجعلها حية دائما كأنها حدثت للتو، بينما لا تترك سنوات من العيش أي أثر وراءها؟

لا أستبعد أن يكون سؤال من هذا النوع قد دار في رأس ''بيداء''، عند هبوطها من القطار، إذ كيف تفسر اختيارها لهذه المحطة بالذات وخروجها من تحت الأرض إلا بحقيقة قربها من شقة ''صالح''. لكن حال التقائها بضوء الصباح الكابي تسربت إليها الشكوك والمخاوف: ماذا لو وجدت ''شهرزاد'' هناك؟ وماذا ستفعل لو أن ''صالح'' طردها؟

كادت تستدير وتعود صوب محطة المترو عند اقترابها من سكن ''صالح'' لولا حضور تلك الفكرة إليها: جئت لأستدين منك أجرة الطائرة. سأبعثها لك حال وصولي إلى بغداد. كررت العبارة بصياغات أخرى: قررت العودة إلى أهلي.. هل يمكنك أن تقرضني أجرة الطائرة؟ في الوقت نفسه، ظلت راحة يدها تلامس جدار المبنى ذي الطوابق الأربعة. بدا لها مختلفا عن صورته في مخيلتها. فبدلا من أن يكون لون قرميده أحمر ظهر لها أقرب إلى الصفرة.

ما الذي ستقول له إذا عرض عليها البقاء معه؟ أنا عندي ثلاثة أطفال. لا يهم أنا سأكون مثل أبيهم أو أكثر. أنت تستحق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أن تعيش حياتك من دون مسؤوليات غيرك. أنا أحبكِ. وماذا عن ''شهرزاد''؟ أنتِ كل شيء بالنسبة لي. أنا أريدك مع علاقتك بـ''شهرزاد''. قالت ذلك بصوت عال فدفعها إلى الضحك. كيف سيبدو ''صالح'' وحده؟ من دون تلك الهالة التي تتلبسه بفضل ابنة عمتها. حضرتها فكرة أخرى: أن تتصل بها وتعتذر لها. ففي ذهنها تسكن صورة أخرى لـ''شهرزاد'': امرأة شديدة الثقة بنفسها ومتحررة من الأحكام السابقة. أعتذر لك. تصرفي كان بسبب مرضي. أنا لم أشف تماما منه. لكن بروز صورة ''شهرزاد'' في مخيلتها خلق ذعرا منها: كانت ضخمة جدا بعينين ثاقبتين تخترقان ضعفها وخراقتها لتعمقهما أكثر فأكثر. وراء نظرات ابنة عمتها المتعاطفة كانت تستطيع دائما أن تتحسس ذلك الاحتقار المشوب بالشفقة، مزعزِعا خلف الكلمات الرقيقة ثقتها بنفسها، دافعا إياها صوب الصمت والانطفاء.

أمعنت النظر في لوحة العناوين المجاورة لحافة بوابة المبنى. وحينما قرأت اسم ''صالح'' انتابها شك بحقيقة اللحظة: أن تكون فعلا قد انقطعت علاقتها بعالم ظل حتى الصباح شرنقتها الكاملة، وها هي فجأة أمام خطوة أخرى تقودها صوب المجهول. لكن أصابع خفية راحت تدفعها بعيدا عن البوابة في وقت كانت هناك خيوط أخرى تجرها إليها.

مست الجرس، لحظة واحدة، في وقت اندفع قلبها بنبض جارف. وبعد أن تنفست بعمق عدة مرات رفعت إبهامها بحذر وتصميم: لا بد أنه لم يسمع الجرس. عليك أن تكوني حازمة ولو لمرة واحدة في حياتك. لكنها لم تستقبل سوى الصمت. هل يكون ما زال نائما؟ دقة أطول ويستيقظ. اندفعت شيئا فشيئا بتكرار ضرب الجرس. فجأة انفتح الباب عن رجل عجوز يقود

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كلبه. ألقى عليها نظرة استغراب: مدام، هل تريدين الدخول؟ وبدلا من إجابته بالنفي ظلت صامتة لتعمق الدهشة على وجه الآخر مصحوبة بقليل من الذعر. ثم مضى مسرعا في خطواته وهو يتحدث إلى كلبه.

رفعت رأسها باتجاه نافذة شقة ''صالح''. كانت الستارة مغلقة. هل هو متخفٍّ وراءها؟ أم هو مع ''شهرزاد''؟ لعلهما الآن يراقبانها باستمتاع من هناك. وضعت لا إراديا كفها أمام وجهها. كأنها أرادت بذلك تجنب الأذى الناجم عن نظراتهما الساخرة.

* * *

لكن ''صالح'' كان حقا خارج شقته. ففي لحظة مغادرة ''بيداء'' لمحطة المترو واستدارتها يمينا أغلق هو بوابة العمارة وراءه. انتابته حيرة للحظة: هل يمشي يمينا صوب المقهى الإيطالية المجاورة للمحطة أم شمالا صوب البارْك. وعلى غير عادته بتناول قهوة الصباح في ذلك المكان انساق مع الخيار الثاني.

حضرته صورة الفوضى التي غمرت شقته. كانت أوراق روايته ممزقة ومبعثرة في كل مكان: فوق الكنبة، فوق أرضية غرفة الجلوس، وبين أغطية سرير النوم. في وقت أغلقت أوراق يومياته الممزقة حوض الحمام ومقعد التواليت وحينما سحب سلسلة خزان الماء الموضوع فوقه فاجأه الحبر الأسود قبل أن يتسرب من بين الورق الممزق ببطء.

كان سطح طاولة القهوة هو الوحيد الذي احتفظ بترتيبه داخل الحجرة. وفوقه وضعت ورقة بيضاء مطبّقة مرتين

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بطريقة أنيقة تتعارض مع المناخ السائد فيها. "هدفي من كل ذلك هو تخليصك من الأوهام التي تحملها عن نفسك. أنت لن تكون كاتبا قبل أن تتعلم الصدق...ابعث لي بمفاتيح البيت بالبريد. ولا تحاول الاتصال بي أبدا.."

قدّر ''صالح'' أن ''شهرزاد'' قامت بغارتها قبل وصوله إلى البيت أمس بساعة، ولو لم يقبل بدعوة زميلين للذهاب إلى البار القريب منه بعد العمل لما أتيح لها الوقت الكافي للعبث بمسكنه. لحظة دخوله إليه ظن أن لصوصا زاروه في وقت مبكر. وكاد يتصل بالشرطة تحت وطأة المفاجأة، قبل أن تملأ رائحة العطر الذي اشترته له ''شهرزاد'' أنفه. قالت له ضاحكة: لا تنس أن تستحم به قبل أن نلتقي... إنه عطري المفضل. أراد أن يسألها: كيف اكتشفته. لكنه فضل الصمت. ما أدهشه هو تضوع نفس تلك الرائحة القريبة من رائحة زهر الليمون في كل مكان، فراح يتقصاها مذهولا من غرفة إلى أخرى كأنه يسير في حلم محض، وحينما عثر على قنينة العطر مرمية في غرفة الجلوس وسط أوعية المطبخ والوسائد المبعثرة خمن من الفاعل.

هل اكتشفت ''شهرزاد'' علاقته العابرة بـ''بيداء''؟

لاحظ منذ أسبوع تغيرا مفاجئا في تعاملها معه، فحينما ذهب إلى بيتها خلال عطلة نهاية الأسبوع طلبت منه أن ينام في غرفة الجلوس. كذلك بدت ''هيلين'' على غير عادتها شديدة التحفظ والتهذيب، ولم تخرج من غرفتها إلا مرتين أو ثلاثا.

استيقظ وسط الظلمة على صوت المطر. استقبلت عيناه خط الضوء الواهي المتسلل من فجوة الباب غير المغلق تماما.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

حضره شعور عميق بالعزلة، كأنه كان يقيم آنذاك في كوكب منبوذ وناء عن أي أثر بشري.

هل بدأت ''شهرزاد'' علاقة أخرى وتريد أن تقصيه عن حياتها شيئا فشيئا؟ آنذاك تلمس الفارق بين عالميه المتجاورين: بيتها وبيته.

في الأول، هناك الدفء والانصهار الكامل بها، فعبرها كانت القصص تحضر عن مرضاها وزملائها بشكل تفصيلي ممتع، وعبرها تتحقق الوحدة بين الحاضر والماضي، على الرغم من أنها تنقل عالم طفولتها في بغداد فقط. كأنما كانت علاقتهما معا تحقق لهما جسرا يوصلهما بماض افتراضي تتمثل آثاره بالأغاني البغدادية القديمة التي تتردد كلما حضر إلى بيتها عبر كاسيتات التسجيل ووجبات الطعام المحلية التي بدأت ''شهرزاد'' تتعلمها الآن وتعدها فقط عند قدومه.

وفي الثاني، هناك العزلة. لكنها عزلة من نوع خاص، محكومة برغبة دفينة ظلت تسكنه منذ مراهقته: أن يعيش حياته كمختبر سري يجرب فيه كل رغباته. وفيه يستطيع أن يكتب ما يشاء حول أي شخص وفي أي موضوع، وأن يدعو زميلة أو طالبة ما لقضاء ليلة معه إذا شعر بأنها تستلطفه. أن يكون قادرا على حجز نفسه إذا شاء داخل بيته أو أن يفتحه لعدد غفير من الزملاء. في هذا العالم ليس مهما تنفيذ الرغبات بل توفر إمكانيات تحققها. إنه عالم ممكنات أكثر منه عالم تطبيقات.

أضاءت ذهنه الفكرة وهو يتقلب على الكنبة الضيقة. كأنه في عالمه الأول، يتحقق اندماجه الكامل عبر ''شهرزاد'' بالكون: إنها مشيمته التي تربطه بالرحم. وفي عالمه الثاني

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يتحقق الانفصال عن الكون ليجد نفسه قادرا على تفكيكه إلى عناصره الأولية. على مكتبه الصغير كتب جملة لسقراط أخفاها عن أعين الآخرين حتى وصول أصابع ''شهرزاد'' أمس لترميها في المجاري الصحية: الحياة غير المختبَرة لا تستحق أن تعاش.

لكنه تحت وطأة ذلك النبذ الشامل الذي شعر به آنذاك، تحت سطوة سقف بدا أخفض بكثير من حقيقته بفعل الظلمة، وتحت وطأة صفير الريح ونقرات المطر فوق زجاج النافذة، كان على أتم الاستعداد للتخلي عن عالمه الثاني. هل يتوجه الآن إلى غرفة ''شهرزاد'' ويطلب يدها؟

تملكته أمنية واحدة جعلته مستعدا للتضحية بحياته من أجل تحققها: أن تمد ''شهرزاد'' يدها إليه. أن تأخذه إلى فراشها، أن تهدهده حتى ينام ثانية.

لم يفكر ''صالح'' من قبل بفعل الحب مع ''شهرزاد'' بهذه الطريقة إلاّ وهو مستلق فوق تلك الكنبة. لم تكن لحظة بلوغه الذروة معها فقط شبيهة بلحظة نزع الأفعى لجلدها كما كان يصفها لها من وقت إلى آخر وهما يشتركان في سيجارة أو قدح من الشمبانيا بعد استرخائهما، بل هي لحظة اكتساب قوة خيالية تجعله أكبر بكثير من حقيقته. آنذاك وعبر إغماض عينيه كان يتخيل ''شهرزاد'' أنثى أخرى: أصغر وأجمل مما هي عليه بكثير. بينما تظل أذناه تلتقطان كلماتها وآهاتها المحفزة لتطمئناه أنها هنا بجانبه؛ مع أرث أسرتها العريق، مع إنجازاتها، مع ثقتها المطلقة بالنفس، وكأنها في تلك اللحظة تبث كل هذا المزيج في شرايينه مقابل اندماجه بها.

بدا له البارْك أجرد، على الرغم من احتفاظ أشجار السرو

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

والأرز بخضرتها. وبقاء بركة الماء على حالها. كأن تلك الألوان الزاهية التي كان يراها ثمرة لعلاقته بـ''شهرزاد''. خلال كل سنوات علاقتهما ظلت ''شهرزاد'' حريصة على إبقائها خفيفة ومرحة. وحتى حينما كان يعتذر عن الذهاب إليها في نهاية عطلة الأسبوع لم تكن تسأله عن السبب.

عاد إلى شقته فواجهه مشهد الفوضى الكئيب. راودته رغبة بإعادة ترتيبها فصعدت رغبة مضادة في أنفاسه تدفعه لإبقاء كل شيء على ما هو عليه. وقف قليلا أمام مرآة خزانة الملابس في غرفة نومه. تلمس تلك الخدوش على وجهه وآثار عضتي الحب الحمراء على رقبته.

بعد يومين على ذلك الصد الذي لاقاه في بيتها، جاءته ''شهرزاد'' مشرقة الوجه. ستنام الليلة ''هيلين'' في بيت صديقتها "نادين". هل ستقبل باستضافتي أم لديك مشاغل أخرى؟ سكنته الدهشة إلى حد جمدت الكلمات فوق سقف حلقه. حتى لو لم ترغب بذلك سأبقى هنا هذه الليلة... إنها غزوتي الأخيرة قالت بمرح.

وكعادته في مناسبات كهذه كان يبذل قصارى جهوده للتعويض عن بساطة سكنه مقارنة بمسكنها الراقي، بشراء أفضل أنواع الشمبانيا والتعويض عن مصابيح الإضاءة بشموع معفرة بعطور الحبق والياسمين والجوري، كان ينشرها في كل زاوية من غرف شقته. ولا تبقى هناك أصوات في البيت عدا ضربات البيانو لبعض سوناتات ساتي الهادئة، تتسرب إليهما من غرفة الجلوس كأنها، خفقات متباعدة لماء متدفق من نافورة وهمية.

وسط الليل استيقظ من نومه على نحيب خافت. أدار جسده

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

صوبها. سألها بحذر: هل يؤلمك شيء؟ قالت بنبرة مختنقة: نم ليس هناك أي شيء.. مجرد آلام عادية في المعدة. لكنه حينما استيقظ صباحا وجدها مستعدة للخروج. "بقيت كمية كبيرة من القهوة، هل تحب أن تشربها في الفراش؟" وقبل أن يجيبها التصقت عيناها في وجهه. وضعت باطن كفها الأيمن على فمها للحظة لتنفجر في ضحكة مختنقة. "أنصحك ألا تقف أمام المرآة حتى أغادر البيت." وحينما قرأت انزعاجا فوق وجهه تمتمت مناكدة إياه: "إنه ليس أمرا خطيرا. لن تستطيع أن ترفع علي دعوى. هذا هو توقيعي الأخير على اللوحة التي انتهيت للتو من صنعها"

* * *

عند خروج ''شهرزاد'' من شقة ''صالح'' كانت تعيش حالة من الهدوء والغبطة تتنافى تماما مع تلك الهواجس التي سكنتها منذ أن أخبرتها ''هيلين'' بما شاهدت في بيت ''عبدل''. في الطريق إلى المستشفى استرجعت ذاكرتها تفاصيل لقائهما العاصف. كم بدا ''صالح'' مشغوفا بها. وحينما استيقظ في الصباح ليجدها جاهزة للخروج ارتسمت على وجهه بصمات الفجيعة كأنه على وشك فقدان شرط أولي تقوم عليه حياته. "لا تخف... سنلتقي قريبا" قالت بنبرة مطمْئنة. توقعت في تلك اللحظة وهي تراقب تقاطيع وجهه أن يفاجئها: "ما رأيك لو نتزوج؟" لكنه بدلا من ذلك استرجع دوره الأبوي الذي يحب أن يلعبه لا شعوريا حينما يجد نفسه محاصرا بضعفه، مستفيدا من طول قامته: "لا تجهدي نفسك اليوم.." ثم أضاف عبارة ساعدته على استرجاع الثقة بنفسه: "لقد عملتِ كثيرا ليلة أمس وتستحقين إجازة" وحينما لم يجد لكلماته صدى مرحا في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

نفسها، احتضنها مقبلا قمة رأسها. قالت بنبرة زاجرة ومداعبة في آن: "اترك شعري مصففا. سيغضب عليك مرضاي. عليك أن تشتري مجفف الشعر... من أجلي على الأقل" لكنه تظاهر بعدم سماعه لكلماتها الأخيرة. "هل تحبين أن نلتقي في عطلة نهاية الأسبوع؟" سأل بنبرة محايدة. فأجابته بحزم: " ليس هذا الأسبوع بل اللاحق... ربما... أوكَي؟"

وفي المستشفى مرت جلساتها مع المرضى بسرعة، ولعل انشراحها الداخلي انعكس على حديثها معهم. كانت تستطيع أن تقرأ علامات العرفان بالجميل على وجوههم تتعمق أكثر فأكثر مع كل عبارة تشجيع أو طمأنة توجهها لهم.

ظلت بين مريض وآخر تذهب إلى غرفة المرافق المخفية عن أعين المراجعين. وهناك كانت تمعن النظر بوجهها. بعد المريض الثاني، بدت لها الغضون الخفيفة الثلاث التي تعتلي جبهتها أقل عمقا مما كانت عليه بالأمس. مررت أصابعها فوقها فاركة إياها برفق. رسمت ابتسامة واسعة على وجهها فكادت الخطوط تختفي، لكن غضونا قصيرة أخرى تحلقت حول عينيها.

كان مزاجها رائقا عند وصولها إلى البيت. وبعد العشاء سألت ابنتها إن كانت هناك مكالمة هاتفية لها. وحينما أجابتها بالنفي شعرت بالضيق. هل كانت تتوقع مكالمة ما تساعدها على التحرر من عبء معرفتها بسر كانت تتمنى لو ظل مغلقا أو موضع تكهنات محض. لكن ''هيلين'' كانت جازمة في شهادتها. اسألي ''نادين'' إن كنت لا تصدقينني. شعرت بانزعاج أكبر أن تكون ''نادين'' بالذات طرفا في هذه الفضيحة. كيف تستطيع أن تواجه صديقها القديم وابن بلدها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

''حسين'' ثانية إن هي ظلت مرتبطة بـ''صالح''. اعتادت أن تكون صريحة معه في علاقاتها العاطفية بالرجال، وهي التي تعرفه ذا عقل عشائري بسيط لكنه مع ذلك ظل يكنّ لها احتراما يصل إلى حد التقديس. وها هي تضع نفسها أمامه في موضع عسير على الفهم: ابنة خالها مع صاحبها العريق.

رددت في نفسها وهي تتطلع إلى الهاتف الأحمر: ماذا تنتظر.. اِضرب الرقم على الأقل لتسألني إن كنت استمتعت بليلتي معك.. نعم استمتعتُ جدا.. "ما رأيكِ لو آتي الآن؟" "سأسمح لكَ بشكل استثنائي هذه المرة." ليذهب الجميع إلى الجحيم.. إنها معتادة على خرق المحظورات لدى الآخرين ثم التمتع بمراقبتهم وهم تحت وقع الصدمة.. سيكون ''عبدل'' هو شاهد الزواج مع ''حسين'' أما ''بيداء'' فستكون وصيفتها. ستنظم عرسا هائلا تدعو فيه كل عشاقها السابقين. ستحتفل بكل أعوام حياتها التي قضتها معهم. وها هي تتوجها بالاقتران بشخص قادم من مسقط رأسها على ظهر حصان أدهم.

حضرها مشهد ''صالح'' لحظة توديعه هذا الصباح. بدا لها مملوءا بالقوة والثقة بالنفس. على عكس ما كان عليه خلال الأشهر التي أعقبت لقاءهما الأول. كم كان مضطربا في تعامله مع العالم الخارجي. في الفندق الذي ذهبا إليه لأول مرة بعد تعارفهما. انكمش على نفسه وهو يقدم جوازي سفرهما إلى موظف الاستقبال، وفي الغرفة التي جمعتهما انفجرت به بحدة: "لماذا تنزل رأسك كثيرا كأنك تتوقع ضربة من الآخر؟ هل ارتكبت جريمة في حياتك تجعلك خائفا من الآخرين؟" فما كان منه إلا أن جلس على مقعد مركون في أقصى نقطة عن السرير، شادا ذراعيه على صدره. لكنها لم تحتج إلى وقت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

طويل قبل كسب رضاه ثانية: "اعتذر.. يجب أن تتقبلني كما أنا... وإلا فعليك أن تهرب فورا"

جاءها ذلك الاكتشاف المفاجئ كلحظة برق خاطفة: كل الرجال الذين انجذبت إليهم كانوا ضعفاء وفاشلين...وعند انفصالها عنهم كانوا أقوياء وناجحين. وكأن سكب القوة فيهم قابله مقت تدريجي، تنامى في دواخلهم تجاهها. هل هو قدرها أن تكرر هذه اللعبة دون كلل؟ قد يكون السبب وراء ذلك أنهم يمنحونها الإمكانية لتوسيع حدود قدراتها. فهم يستفزون غضبا عارما في داخلها يحثها على المواظبة والتفوق؛ على تحدي الحواجز التي تقف في وجه عشاقها. إنها تستفزهم كي يكونوا مثلها: صريحين، ومباشرين وحازمين.

لم تنم سوى ساعات قليلة ظلت خلالها تستفيق من نومها كلما تسلل إليها حلم ما. شاهدت أباها مرارا وهو على فراش المرض. ولم تبد على وجهه تقاطيع الغضب منها مثلما بدت حينما أخبرته عن نيتها بالزواج من ''ستيفن''. "هل يمكن أن تتزوج ابنتي الطبيبة من متشرد مفلس؟" ولم تجد أي غضاضة في الرد عليه ببرود كامل: "هذه مشكلتي" "وماذا عن خصومي السياسيين؟ ما الذي سيقولونه عني؟" "إذا كانوا خصومك فلمَ تهتم بآرائهم؟ هم سيظلون في كل الأحوال خصومك؛" "وماذا عني، وعن مشاعري تجاه قرارك المتهور؟" "إنها مشكلتك،" قالت بعد صمت قصير. فما كان من الأب إلا أن نهض دون أن ينطق بحرف واحد ويغادر المقهى. ولم تره إلا بعد عشرة أعوام على أثر وفاة ''ستيفن''.

حينما غادرت فراشها كانت ''هيلين'' قد غادرت البيت. كم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بدت لها خلال الأسبوع الأخير أنضج وأحرص على إرضائها من قبل. كلما وجدتها جالسة وراء مكتبها أو في غرفة الجلوس أو في فراشها تبرز بخفة أمامها: هل تحبين أن تشربي شيئا؟ أو هل تحتاجين إلى أي مساعدة؟ كأنها كانت تريد أن تقول لها: نحن أسعد من دون رجل مثل ''صالح''.

هاتفت سكرتيرتها: الغي مواعيدي مع المرضى. أنا نفسي مريضة اليوم.

راودتها رغبة في التحدث هاتفيا مع ''صالح''. اندفعت في تدوير الرقم الذي تحفظه وقبل أن تنتهي منه بدلت رأيها. أغلقت السماعة ونهضت صوب المطبخ. سيعيد كوب من القهوة لها صفاء الذهن. عليها أن تتجنب الاقتراب من الهاتف. إذا بادرت هي بالاتصال بـ''صالح'' سينسحب هو خطوة إلى الوراء.

جلست في حجرة الجلوس على أبعد كرسي عن الهاتف. لكن ذلك جعلها أكثر فأكثر راغبة في الاتصال به. التفتت إلى صورة فوتوغرافية باللونين الأسود والأبيض، كانت ضمن مجموعة جلبتها ''بيداء'' معها من بغداد عند قدومها لأول مرة. كانت مسنَدة وراء زجاج خزانة التُحفيات. فتحت بابها ومدت يدها ببطء صوبها. أمعنت النظر في تفاصيلها: ها هي تقف مع مجموعة من أقاربها في بغداد. وليس مستبعدا أن تكون قد التقطت قبل سفرها الأخير إلى لندن بفترة قصيرة. في عينيها بدا قدر من الضجر كأنه ناجم عن قدوم أقاربها. لكنها لم تستطع أن تسترجع تلك اللحظة منذ مشاهدتها للصورة، رغم كل محاولات ''بيداء'' لتذكيرها بمن كان معها في الصورة. وأين أنتِ؟ سألت ''شهرزاد'' فجاء جواب بنت خالها يحمل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

خيطا من الخيبة والاستغراب: ألا ترين. أنا بجانبك وأنت تمسكين بيدي.

جلبت مكبرة تستعملها أحيانا لتفحص صور أشعة أكس. وضعت الصورة على طاولة القهوة. أشعلت ضوء المكبرة ثم وضعتها فوق الجزء الخاص بهما هي و''بيداء''. هناك تحت عينيها بدا فارق العمر بينهما مريعا: كانت ''بيداء'' مجرد طفلة جميلة لا يزيد عمرها عن الست سنوات بينما بدت هي مراهقة حزينة تجاوزت للتو سن السابعة عشرة. ما الذي تركت هذه الصورة من انطباع في نفس ''صالح''؟ لا بد أنه اكتشف الفارق في السن، الذي تخفيه الآن الملابس الأنيقة وبصمات الماكياج المتواصلة وقَصَّة الشعر الغلامية.

فتحت بشكل لا إرادي غطاء أحمر الشفاه وراحت تمرره فوق المساحة التي تحتلها ''بيداء'' في الصورة. بدا لها الناتج مثيرا للغرابة: في مناخ صورة بالأسود والأبيض تعود لأواخر الخمسينات برز اللون الأحمر نشازا فاقعا. راودتها رغبة بتمزيق الصورة لكن حبها للاحتفاظ بصورتها التي نسيت كل التفاصيل التي رافقت التقاطها كان أقوى من المضي في تنفيذ نزوتها.

وضعت قليلا من مادة قاصرة في صحن صغير. ثم نقعت عودا لتنظيف الأذن في السائل، ومررته فوق اللون الأحمر. بعد تكرار المحاولة عدة مرات وترك الصورة لتجف عادت ''شهرزاد'' إلى الحجرة لتجد ''بيداء'' قد اختفت من الإطار ولم يبق وراءها سوى بقعة بيضاء.

تسرب إليها هاجس موت ''بيداء'' وهي تتطلع إلى الصورة. بدت تلك البقعة الشاحبة التي حلت محلها وكأنها تشكل ملمح

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

شبح صغير يقف بجانبها في وقت أطلت عيون ذلك الخليط من الأقارب أمامها، متحدية بنظراتها طبقات الزمن وقوة النسيان. قدرت عمر الحاضرين في الصورة: هذا الصبي هو الآن في منتصف الثلاثينات إن كان ما زال حيا أما تلك المرأة الستينية فهي لا محالة ميتة. على الأكثر هي جدة ''بيداء''. برزت لـ''شهرزاد'' فكرة لم تستطع أن تحولها إلى كلمات فظلت محبوسة في أنفاسها كعلامة استفهام: بين هذه اللحظة الحالية ولحظة التقاط الصورة جرى تحول كبير: ما هو ممكن تلبس الآن واقعا محققا واحدا غير قابل للتبديل، بينما كان هذا الواقع المتحقق كامنا مع خيارات أخرى، قابلة هي أيضا على التحقق، في لحظة الضغط على زر كاميرا "البوكس" التحفية. اصطف الحاضرون جنبا إلى جنب أمام سور سطح البيت العالي ومن ملابسهم يستطيع المرء تخمين الموسم بأنه شتاء ولا بد أن الوقت لم يتجاوز الرابعة عصرا. استنتجت ''شهرزاد'' ذلك بفضل الظلال المائلة التي امتدت وراء الأقارب. وبفضل العدسة المكبرة تمكنت كذلك من رصد الظل الضئيل الذي خلفه جسد ''بيداء''. حضرها سؤال: ما الذي سيحدث لو أن ''بيداء'' غابت عن الصورة لسبب ما؟ لا بد أنها لن تجلب الصورة معها من بغداد ولما اكتشف ''صالح'' فارق السن بينهما الذي يميل لصالح بنت خالها. هل يمكن القول إن هذه الصورة كانت سببا وراء خيانته لها؟

أقصت ''شهرزاد'' تلك الأفكار اللجوجة عنها بالضغط على المسجل. حضرها صوت لوي أرمسترونغ الضخم والمتفائل مرددا تلك اللازمة: "وأنا قلت لنفسي كم هو يوم جميل".

شعرت بالذنب لإزالة ''بيداء'' من الصورة بهذه الطريقة، فاندفعت بتمزيقها. لكن ندما حادا تسرب إليها وهي تنظر إلى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

قطعها الصغيرة المتفرقة فوق طاولة القهوة. كأنها بذلك الفعل تريد أن تفلت من مسار تحددت ملامحه قبل سنوات من قدومها إلى لندن.

انشغلت لساعات في ترتيب أجزاء الصورة الممزقة: حافة هذا الرأس لا تنطبق مع حافة هذه الذراع. وهذه التنورة لا تتماشى مع هذا القميص. وحينما جاءت قطعة البقعة البيضاء فوجئت باكتمالها، حيث بدت عند حافتها يد ''شهرزاد'' اليسرى وهي تمسك بآثار يد صغيرة.

ملأت أنفها رائحة الكلور القادمة من قطع الصورة، بعد ترتيبها فوق الطاولة. حضرت إليها رائحة روبها المتروك في شقة ''صالح''. كانت تحب ارتداءه قبل الانغمار معه في عمل الحب حيث تظل تتنقل ما بين المطبخ والحمام وغرفة الجلوس متشممة ما تركه اللقاء السابق بينهما من روائح فوق الروب الياباني الذي اشتراه ''صالح'' لها بمناسبة يوم ميلادها. لكنها في لقائهما الأخير لم تستلم أي رائحة منه. "هل غسلتَ الروب؟" سألته وهي تستحضر ''بيداء'' أمامها عارية إلا من هذا الروب القصير. أجابها متجنبا النظر إلى عينيها: "أخذتُه إلى مغسلة تنظيف بالبخار" "لكنني أحبه كما كان،" قالت بنبرة حازمة. فما كان منه إلا أن ردد ضاحكا: "كان بحاجة إلى التنظيف... لو لم أفعل ذلك لاتّهَمْتِني كعادتك بحب القذارة" قالت وهي تنقلب على الفراش واضعة يديها العاريتين فوق المخدة بينما غطت رأسها تحتها: "أنا أحب بقاء هذه القذارة. كان عليك أن تنظف كل شيء في بيتك إلاّ هذا الروب"

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

راود ''هيلين'' في البدء شعور غامر بالانفراج: هل حقا لن يأتي ''صالح'' إلى بيتهما بعد اليوم وإذا جاء فلن يحتل موقعه الملكي السابق؟ حينما أخبرت أمها بما شاهدته في بيت ''عبدل'' لم تظن قط أنها ستغضب بهذا الشكل. بل حتى ظنت أنها ستضحك للحكاية بأكملها، وقد تربت على كتفها قائلة: أنت محقة في رفضك الدائم له. أنا كنت مخدوعة به.

لكن الأيام اللاحقة كشفت لها حقيقة أخرى كانت غائبة عنها تماما. فبعكس تلك العلاقات العاطفية العابرة التي عاشتها أمها قبل ظهور ''صالح'' في حياتها ها هي تراها من دونه طائرا بجناحين مكسورين، على الرغم من كل مساعيها لإخفاء ما كان يغلي في أعماقها. فبدلا من نهوض أمها المبكر وانغمارها أولا بتمارين رياضية ثم أخذها لدوش يعقبه إعداد الفطور الإنجليزي أصبح عليها هي أن توقظها، ولن تتناول ''شهرزاد'' شيئا قبل ذهابها إلى المستشفى سوى كوب قهوة مع الحليب.

بدت لها التجاعيد فوق وجه أمها أعمق من قبل. وحل محل موسيقى الجاز والبلوز التي تعشقها صمت أكبر. بالمقابل، تغلغل في دخيلة ''هيلين'' خوف غامض من موت أمها.

لم تخبرها ''شهرزاد'' بموت أبيها إلا بعد عامين. فهو لم يكن يسكن معهما. مع ذلك كان يأخذها في بعض عطل عيد الفصح أو الكريسماس إلى بيت جدَّيها بـ"سمرست" لتبقى معهما وحدها عدة أيام. هل حدث اكتشافها الخطير ذاك قبل عيد ميلادها الرابع أم بعده؟ كانت جالسة في القطار مع أبيها في طريقهما إلى سَمَرْسَت ولا بد أن يكون الموسم صيفا إذ ألبستها أمها قميصا بنصف كمّ مثلما هو الحال مع أبيها. قالت له وهي تتطلع إلى كفها الموضوع فوق كفه الضخم: انظر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لكنه لم يعرها اهتماما فاكتفى بهز رأسه وعاد إلى كتابه. كانت منبهرة بلون بشرته الأبيض بجانب بشرتها السمراء. وفي بيت جديها انكمشت على نفسها وهي تراقب فارق اللون الصاعق بينها وبينهما. هل لهذا السبب كانا يقسرانها للذهاب إلى الفراش مبكرا فتظل وقتا طويلا تحت ظلمة مطبقة تتنصت إلى أصوات الكبار وراء الباب المغلق.

تتذكر ''هيلين'' الآن كيف كانت تشعر بالحماية مع الرجال الثلاثة الذين سبقوا ''صالح''، حتى حينما كانوا يتجاهلون وجودها. كانت تتصرف معهم بلطف شديد وعندما تخرج برفقة أي منهم مع أمها تشعر بالقوة بفضل لون بشرتهم. إنها تستطيع أن تتحدى رفاق مدرستها الذين لا يكفون على تذكيرها بلونها: "من أين أبواك؟" تتحدى نظرات معلماتها ودهشتهم: ما اسمك؟ ''هيلين كلارك''... ''كلارك؟'' ثم برز ''صالح'' فجأة.

هل تعرف أن أبي كان جميلا جدا؟ تقول له ذات يوم بعد أن ذهبت أمها لشراء صحيفة يوم الأحد له. أعرف ذلك، يجيبها ''صالح'' من تحت اللحاف الذي غطى كل جسمه. هل تعرف أن كل أصدقاء أمي وسيمون؟ تردد بنبرة حادة، لا أعرف كيف قبلت أمي بك؟ يسألها ''صالح'' ضاحكا: ما الخلل فيّ؟ رقبتك تشبه رقبة النعامة ولون بشرتك... وقبل أن تكمل جملتها تكون أمها قد دخلت إلى البيت وسمعت آخر ما رددته ''هيلين''. تصيح بها بغضب: اعتذري لـ''صالح'' واذهبي مباشرة إلى غرفتك ثم اغلقي الباب وراءك.

وسط انشغالها بإدارة لعبة الغميضة جاء ''رمزي'' أخو ''نادين'' الأصغر شاكيا: في تلك الغرفة شاهدت عفاريت، أنا لن أدخل فيها أبدا، فصاحت أخته: أنت تتوهم، العفاريت في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أفلام الكرتون فقط. وحينما أصر على عدم الذهاب إليها قالت ''نادين'': سأتخفى معك أوكي؟ لكن ''هيلين'' أوقفتها: خذيه إلى العلية، هناك أماكن كثيرة للاختباء. برقت في ذهنها صورة ''بيداء'': هل نزلت حقا إلى الطابق الأرضي بعد أن هدهدت ''لبنى'' أم إنه المرض مرة أخرى؟ ما رأيك لو نجلس في هذه الغرفة ونجرب الصمت عشر دقائق؟ قد يظهر عفريت ما في الأخير، قالت لـ''نادين''.

لم تصدق عينيها حينما شاهدت ''صالح'' بقامته الطويلة والنحيلة، يتسلل بخطوات قصيرة صوب السلّم. لكنها حتى تلك اللحظة لم تكن تصدق وجوده مع ''بيداء''. كادت تصرخ به: بُم. لكن هسيس انفتاح باب ''لبنى'' ثانية جمَّد الكلمة في فمها. كانت مع ''نادين'' واقفتين بجانب شق الباب الصغير في قلب ظلمة مطبقة وعيناهما تنفذان إلى ذلك الممر الأقل عتمة. حال اختفاء ''صالح'' ظهرت أمامها ''بيداء''. بدت لها شبحا حقيقيا لا تكاد قدماه تمسان الأرض. ودون إرادتها صاحت ''هيلين'' من موقعها: أمسكتك.

* * *

حينما دخلت ''شهرزاد'' شقة ''صالح'' انتابها شعور غريب: إنها تخترق عالما محرما عليها إلا بحضوره، على الرغم من وجود نسخة من المفتاح معها وإلحاحه الدائم عليها كي تأتي إلى شقته متى تشاء.

بدا وكأن زمنا طويلا جدا مر عليها منذ قدومها الأخير لها لا مجرد خمسة أيام فقط. انتابها شعور بالندم لرفض عرض ''صالح'' بقضاء عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة في بيتها. خلالها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

حاولت الالتقاء ببعض أصدقائها القدامى، ففاجأها أن يكونوا جميعا مشغولين بالتزامات أخرى. كان أمامها ''حسين'' وزوجته بربارة لكنها فضلت تجنب الالتقاء بهما.

تمنت لو أنها تمكنت من الالتقاء بأي من عشاقها السابقين خلال الأيام السابقة. كان مجرد تصور كسب إعجاب بها كامرأة كافيا لإقصائها عن ذلك الصهريج الذي ظل يغلي في داخلها كلما برز اسم ''بيداء'' في ذاكرتها. كأن ابنة خالها هي السبب وراء كل مشاعر يأسها وعزلتها. مع ذلك ظلت تقف ضد تنامي الغيوم في نفسها: هذه هي لندن: حينما تكون بحاجة إلى أصدقائك لا تجدهم وحينما تنتفي الحاجة إليهم يكونون رهن إشارتك.

شعرت بنفور غريب من المكان الذي ظل واحة لها تخرج عبره من رتابة الحياة اليومية. هنا تبدو كأنها طالبة جامعية بلا أي قيود أو التزامات بل حتى حقيقة أمومتها تتلاشى ضمن الوهم الذي كان ''صالح'' يصنعه لها بانتظام عبر الشموع والموسيقى. كانا يلتقيان وكأنهما بلا أي ماض، سعيدان بحقيقة كونهما يتكلمان لهجة المدينة نفسها التي ولدا فيها على طرفي نهرها المختلفين: هي في الرصافة وهو في الكرخ. وكل ما كانا يفعلانه هو اختلاق ماض مغرق بالفنطازيا. كان ''صالح'' يحدثها عن تلك العنادل التي يعلمها الغناء إلى الحد الذي دفع الإذاعة الحكومية إلى تسجيل تغريد أحدها والالتزام ببثه كلما بدأت المحطة برامجها فجرا. بالمقابل كانت تتحدث له عن تعلمها المبكر لتسلق شجرات السدر الثلاث في حوش بيت أهلها الكبير. كانت حبات النبق فيها تصل إلى حد حجم البطيخ!

لكن هذه الشقة تعود الآن إلى بنت خالها الجميلة. كم مرة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

جاءت إليها برفقة ''صالح''؟ ما الذي يقولانه عنها؟ وهل تظل مثلما هو الحال كلما التقت بها غارقة في الصمت حيث تظل عيناها تتابعان بذعر تقلص عضلات وجه ''عبدل''. وحالما ينتابه الاسترخاء تسترد ''بيداء'' القليل من حيويتها. مع ذلك تظل غائبة عن الجميع باستثناء متابعتها الدؤوبة لأطفالها. أحيانا كانت تمضى ساعات من الجلسة من دون أن ينتبه الحاضرون إليها. فجأة يلتفت أحدهم إليها فتظل أثناء حديثها معه تراقب مدى رضا ''عبدل'' عنها. حينما سألت ''صالح'' ذات مرة عن رأيه بها قال بعد لحظة صمت: "إنها رمز للأمومة"، "وعدا ذلك؟" سألته، فما كان منه إلا أن التفت إليها ضاحكا: "هي بنت خالك ليس إلا!"

في غرفة النوم فتحت باب خزانة ظنتها من قبل مخصصة لحفظ الأشياء القديمة. ففوجئت بمحتويات من نوع آخر مختلف تماما عما ظنته. كانت أمامها مئات من الملفات المرصوفة بانتظام فوق رفوف الخزانة الثلاثة. سحبت واحدا منها: قرأت عنوانها على الغلاف: حيوانات ونباتات صحراء كلهَاري. وفي داخله كانت هناك مقالات وصور مقتطعة من مجلات وصحف. في ملف ثان قرأت عنوانا غريبا: أسوأ مائة طاعون في التاريخ. وفي آخر: خصائص أبناء برج الحوت.

لم تكن الملفات الكرتونية المرتكزة على قاعدة الخزانة مرئية وهذا ما دفع ''شهرزاد'' إلى القرفصة للوصول إليها. سحبت بشكل عشوائي ملفا من بينها. فاجأها العنوان: ''بيداء''.

ترددت أولا في فتحه. جلست على السرير. وراحت تمرر أصابعها فوق العنوان. هل تفتحه أم تعيده إلى مكانه؟ هل سيصدمها محتواه أم يريحها؟ تنامى فضول أقوى في نفسها: ما

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الـذي يمنـع أن تكـون هـي الأخـرى مجـرد ملـف مثـل الملفـات الأخـرى؟ مرقـت فـي خاطرهـا صـورة عنكبـوت كبيـر يتحـرك وسط شبكة خيوط معثلة. سحبت عددا من الملفات، كان بعضـها يحمل أسماء أشخاص تعرفهم. لكن حدسها لم يخب: ها هي تجد نفسها موضوعة في ملف ذي حجم أكبر.

قررت أن تفتح ملف ''بيداء'' أولا. ملأها شعور غامض بـأن محتـواه سيقرر مصير كل شـيء حولهـا. بـدا لهـا العـالم أشـبه بمتاهة: كل هذه الملفات هي وسيلة لاقتنـاص فحـوى العـالم بعد تفكيكه إلى عناصره الأولية. من دون أن يتصور صـانعها بـأن ما سيقبض عليه هو أجزاء لا تمت إلا بصلة واهية بالكل.

انحبس الهواء في صدرها وهي تقرأ هذه السطور: "ما يميز ''بيداء'' عن ''شـهرزاد'' أن علاقتهـا بالعـالم الخـارجي محكومـة بنكران مطلق للذات بينما بالنسبة للأخرى تنقلب العلاقـة رأسـا علـى عقـب: إنـه نكـران للعـالم حينمـا يكـف عـن مسـايرتها فـي رغباتها"

في فقرة أخرى: "بعد توديعها اكتشفت أننـي اخترت الاتجـاه المعاكس. فكأنني ثملت بمذاق تلك القبلة التي منحتها لي بخجل. كانت شفتاها بتلتين نديتين من بتلات وردة جوري"

انتقلت إلـى صـفحة أخـرى. ألقت نظـرة إلـى الفقـرة الأخيـرة فيها: "تبدو ''بيداء'' بهشاشتها شبيهة بحيوان المحـار الرخـوي. وهي مع ''عبدل'' منزوعة عنها صدفتيها. إنها لأول مرة تكـون مـع شـخص يعتـرف بحقهـا فـي الاحتفـاظ بـدرعها، ومـن عالمهـا السري الغامض راحت تمنحني في كل لقاء حبة لؤلؤ ساحرة.

مزقت صفحات الملف بهدوء ثم رمتها في الهواء، بينما راح ذلك القدر الداخلي يغلي أكثر فأكثر في أعماقها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

تسرب إليها أمل من نوع آخر: ستسامحه إذا قرأت جملة إعجاب جسدي بها. فتحت ملفها الخاص. ساورها شعور بأنه يخص أحد مرضاها.

"علاقتي بها أشبه برقصة المولوي. يظل الشخص فيها يدور بنفس الطريقة كل مرة متوقعا حدوث المعجزة دون جدوى. كيف أستطيع تفسير هذه اللهفة لها. لكن حال بقائي معها أكثر من 24 ساعة يبدأ الهواء بالتقلص. هل هناك خلل ما فيها أو..."

لم تكلف ''شهرزاد'' نفسها عناء المضي إلى السطر اللاحق، إذ داهمها انقباض عميق جعلها تشعر كأنها تراقب شخصا مصابا بأمراض وهمية. شخصا يتحدث عن امرأة أخرى لا تمت لها بصلة. وهذا ما حثها على المضي في تمزيق الملف إلى قطع أصغر فأصغر.

لكن الخوف من بقاء أثر من ذلك الملف دفعها لرمي كل قطعه داخل مقعد التواليت. سحبت سلسلة خزان ماء التنظيف. وراقبت طفحان الحبر فوق قصاصات الورق قبل اختفاء بعضها إلى الأبد.

شعرت بالراحة. لكأنها تمكنت من التحرر من كابوس بغيض. دفعها الفضول ثانية إلى الخزانة. كان ''صالح'' يردد الإجابة نفسها كلما سألته ساخرة عن محتوياتها: أنتِ أمام صندوق بندورا.

أثارها ملف ضخم أزرق اللون ومزود بحاشية إضافية تنغلق بواسطة زرّين. على الصفحة الأولى قرأت بخط كبير: ''المبدع''.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

استرجعت بعضا من أحاديث ''صالح'' عن مشروعه الروائي ولا بد أن هذه الصفحات هي كنزه. كم كان يبدو جريئا وحيويا حينما يُسأل حوله.

تكونت لديها قناعة قوية فجأة: هذا الكتاب يعود لها كما يعود لـ''صالح''. إنها كانت مصدر إلهامه شاء أم أبى. "ليكتب الآن شيئا آخر وهو مع..." ولم تتمكن من لفظ اسم ابنة خالها تحت وطأة غليان القدر الشديد.

جلست على أرضية الغرفة وراحت تمزق المسودة ورقة ورقة، بعناية فائقة، كأنها كانت تؤدي طقسا دينيا لا يسمع فيه سوى الصفير الخافت الذي تتركه أصابعها فوق الورق أثناء تشققه.

لكن الرغبة بحذف السنوات التي جمعتها بـ''صالح'' كانت جامحة إلى حد أنها لم تكترث حتى بفكرة عودته: سأجبره على فعل ذلك أمامي.

فتحت جرار الكومودينو المجاور لسرير ''صالح''. مررت أصابعها بين الأوراق والصور وقطع النقود الأجنبية. توقفت عند دفتر أزرق صغير. فتحت أولى صفحاته، فواجهتها عبارة مخطوطة بعناية: ''المبدع'': الفصل الأخير، وتحتها ملاحظة مكتوبة بلون أحمر: نهاية محتملة.

وضعت الدفتر على السرير، ومضت تمزق أي صورة يقع نظرها عليها. ابتدأت أولا بصورها الخاصة التي التقطها ''صالح'' لها. بعد أن انتابها شعور وهي تتطلع إليها بأنها ليست سوى كائن عار تماما موضوع تحت مجهر عملاق. انتقلت إلى صوره الأخرى التي يعود أكثرها إلى العراق. هنا ملأتها رغبة بإنهاء أي إمكانية لدى ''صالح'' كي يفكر بالكتابة. فكأنها

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بتمزيقها لهذه الصور البعيدة كانت تقطع الشرايين التي تغذي ذاكرته ومخيلته. عليك أن تبقى معلما فقط. رددت بصوت مرتفع هذا هو ما خلقت من أجله.

قبل الخروج من الشقة تنقلت ما بين غرفها، مقلِّبة في طريقها أي قطعة أثاث، كاسرة الكؤوس والصحون بقذفها فوق الأرضية الخشبية.

قبل فتحها للباب الخارجي التفتت إلى الوراء. ملأها شعور غريب بالغبطة وهي تشاهد الفوضى. بدا لها المكان كأنه ضحية زلزال وقع للتو. تذكرت قبل أن تغلق الباب وراءها الدفتر الأزرق. فعادت لالتقاطه ووضعه في حقيبتها.
ستقرأه أثناء رحلتها بالمترو إلى البيت قبل تمزيقه.

* * *

كانت الشمس، منذ وقت طويل، مغروزة فوق رأسه بلا حراك، مما جعله يشعر كأن تلك اللحظة جمدت وسط متاهة مفتوحة. ومن خلال النافذة ظل يتابع خط الأفق المرسوم بعناية فوق تلك الأرض المستوية. هناك وبالقرب منه لاحت صورة فلّاح على ظهر حمار يتحرك ببطء شديد، ولم يسمح تماوج شريط السراب الملتمع إلا بتخفيف الصورة وجعلها تبدو كأنها لحظة حلم كان ''المبدع'' يعيشها، تتقاطع مع أزيز طائرات الهليكوبتر التي ظلت تدور في السماء دون توقف فوق رتل سيارات المرسيدس الطويل.

شعر بالرضا الكامل عن النفس: حتى وهو يقف الآن على حافة الهاوية يقف معه كل هؤلاء الأتباع خاضعين له تماما بانتظار أوامره؛ حتى هذه اللحظة يسود النظام بشكل مثير

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

للإعجاب. أمامه يجلس السائق بينما هو جالس في الخلف يدخن سيجارا من نفس النوع الذي يفضله الزعيم. ومن موقع سيارته التي تتوسط القافلة يوجه عبر جهاز اللاسلكي رجاله الجالسين في السيارات الأخرى. يضغط على أحد أزرار جهاز التحكم الصغير الذي يحمله بين يديه فيأتيه صوت متأهب:

"نعم سيدي"

"كيف هو مسار المفاوضات؟"

"ممتاز سيدي. نقلت لهم كل ما أمرتموني به"

"وماذا قالوا؟"

"طلبوا أن ننتظر حتى يخبروا الزعيم"

"هل أخبرتهم بالصيد الذي معنا؟"

"نعم سيدي"

التفت إلى يمينه. بجانبه كانت هناك رشاشة صغيرة في هيئة مسدس. يعقبها فراغ صغير ثم جسد ورأس هائل الضخامة، وفوق العينين شدت عصابة شاش بيضاء. "تريد أن تدخن؟" سأله ''المبدع'' دون أن يلتفت إليه. بعد فترة صمت قصيرة جاءه صوت مرتعش قليلا: "كيف أستطيع التدخين وأنا في هذه الحالة" قال ''المبدع'' وهو يتمعن في جاكيتة التقييد التي تشل حركة الآخر: " يمكنني إرخاؤها لك إذا أحببت. أنت تبدو متضايقا جدا بها" وكأن الآخر تلمس السخرية في كلمات خاطفه فاكتفى بالتأوه. قال ''المبدع'' بنبرة مطمئنة: "لا تخف... أنت وزير دفاع ناجح والبلد بحاجة إليك. ثم أنني لا أغدر بأصدقائي"علا الشحوب وجه الآخر وارتعش حنكه قليلا قبل أن يتمكن من التحكم في كلماته: "أقسم لك أنني لم أكن أعلم بما

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

خططه الزعيم ضدك. أين نحن الآن؟"

"نحن قريبون من الحدود"

"أي حدود؟"

"اِحزر"

"أنت تريد قتلي... أنا كنت اعتبرك مثل ابني ودائما اثني على جهودك"

"لا تخف. أنت معي. وأنا أمقت القتل وأمقت اللون الأحمر. لا بد أن دمك لونه أحمر"

حل الصمت بينهما. وظلت شفة الآخر السفلى ترتعش مع بزوغ قطرات العرق المتواصل فوق صلعته، على الرغم من برودة الهواء المكيَّف في السيارة.

حضره السؤال نفسه الذي ظل يتكرر في ذهنه منذ اقتناعه بفشل محاولة اغتيال الزعيم: أي حياة أخرى يرضى بها بديلا عن حياته داخل القلعة التي صاغها بنفسه حجرا على حجر؟ في بعض الليالي الهادئة التي يتخللها هواء عذب يسكنه هاجس الخوف من نسيان الناس لحقيقة الرعب الساكن وراء جدران القلعة فيأمر أتباعه ببث تسجيلات صراخ بعض المعتقلين باستخدام مكبرات صوت مبثوثة فوق سطح القلعة: من هناك كان العويل ينبثق مختلطا بالدموع وعبارات التضرع والندم لتحملها ذبذبات الهواء في كل الجهات. أعلمه بعض مخبريه عن إشاعة سادت في البلد تقول إن المعتقلين الذي فقدوا حياتهم داخل القلعة ودفنوا تحت أرضها هم وراء ذلك النحيب المتواصل.

بفضل ذلك الخوف المتغلغل في الهواء تمكن الزعيم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ووزراؤه من التمتع بأمان مطلق. بل حتى الناس استفادوا كثيرا من جهوده. فطالما هم منصرفون إلى حياتهم الخاصة فقط يستطيعون التمتع أيضا بالأمان. بل حتى المجرمون أصبحوا جزءا من فرقه العاملة، يؤدون دورا مفيدا للمجتمع. بفضل القلعة ساد الاستقرار في البلد تماما: لا سرقات؛ لا قتل؛ لا حوادث سيارات؛ لا احتيال. بل حتى الشرطة والمحاكم كادت تصبح فائضة عن الحاجة: إنها المدينة الفاضلة المحكومة بالخوف. الخوف الذي يصبح كالفيروس قادراً على التغلغل إلى خلايا الجسم لا ليؤذيه بل ليحميه من شروره... مقابل كل هذه الامتيازات التي كسبها الجميع بفضله كان الثمن ضئيلا: حياة مائتين أو ثلاثمائة معارض فضلوا الوقوف في وجه السلطة. مع ذلك فهو لم يتعامل معهم كبهائم تنهشها الجوارح في العراء. فكل واحد فيهم يتمتع اليوم بقبر مصنوع من الرخام وحوله تنمو الزهور. ولن يمضي أكثر من عقد واحد حتى تصبح شجيرات الحور والصفصاف والصنوبر أشجارا حقيقية تظللهم جميعا من شمس الصيف القاسية بينما ستشدو العنادل والشحارير أجمل الألحان لهم.

التفت ''المبدع'' إلى ضيفه المزنر بالجاكيتة الطبية. أمعن في لغده الذي بدا أضخم مما كان يراه عبر الأفلام الوثائقية. كذلك أدهشه لون وجهه المتوقد بحمرة كابية، مع أنف أفطس قليلا. ألم يكن عليه أن يتحقق من أصوله قبل توزيره. فمن غير المستبعد أن تعود أصوله إلى قبائل مغولية غزت ذات يوم هذا الوطن. انفجرت قنبلة فاهتز جسد وزير الدفاع لا إراديا قبل أن يسأله:

"ما هذا؟"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

" لا شـيء لا تخـف... إنـه مجـرد اسـتعراض قـوة. هـم لا يستطيعون قصفنا"

"ما الذي يمنعهم، الزعيم لن يبالي بالتضحية بي"

"ولكـن هنـاك شـخص أهـم منـك بالنسـبة لـه تمكنـا مـن جلبـه معنا"

"من؟ وزير الداخلية؟"

"لا. نحن قبضنا عليه لشل حركة أجهزة الشرطة"

"إذن وزير العدل؟"

"نحن لا نفكر بدمية من هذا النوع. معنا أمّ الشعب"

ساد صمت بينهما، يتخلله أزيز متواصل لطائرة هليكوبتر، كـان يصـلهما خافتـا بعـد امتصـاص غـلاف السـيارة المـدرع لضجيجها.

"هل تعرفها؟" سأله ''المبدع''.

"لا. لكننـي سـمعت الكثيـر عنهـا.. يقـول الـبعض إنهـا هـي الوحيدة التي تقف أمام جموح الزعيم"

"إنها امرأة عظيمة. كانت مثل أمي"

"لماذا لا تقنعها حتى تصالحكما؟"

"فات الوقت على ذلك"

قـال بعـض أعوانـه إنهـا كانـت وراء تغيـر موقـف الـزعيم تجاهه. فبعد أن تمكنت أم أحد سجنائه من الوصول إليها لتنقل لهـا مـا كـان يجـري فـي القلعـة، غضـبت كثيـرا ودعـت ابنهـا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

فقرعته بشدة على إطلاق يد مساعده ''المبدع'' ليفعل ما يشاء بعباد الله.

لكنه لم يصدق هذه الحكاية. فالطوق الذي فرضه على بيتها لا يسمح بوصول أي شخص إليها دون موافقته. إنها أحابيل صديقه القديم: مع سعيه لتحسين صورته في الداخل والخارج اكتشف أنه بحاجة إلى كبش فداء. وليس هناك أفضل منه: كل الشرور بسبب ''المبدع''. أنا لم أكن أعلم بجرائمه.

لعله كان وراء نشر حكاية أمه ليحرضه على القيام بفعل ما. فالزعيم لا يحب أن تنتهي الأمور بطريقة صامتة: إنه يحب العروض الدرامية المثيرة. وها هو يحقق له ما يحب وأكثر. هل كان يظن أن ذراعه الأيمن سيقوم بخطف أمه؟ خصوصا وأنه كان بمثابة ابنها. لكنك أنت الذي دفعتني لهذا الفعل الآثم. هي الآن في السيارة ما قبل الأخيرة ومعها يجلس نائبه الأول. ضغط على لوحة السيطرة بيده: فجاءه صوت متماسك:

"نعم سيدي."

"كيف حال أم الشعب؟"

"إنها بخير سيدي"

"اعتني بها وأخبرها أن الأزمة على وشك الحل"

راودته رغبة في الحديث معها لكن انقباضا ملأ صدره جعله يغلق الاتصال بمساعده. كان مجرد سماع صوتها كافيا لإرباكه في وقت هو بحاجة لأقصى درجة من التماسك. فبعكس الزعيم الذي كان يوقظ في نفسه النمر المستعد لتمزيق العالم من أجل إرضائه كانت هي توقظ في نفسه الطفل الذي يبحث عن يد تهدهده قبل نومه. وكم كانت تفعل ذلك حينما كان يختفي في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بيتها خلال فترة العمل السري. ولن ينسى طالما بقي حيا تلك الساعات التي ظلت جالسة فوق رأسه بعد أن أصابته حمى قاتلة، وهي تغمس بانتظام قطعة القماش في طاسة مملوءة بماء بارد، ثم تضعها فوق جبينه، بينما ظلت أصابعها تمر فوق شعره المجعَّد برقة لا مثيل لها.

"ما الذي ستفعله لو كنتَ في مكاني؟" سأل وزيرَ الدفاع. وكأن الأخير كان يقرأ ما يدور في ذهنه: "هل يمكنكم أن ترفعوا عن عيني العصابة؟ أنا أشعر بالدوار" ومن دون أي تعليق فتح ''المبدع'' بأصابعه الرقيقة الدبوسين المثبتين للعصابة.

كانت عينا ضيفه حمراوين بسبب العرق الذي ظل يتسرب إليهما من خلال قطعة الشاش، مع خدوش قليلة بالقرب من أذنيه الكبيرتين. مسح عينيه بحافة جاكيتة التقييد. قبل أن يلتفت إلى ''المبدع'': "هل تريدون مني التوسط بينكم وبين الزعيم؟" وحينما واجهه صمت كامل عاد إلى خيط حديثه:

"أنتما في الأخير صديقا طفولة"

"كيف يمكنك التوسط؟" قال ''المبدع'' بنبرة تتصنع السذاجة.

"أطلِقوا سراحي وسترون سيادتكم"

لكن ''المبدع'' تجاهل عرض الآخر. أعاد رأسه باتجاه مستقيم وهو يرفع بيده اليمنى المسدس- الرشاشة، بينما راحت يده الأخرى تضغط على زر النافذة الأوتوماتيكي.

لفحه الهواء الساخن. كانت الشمس قد انزاحت قليلا إلى الغرب. فأصبحت أشعتها تسقط على بطنه وحضنه مباشرة. أعاد غلق وفتح النافذة مرارا. كان السائق يراقب سيده بقلق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

عبر المرآة الصغيرة محاولا ترجمة ما تحمله هذه الحركات من معان. وكل ما تمكن من إدراكه أن حدثا "استثنائيا" على وشك الوقوع.

من فضلك شغِّل الكاسيت رقم 3، قال ''المبدع'' لسائقه بنبرة مفرطة التهذيب. ولم تمر سوى دقيقتين ثقيلتين بالصمت قبل عثور الآخر على الكاسيت المطلوب من الخزانة الصغيرة الموضوعة إلى يمينه.

بعد تدفق عزف منفرد على القانون لدقائق قليلة، حل صمت آخر. سأل ''المبدع'' ضيفه بنبرة عذبة: "أعجبتك الموسيقى؟"

"جدا."

"ستستمع الآن إلى أجمل منها."

لكن بدلا من الموسيقى جاءته أصوات رجالية مختلطة مع قرقعة أكواب وكراسي. ثم علا صوت واضح: "أفضل طريقة، حتى نبدأ من جديد، هي محاكمة مدير الأمن، سيدي" بعد صمت قليل جاء صوت آخر شديد الجفاف: "بالتأكيد... لكنه قدم للثورة خدمات كثيرة"

صاح ''المبدع'' بسائقه: "أوقف الكاسيت" وحينما التفت إلى ضيفه كانت عضلات وجهه ترتعش لا إراديا.

"هل ميزت صوتك وصوت الزعيم؟ هذا هو جزاء جهودي في ترفيعك إلى منصب وزير الدفاع؟"

"سيدي، إنها خدعة من الزعيم. كل ما قلته في ذلك الاجتماع جرى الاتفاق عليه مسبقا"

"انزل من السيارة"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وكأنه كان تحت وطأة تنويم مغناطيسي راح وزير الدفاع غير مصدق يسعى إلى فتح الباب. كانت شفتاه المرتعشتان ترددان العبارة نفسها: إنها خدعة سيدي. حتى حينما اخترقت رأسه ثلاث رصاصات لحظة خروج نصف جسده، جعلت دمه يتدفق في كل الاتجاهات.

أغلق ''المبدع'' باب السيارة ثم صفق باطني كفيه بعضهما ببعض مثلما كان يفعل عند انتهائه من تنفيذ مخطط ما بكفاءة عالية. لكن غضبا علا تقاطيع وجهه حينما اكتشف وجود قطرتي دم فوق بدلته البيضاء المكوية بعناية فائقة: إحداهما كانت فوق فخذه الأيسر والأخرى عند حافة كمّ سترته الأيمن.

اشتعل الضوء الأحمر فوق لوحة السيطرة، وحينما ضغط على زر الاستلام جاءه صوت المسؤول عن المفاوضات: "سيدي، الزعيم يريد التحدث معكم"

* * *

تصاعد رنين الهاتف بإلحاح في شقته، لكن ''صالح'' فضل البقاء مركِّزا على ما كان يقوم به: إلصاق الأوراق الممزقة الخاصة بالرواية، بعد جمع قطعها ومحاولة ترتيبها حافة إلى حافة. ما ساعده على عزل صفحات ''المبدع'' هو لونها الأصفر الذي اختاره لتمييزها عن الأوراق الأخرى. لكن مشكلة برزت أمامه أثارت في آن حيرته ويأسه: بعد الانتهاء من ترتيب كل صفحة ظل يكتشف فقدان قطع منها تقع في وسطها فينتهي به المطاف إلى ورقة مثخنة بالثقوب، خالية من أي معنى. هل كانت ''شهرزاد'' تمزق الصفحات أولا ثم تختار أجزاء منها بطريقة مدروسة لإتلافها؟ لا بد أنها كانت مصممة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تماما على قطع الخيوط التي تمكنه من إعادة بناء عمل أمضى عشرة أعوام ينسج فيه، وها هو يعود إلى نقطة الصفر: لو أنها تركت له أي مقطع صغير من الرواية لاستطاع أن يسترجع خيط الحبكة.

انغمر في ذلك الخضم الهائل من الأوراق بحثا عن مادة تفيده. وحينما رن جرس الهاتف ثانية تسرب إليه خدر منعه من التحرك عن أرضية الحجرة والتوجه صوبه.

تلفت حوله. اكتشف مدى الفوضى التي خلفتها ''شهرزاد'' في شقته، فأثارت في نفسه شعورا غريبا بالخوف. الخوف من الجنون الذي ظل واقفا بجواره في هيئة مهرج. يحثه على كسر مسار خيط العقل المتحكم بأفعاله. على رصيف المترو وقبل وصول القطار يستطيع أن يسمع صوت هذا الآخر داعيا إياه: ماذا تنتظر؟ اِرمِ بنفسك. لن يحدث لك شيء. أنا معك. فينسحب بعيدا عن حافة الرصيف. هل كان الانحشار مع ''بيداء'' تحت سرير ''لبنى'' دعوة من المهرج نفسه؟ يكتشف الآن المخاطر التي كانت تحيق به وسط ذلك العدد من الأطفال فيشعر بالهلع. وهل كانت اليد التي سحبته إلى هناك تعيش في عالم العقل؟

غمره شعور عميق بالذنب: هل كانت ''بيداء'' حقا خارج عالم الجنون حينما ضغطت على كفه؟ ألم تكن استجابته لها استغلالا من نوع خاص؟

تستحضر ذاكرته تلك اللحظات التي جمعتهما في سريره مرة واحدة. يتلمس في عينيها المنكسرتين خجلا يدفعها للقيام بفعلين متعارضين: استسلام جسدي كامل وانكماش روحي كامل. لكنه بدلا من المضي مع إغراء أنوثتها وجد نفسه مشدودا إليها: إلى ذلك الكائن الرقيق المدفوع تحت قسوة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أصابع الآخرين وغلظتها للانزواء في أعمق أعماق صدفته. كان عليه أن يتركها وقتا طويلا منكمشة على نفسها. وحينما مدت له يدها شعر كأنها تتوسل إليه لمساعدتها بالخروج من قمقم ضعفها.

بدت له بتعثرها وجهلها كأنها تعيش تجربة عمل الحب لأول مرة في حياتها.

يكتشف هو الآخر عالما لم يعشه من قبل: تتباطأ ذبذبات العالم معها، تتفكك عناصره. إنه عالم الهيولى الأولي قبل أن تتحدد وتتميز الأشياء فيه. وإذا كانت ''شهرزاد'' تغذي فيه شعورا بالقوة والاستحواذ على العالم فـ''بيداء'' أدخلته من دون أن تقصد فردوسا من نوع آخر. لعل هذا الفردوس يتحدد بكلمة واحدة: التوحد. أن تكون حاضرة معه كجسر يشده لتلك النجوم البعيدة.

انبثق خلال تلك الساعات القليلة مع ''بيداء'' شعور غامض في نفسه: هل يمكن تسميته شعور الأبوة؟ مع ''سلمى'' كان الطفل في داخله هو الفاعل؛ الطفل الهارب من أم ضعيفة ومهووسة بالاستحواذ إلى أم قوية ومستبدة. وفي لندن جاءت شهرزاد: أم قوية ورحيمة معا. معها استمر الطفل في ألعابه، لكنه هذه المرة كان طليقا. اكتشف ''صالح'' مع ''شهرزاد'' لأول مرة إمكانية تلقي الحب بسخاء من دون أن يكون المقابل حريته الداخلية. لكن الطفل أراد هو الآخر أن يكبر؛ أن يصبح أبا أيضا. وها هو يشاهد آثار هذه الرغبة: بدت الفوضى التي خلفتها ''شهرزاد'' وراءها تذكيرا له بأن عالم المنفى الذي امتلك صلادته من خلال علاقته بها قابل للتلاشي، مثل تلاشي ضباب الصباح بعد بروز الشمس. لكن اتضاح الأشياء حوله لم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يمنحه سوى شعور بلا جدواها. كأن كل تلك المتع السرية الصغيرة التي ظلت مستيقظة في نفسه خلال سنوات علاقتهما فقدت معناها. وها هو يتواجه مع واقع لا تجمعه به أي آصرة جذرية.

كان ''صالح'' وهو مستلق على الكنبة الجلدية واقعا بين قطبين متعارضين يسعى كل منهما إلى جذبه صوبه: بين ضعف ''بيداء'' وقوة ''شهرزاد''؛ بين الهاوية والقمة؛ بين البنوة والأبوة. وحينما جاء رنين الهاتف هذه المرة اعتبره دعوة للخروج من بيته.

انقطع الصوت لحظة مسكه للسماعة. انتظر متلهفا عودته. دار في البيت على غير هدى. عاد إلى الهاتف. ومن دون إرادته، أدار رقم ''شهرزاد'' فجاءه الرنين ليوقد شعورا معاكسا في نفسه: أعاد وضع السماعة فوق قاعدتها. ثم أدار رقم ''بيداء'' ليغلق الهاتف حال قدوم صوت ''عبدل'' إليه.

يعتبر ابن عربي كلمة "قلب" مشتقة من مصدر "التقلُّب"، ووفق رؤيته يعيش القلب في كل لحظة شأنا مختلفا عن سابقه ولاحقه. ولدعم حجته يستشهد بحديث قدسي: "قلوب بني آدم مثل قلب واحد بين إصبعي الرحمن". فبعكس "العقل" الذي هو من "العقال" أو المقيِّد ينتمي القلب إلى عالم متذبذب حسب ضغطات إصبعي الرب. وفي حال ''صالح'' كانت تلك الضغطات تتجسد آنذاك بتنقل أصابعه بين رقمين هاتفيين، أصبحا بالنسبة إليه قطبي مغناطيس متنافرين يتناوبان في احتلال قلبه بين لحظة وأخرى.

اندفع بحماسة لإزالة آثار الفوضى في بيته بإعادة الأشياء إلى أماكنها. في كيس سميك وضع الزجاج المكسر. وفي كيس

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

آخر نقل كل الأوراق المنثورة على أرضية غرف النوم والجلوس والمرافق والمطبخ. وتحت يأس شامل من إمكانية كتابة روايته ثانية حمل صفحاتها ودفعها داخل الكيس.

أثناء دورانه مع المكنسة الكهربائية داخل غرفة الجلوس لمحت عيناه وسط دوي محركها ورقة تحت طاولة القهوة. خفق قلبه وهو يسحبها بعناية. إنها آخر صفحة في الرواية أفلتت من يد ''شهرزاد''. أو لعلها تركتها له لتذكِّره بها. شعر ''صالح'' بأنه ممسك بكنز من الذهب. فبفضله سيتمكن من تعقب خطوات ''المبدع''. ''شهرزاد'' هي "أريادن". مع هذه الورقة تسلم رأس الخيط وما عليه الآن إلا أن يتعقب خطوات المينوتور دون الخوف من الضياع في المتاهة.

* * *

كان يعرف لحظة وضع قدمه خارج المرسيدس أنه دخل تجربة ظل قلبه يدفعه لاختبارها: مواجهة الموت.

امتصه ضجيج طائرات الهليكوبتر. وعلى بعد مائة متر يستطيع الآن مشاهدة إحداها تهبط فتثير حولها عاصفة ترابية. هل يمكن أن يكون الزعيم على متنها؟ ابتسم قليلا لفكرة تسربت إليه: حتى مع استسلامه، ما زال قادرا على زرع قدر من الذعر في نفوس خصومه. حتى بعد رميه عدة خطوات لم يتقدم صوبه أي من الجنود. ما زال القيظ شديدا، حيث ظل الهواء الساخن يلسع وجهه، على الرغم من انحراف الشمس إلى يساره كثيرا. كان الوقت عصرا. يستطيع تقدير ذلك من طول ظله الذي امتد بجواره.

كان الزعيم، مثلما توقع ''المبدع''، صلدا كالفولاذ.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

" ليس أمامك سوى الاستسلام،" قال له بنبرة قاطعة عبر جهاز اللاسلكي.

"وأمك؟"

"اقتلها إذا شئت. هي ليست أمي فقط"

"أنت تلعب على عواطفي"

"أمامك خمس دقائق فقط"

"وماذا ستفعل بعد ذلك؟"

"ستختفي قافلتك من الوجود تماما"

كان سائقه يراقب بحيادية مثيرة للدهشة ما يدور من مفاوضات، لكنه ظل يقظا طوال تلك اللحظات لأوامر سيده. فكر بالانتحار. أن يأخذ المسدس الرشاش ويدفعه في فمه ثم "بُمْ" لكن نفورا عميقا ملأ أنفاسه من الفكرة: مجرد التفكير برد فعل السائق وهو يرى معبوده يفعل ذلك جعله يلغي هذا الإغراء. هل يطلب من الآخر أن يهبط من السيارة كي يبادر إلى إطلاق النار على تلك النقطة الضعيفة المغروسة في دماغه: عبادته العمياء للزعيم وثقته المطلقة به؟

أخيرا برز أمامه عدد من الجنود يختبئون وراء أجمة صغيرة. هل عليه أن يتوجه صوبهم. ها هي طائرة أخرى تهبط في الطرف الآخر من البرية. كان اتفاقه مع الزعيم محددا بنقطة واحدة: بعد استسلامه يتصل هو بمساعده ليطلب منه إيصال أمره للآخرين: اهبطوا من سياراتكم بلا أي سلاح. ''المبدع'' اتفق مع الزعيم على سلامتكم.

يحضره السؤال مرة أخرى كومض خاطف: ما الذي دفعه حقا للهبوط من السيارة؟ كان ممكنا أن يبقى فيها حتى يأمر

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الزعيم بقصف موكب سياراته. يأتي الألم عادة متأخرا مع الرصاص والقنابل، فلا يتمكن من اللحاق بطريدته؛ آنذاك يكون الموت قد أدخله بيته. لكنه الآن من دون أي ورقة يلعب بها. فمسدسه قابع وراءه فوق مقعد السيارة، ورجاله يبتعدون عنه مع كل خطوة يرميها إلى الأمام. لا بد أن الزعيم جالس في تلك الطائرة الكبيرة يتابع خطواته باستمتاع كبير. إنه يكتشف سبب تغيير رأيه: بدلا من عبور الحدود قبل وصول كل هذه النجدات قرر الانتظار للتفاوض: التفاوض على طريقة موته؟ فهو يعرف كيف تعمل كل خلايا عقل الزعيم: الانتقام بطريقة لم يسبق لها مثيل؛ الانتقال إلى البلد الآخر كي يتذوق الذل على يد حكامه خيار أحمق. كان عليه أن يقصيه منذ البدء. كان عليه أن يقاتل مع رجاله حتى آخر نفس داخل العاصمة. على الأقل كان سيدخل كتب التاريخ باعتباره مقاتلا عنيدا. قال للزعيم أثناء حديثه معه عبر اللاسلكي: أرجو أن تعفو عن رجالي. إنهم لم يفعلوا شيئا سوى تنفيذ الأوامر. بعد صمت قليل قال رفيق عمره: سنفكر بالأمر. ولعل الآخر فوجئ بعاطفته تجاه ضحاياه حينما طلب منه بنبرة رقيقة: هل تضمن لي إبقاء المقبرة التي بنيتها في القلعة وأن تدفنني فيها. ولم يكن جواب الزعيم هذه المرة إلا غائما أيضا: كل شيء ممكن.

ازداد ضجيج طائرات الهليكوبتر فوق رأسه. وبدأ جنود يقتربون بحذر صوبه من كل الجهات. كانوا يرتدون خوذ القتال وهذا ما دفعه لخنق ضحكة في نفسه. إنه الآن يعرف سبب تخليه عن كل أوراقه وقبوله بكل شروط الزعيم: إنه يريد أن يختبر ما ذاقه معتقلوه على يد رجاله: التعذيب. ظل هذا الإغراء يجره إلى ثناياه: ما هي حدود تحمل جسده للألم؟ إنه في هذا الحقل قادر على التفوق على الزعيم الذي لم يعش يوما

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تجربة كهذه. وإذا كان رجاله يعذبون لغرض انتزاع المعلومات فإن الزعيم سيعذبه لغرض الانتقام فقط: إنه أفضل تجسيد للمنتقمين جميعا في العالم. هل سيقطع رجليه وذراعيه أمامه ويبقر بطنه؟ كل شيء ممكن مع الزعيم. إنه اختباره الأخير الذي ظل يتردد في داخله: تجاوز حاجز الجسد هو الطريق إلى القداسة؛ إلى الشيطان؛ إلى ما هو إلهي. سيقول للزعيم: ابق القلعة: إنها تميمتك التي تحفظ لك حكمك. أنا سأظل في خدمتك حتى حينما أكون في صحبة ضحاياي. نحن كلنا سنساندك. ستبث القلعة والمقبرة دائما ذبذبات الخوف في أنفاس رعاياك. لكنني لن أقول له الحقيقة: هناك في مقبرتي سأعمل جاهدا مع سكانها على بناء عالم آخر تظلله قوانين أخرى: وفيه سيعيش الخروف والذئب أخيرا جنبا إلى جنب.

يزداد عدد الحرس حوله؛ ها هم يلتهمون الهواء حوله؛ يتقدمون بجرأة أكبر صوبه. تفقد وجوههم ملامحها تحت وطأة العرق، وتحت تأثير سقوط نظارتيه الغامقتين عن عينيه. تبرق أمامه صورة ''حياة'' فتوقظ في نفسه شعورا عاصفا بانفراج غريب. ها هو يجد نفسه غارقا في ضحك هستيري، وسط قبضات قوية تطبق على جسده النحيل، فتمنعه من الالتفات لآخر مرة إلى الخلف، للمح آخر آثار سلطته: سيارات المرسيدس الجاثمة على بعد أمتار عنه.

* * *

عند خروجها من محطة المترو، فاجأها هبوط العتمة السريع. كانت ساعتها تشير إلى الرابعة وخمس دقائق. بدت لها السماء أوطأ مما كانت عليه في المرة السابقة، ولعل ذلك

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يعود إلى تعمق كثافة الغيوم وسقوط منتظم لمطر خفيف، لا تراه العين بسهولة.

إلى أين تذهب الآن؟ أمضت ساعات النهار تتنقل بين القطارات ومحطاتها. تتابع النداءات المسجلة عند أرصفتها، محذرة من الفجوات القائمة بينها وبين حافات أبواب العربات، فتتراجع إلى الخلف. بدا لها كأن هناك أصابع تدفعها صوب السكك المكهربة فتنسحب أكثر فأكثر إلى الوراء ملتصقة بجدار النفق. ظلت حكاية الجراح ''حسين'' عن قتيلة قطار الأنفاق تحضرها، فتنكمش أنفاسها، دافعة إياها لمغادرة المحطة بحثا عن نسمة هواء.

شعرت ''بيداء'' كأن دهرا مر عليها منذ إغلاق باب بيتها وراءها. ما الذي يفعله أطفالها ؟ لا بد أنهم عادوا إلى البيت. تستطيع أن تستحضر الوضع في هذه اللحظة: للتو أعادهم الأب من المدرسة، ولا بد أنهم يتلفتون حولهم بحثا عنها. أين ماما؟ ستسأل لبنى. لكن ''عبدل'' سيحدجها بنظرة نارية فتنكفئ على نفسها رُعبا. أما التوأمان فسيغرقان في صمت كامل بانتظار عودة الأم وخروج الأب قليلا. غمرها ندم على عدم أخذ أطفالها معها؛ على كتابة رسالتها المتضرعة. كان بإمكانها أخباره: أنا ذاهبة إلى بغداد مع الأطفال. وهل سيوافق على طلبها؟ كان عليها أن تقف ولو لمرة واحدة في وجهه.

بدلا من ذلك، ظلت تنزل من المترو عند أقرب محطة للبيت، لتأخذ من هناك حافلة تمر به، لكنها لحظة وصولها إلى أقرب نقطة منه، تتجمد أنفاسها فتمضي الحافلة مبتعدة عنه. بدا لها كل شيء قريبا وبعيدا عنها في آن. هل من المعقول أن تعيش كل هذه الأعوام في هذا البيت ثم بمجرد غلق بابه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وراءها تنقطع كل أواصرها به؟ وحينما عادت الحافلة بها على الطريق نفسه ظلت تحرض كل قواها: سأنزل وأذهب إلى البيت. "أنا أريد شراء بطاقات طائرة لي ولأطفالي. هل يمكنك أن تدفع لي أثمانها؟" لا، لتكن بهذه الصيغة: "هل يمكنك أن تسلفني ثمنها؟" أو بكلمة واحدة: "أنا أريد الطلاق" وحينما حضرت الكلمة على لسانها اقشعر بدنها. كانت تستطيع أن ترى أمها وأخواتها ملتفات حولها: "هل فكرتِ بسمعة العائلة؟ هل فكرت بنا؟" لو كان الأب حيا لوقف معها. على الأقل ستعطيها نظراته المتعاطفة معها قوة كافية لمواجهتهن. تجاوزت الحافلة بيتها. لا يهم، سأعود بعد قليل إليه. سأكون أقوى في المرة القادمة.

تمضي إلى كابينة هاتف. تضرب رقم هاتف ''صالح''. يستقبلها رنين متواصل من دون جدوى. هذه هي المرة السابعة التي تتصل به. لا بد أنه ذهب إلى بيت ''شهرزاد''. هل اتصل به على هاتفها. تلمح على صورة وجهها المنعكسة فوق زجاج الكابينة ابتسامة قوة. كأنها كانت تقول لبنت عمتها: أنا مثلك. لكن شعورا نقيضا تسرب إليها. ستتصل بها لتعتذر منها. "أنا أحتاج إلى مبلغ صغير وسأبعثه لك حال وصولي بغداد" أو ستقول لها أولا: "أعتذر.. إنه بسبب المرض. أنت طبيبة وتعرفين"

في تهويماتها داخل المدينة وجدت نفسها مرتين بالقرب من بيت ''شهرزاد''، وحينما سعت في كلتا الحالتين لاختراق شارعه والمضي إليه فورا اندفعت نبضاتها بعنف بينما احتبس الهواء في صدرها لتبتعد عن ذلك المكان. تذكرت آنذاك لقاءها الأول بـ''صالح'' في بيت ''شهرزاد''.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بدا منكفئا على نفسه. ومن وقت إلى آخر كانت ''شهرزاد'' تسحبه إلى الخارج. هل تعرف أن أصل ''بيداء'' و''عبدل'' من الكرخ أيضا؟ صحيح؟ من أي محلة؟ انفرجت أساريره حالما أجابه زوجها: كنا نسكن متقاربين. ربما ذهبنا إلى المدرسة نفسها. بادرت بنت عمتها ملتفتة صوبها: "أهل ''بيداء'' تركوا المحلة حينما كانت في السابعة" قالت بنبرة متلكئة مصححة: "كنت في الخامسة" "آه، هذا فارق كبير،" رددت ''شهرزاد'' بسخرية مبطنة. "أتذكر المرة الأخيرة التي زرتهم فيها مع أمي قبل انتقالهم. ثم أخذنا صورا في السطح، أليس صحيحا؟" "نعم، وجاء الكثير من الأقارب لتوديعنا،" قالت ''بيداء''. قال ''صالح'': "الكثير من تلك الأزقة قد أزيلت عن الوجود" "هذه سنّة الحياة،" قالت ''شهرزاد'' محاولة إبعاد مسار الحديث عن الجدية وإبقاءه خفيفا، "حياة الأزقة تنتمي إلى القرون الوسطى نحن الآن في أواخر القرن العشرين"

تسحب الإعلانات الضوئية الكبيرة نظرها، بينما تجد نفسها للحظات محاطة بعدد كبير من السياح الفرنسيين. إنها في ساحة البيكاديللي. الطرق واضحة أمامها: السير جنوبا يقودها إلى بيت ''شهرزاد''؛ السير شمالا إلى بيت ''صالح''؛ أما السير غربا على شارع البيكاديللي فسيأخذها إلى بيتها. لا، إلى بيت ''عبدل''. هي بلا بيت؛ بلا نقود؛ بلا قريب. استرجعت صورة الشحاذ الجالس بجوار محطة "كنغ كروس". بجانبه تكور كلب يقلد نظرة سيده تفسها: نظرة تجمع استدرار الشفقة لكنها مغرقة بالكبرياء أيضا. كأنها تقول للعابر: أنا أجعلك ترضى عن نفسك أكثر بسماحي لك أن تترك قطعة نقدية في هذه الطاسة البلاستيكية. ولم يكن يردد سوى عبارة رتيبة وقصيرة: "صرْف لا تحتاجه من فضلك."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يحب ''سليم'' الكلاب كثيرا. كانت عيناه تمتلئان بالدهشة كلما شاهد كلب الجيران. ولعل لطف الأخير مع الصغار يعود إلى طبيعة فصيلة البوكسر التي ينتمي إليها. فكأنه خُلِق للعناية بالأطفال. لو أن زوجها وافق على طلبها الذي عرضته بشكل سؤال: "ما رأيك لو أننا جلبنا كلبا يشبه كلب جيراننا؟ من أجل الأطفال وخصوصا ''سليم''" لكن ''عبدل'' سارع بنبرة قاطعة جعلت الدماء تغلي في عروقها: "ضعي تكاليف الأكل جانبا، هل تعرفين كم هي أجرة الطبيب البيطري؟ أنت تعلمين أنني لست مليونيرا"

لو كان هناك كلب من فصيلة البوكسر مع ''سليم'' لما سقط من النافذة. لكن من فتحها له وشجعه على الخروج؟ هو لم يمد يده يوما إلى ذراع أي نافذة. هل هما التوأمان؟ أم ''عبدل''؟ وما الجدوى من معرفة الحقيقة. كل ما تتلمسه في داخلها هو ذلك الشعور بالذنب لخذلان ابنها الذي ظل يتلمس الخطر المتخفي وراء أبيه وأخويه، فظل متعلقا بها. مع ذلك لم تجد أي غضاضة في تركه بينهم والذهاب إلى السوق.

برق سؤال في خاطرها: هل باع ''عبدل'' أعضاء ''سليم'' قبل أن يرميه من النافذة؟ لكنها أقصته عنها فورا. بدلا من ذلك حضرتها صورة كلب الجيران "روكي": كان حالما يشاهد ''سليم'' يندفع صوبه فيمضي في لعق وجهه. ولم يكن ابنها يخاف منه على الرغم من ضخامة فمه وانبعاج انفه.

انقلبت على عقبيها، لتمضي صوب محطة المترو. وقبل هبوط السلالم أخرجت من حقيبتها لعبة ''سليم'' المفضلة: كلب البوكسر المطاطي الذي حال ضغطه يطلق صوتا مضحكا. كانت عيناه الزائغتان تشرقان في تلك اللحظة فيمضي مقلدا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ذلك النباح المضحك. لا بد أن وحشة ''سليم'' ستخف في الجنة لو سمح له بامتلاك كلب شبيه بروكي. هل للحيوانات موقع آخر سوى الجنة.؟ فهي لا تتصرف إلا وفق طبيعتها. وكل ما تقوم به من حيل له هدف واحد: إشباع المعدة، وحالما يتم ذلك تعود إلى طبيعتها الأليفة. لا شرور، لا انتقام، لا كراهية. كل شيء متوقع في سلوكها. ومع اختفاء الجوع عنها ستعيش القردة والخراف والذئاب جنبا إلى جنب من دون عنف. قد تكون هناك جنة خاصة بها فقط. لكنها ستتوسل إلى الرب كي يسمح لـ''سليم'' بامتلاك كلب واحد من نوع البوكسر.

شدها الإيقاع السريع الرتيب الناجم عن دمدمات طبل. ومن ممر قصير لمحت العازف الأسود غارقا مع آلته. اختارت قدماها رصيفا وراحتا تجرانها بين حشد غفير من المسافرين. كان الضجيج يصلها صافيا بعد أن يتفكك إلى عناصره الأولية، متحولا إلى ذبذبات صوتية تتقلص وتتضخم في أذنيها.

قبل أن يتحرك القطار بها، لمحت عبر النافذة شيخا وطفلا واقفين فوق الرصيف. كانت كف الشيخ تقبض بحنو على كف الطفل. حضرتها للحظة واحدة فكرة غريبة: إنهما يشيران إليها. وتحت تأثير انعكاس الأضواء فوق الزجاج، واختلاط صور وجوه المسافرين داخل القطار وخارجه معا، لاحا لها شبيهين بأبيها وابنها. كانا على عكس الآخرين يعيشان غبطة استثنائية انعكست على إشراق وجهيهما. لكنها استيقظت من خيط أوهامها لحظة دخول القطار في نفق مظلم، وما عادت ترى أمامها سوى صورة وجهها، منعكسةً فوق زجاج النافذة المقابلة لها. أثار استغرابها شغور المقعد المجاور لها على الرغم من اكتظاظ العربة بالركاب. لمحت بعضهم يتلصص

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

عليها من وقت إلى آخر. ترتفع أعينهم صوبها للحظة ثم تعاود الاستغراق مرة أخرى في القراءة. ها هي تتَّبِع قدميها فتهبط من القطار. تسير في ممرات أخرى قبل الوصول إلى رصيف آخر. تكتشف أنها بلا حقيبة، فلم يكن هناك في يدها سوى دمية ''سليم''.

قال الطبيب النفساني قبل مغادرتها المستشفى: تعلمي أن تعبّري عن رغباتك بصوت عال بدلا من كبتها في نفسك. كانت نبرته تخفي لغة أخرى تستطيع أن تُأولها الآن: إذا أحببت أن تلتقي بي سرا يمكنني ترتيب ذلك. أنا اشتهيك. لكنها التزمت الصمت. وكأنه شعر بخطورة كشفه أكثر مما ينبغي ليتدارك متراجعا بنبرة نصف مازحة: عليك أن تتجنبي الخوض في تجارب عاطفية عنيفة. وبدلا من طرح السؤال الذي ورد إلى خاطرها: كيف؟ اكتفت بهز رأسها.

غمرها شوق عاصف لأطفالها الثلاثة، فراحت قدماها تجرانها إلى خارج المحطة. وبدلا من أن تجد نفسها في مكان مألوف استقبلت عيناها شوارع وبيوتا موحشة لم ترها يوما من قبل. كانت مصابيح الطريق تلقي بضوء أصفر شاحب فوق الأرصفة فتعمق شعورها بالعزلة. هل هي داخل كابوس؟ شيئان ظلا يشدانها إلى شاطئ الحقيقة: أشجار لندن العملاقة عاريةً من أوراقها والمطر الذي ازدادت حدته.

شعرت بالدفء عند تجاوزها مدخل المحطة ثانية. تلمست شعرها وملابسها المتشربة بالماء بينما كان البعض يتطلعون إليها مندهشين. لعل ''شهرزاد'' و''عبدل'' اتفقا الآن على إعادتها إلى المستشفى. لعل طبيبها ينتظر قدومها شامتا بصدها له. سيكون الفارق هذه المرة أنها ستكون عارية أمام الجميع.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ولعل ''صالح'' نفسه أخبرهما أنه هو الآخر ساير نزواتها خشية عودة مرضها. ما الذي يجعل الناس يتطلعون إليها؟ هل أصبحت ملابسها المبللة شفافة؟ هل هم يقرأون ما يدور في داخلها؟

مع ذلك، تسرب إليها أثناء هبوطها السلم الكهربائي شعوران متعارضان: شوق لـ''سليم'' ونفور من أطفالها الآخرين. أليسوا هم من ظلوا يعذبونه طوال حياته؟ ستشهد الآن تحقق حلمها: حينما شاهدت ''سليم'' واقفا على الرصيف بينما كانت هي داخل قطار. لكنها في هذه المرة ستتمكن من الهبوط للحاق به.

وعند انطلاق المترو بها ظلت تمعن النظر في كل موقف قبل تحركه. وحينما استرجعت خيط أفكارها بالواقع استيقظت في نفسها الأمومة صوب ''لبنى'' والتوأمين، لتندفع هابطة من القطار بسرعة.

ظلت ''بيداء'' تتنقل في متاهتها اللامتناهية: بين أطفالها الثلاثة وابنها المتوفى؛ بين عالم غائص تحت سطح الأرض وآخر قائم فوقه؛ بين العتمة والأضواء؛ بين البرد والدفء؛ بين الواقع والوهم. وإذ راحت عضلات جسدها ترتخي رويدا رويدا، ظلت قبضتها على دمية ''سليم'' قوية، بل ظلت تضغط عليها من وقت إلى آخر، فتسمع رجع الصوت نفسه، الذي كان يدفع ''سليم'' دائما للانفجار بالضحك.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

القسم الثاني عشر

الأسماء الإلهية (2)

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

مضى عليه أكثر من أسبوع وهو ينتظر إجابة عن سؤاله العصي: هل هناك بعث للحيوانات في الحياة الأخرى؟ وبدلا من ذلك ظلت مخيلته تستقبل الشخص نفسه الذي مات منذ عام واحد في بغداد: إنها ''نظام''. ها هي أمامه جالسة مثلما ألفها من قبل: الملابس المحتشمة نفسها، والشال الحريري نفسه الذي تضعه مفتوحا فوق رأسها، لكن عينيه ظلتا تلتقطان من وراء تلك العتمة المنتشرة في الإيوان غمازتي خديها المضيئتين. كأن الزمن لم يتحرك ثانية واحدة عن لقائه الذي أعقب الحوار الأول. تبدت له حينما قاده شيخه الأصفهاني كعادته إلى البستان الصغير الملتصق ببيته. وهناك بين شتلات الورد الدمشقي شاهدها وهي تقرأ في كتاب. وحينما شعرت بوجودهما توقفت عن خطواتها البطيئة المكوكية فوق الممر القصير المسوَّر بسياج الآس. قال أبوها ضاحكا: "هل هذه التي جادلتك عند الكعبة الشريفة؟" تضرج وجهها بحمرة قانية. "إنها تفعل ذلك مع الجميع.. معي ومع عمتها وأصدقائي الشيوخ... لن تسمع شيئا إلا وتبدأ بإفحام المتكلم". ومثل طفل ضُبِط وهو يقوم بعمل خبيث. انكمشت صامتة وهي تعض على شفتها السفلى في وقت ظلت أصابعها تمرر أصابعها برفق فوق غلاف الكتاب الجلدي، مبعدة عينيها عنه. بدت له أصغر بكثير من تلك التي رآها عند طوافه حول الكعبة، فأيقظت في نفسه شعورا بالأبوة تجاهها. قال الأب متباهيا: "إنها تقرأ ديوان الحماسة،" مما جعلها تغرق أكثر في صمتها. "لقد حفظت أكثر من نصفه... إن لها ذاكرة ثاقبة"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وها هي مرة أخرى أمامه. تغلغل وهم إليه للحظة أنها حقا حية وأن من الممكن تعاطي كؤوس الحب معها، جنبا إلى جنب مع كؤوس الحوار اللذيذة التي ظل يرتوي منها معها مرة كل أسبوع. في تلك اللقاءات قرأت له بعضا مما تحفظه من شعر عربي وفارسي. ولم تلتقط ذاكرته منها سوى قصائد الوقوف على الأطلال. وها هي يتيمة مالك بن الريب على لسانه بمطلعها الشهير: ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة..

يتذكر كيف أنهما اشتركا في ارتجال أبيات عديدة على بحر تلك القصيدة وقافيتها. تارة تردد صدر البيت فيعقبها هو بعجزه أو بالعكس: "ألا يا حمامات الأراكة والبان" فيجيبها: "ترفقن لا تضعفن بالشجو أشجاني" وحينما جاء دوره لإطلاق صدر البيت قال وهو يتمعن في وجهها وسط شدو بلبل يناجي ماء ساقية يتدفق وراءه: "ومن عجب الأشياء ظبي مبرقع،" فأجابت بخفة وهي تتطلع في عينيه بجرأة ساعية لقراءة ما كان يدور في رأسه من صور: "يشير بعنّاب ويومي بأجفان"

يكتشف الآن فقط وهم اللحظة المُعاشة: نحن لسنا سوى ظلال محض للذات الإلهية: حيث كُسيت أعيان الممكنات بثياب الوجود ودفِعت صوب عالم الشهادة إلى حين. لكنها لن تترك وراءها أي أثر.

منذ إقامته في دمشق مُنح ''محيي الدين'' القدرة على جلب الأرواح إليه، بإلباسهم صورا متوهمة: يكفي أن يتمنى وأن يركز على اسم الشخص المطلوب حتى يحضر الآخر فيلتقي به في برزخ الخيال. كذلك يستطيع استحضار تفاصيل الماضي البعيد بدقة... لكن ما يعجز عن جلبه هو تلك المشاعر التي ولَّدتها تلك التفاصيل في نفسه لحظة وقوعها. لكأنها ضاعت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

إلى الأبد. وهذا ما يجعل حنينه لبيت شيخه الأصفهاني بئرا لا قاع له.

ظن عند سفره من مكة إلى أناضوليا أن كل شيء سيبقى كما كان عليه خلال فترة غيابه. وحينما عاد من رحلته علم بوفاة الشيخ الأصفهاني وسفر ''نظام'' وعمتها إلى بغداد. ثم سمع بموت الأخيرة وانضمام بنت أخيها إلى منزل النساء المخصص للناسكات العازفات عن الزواج.

عندما ذهب إلى بغداد راودته مرارا رغبة بزيارة المنزل الواقع في محلة الحلْبة. لكنه حال الاقتراب منه تبدأ خطواته بالتثاقل. كأن هناك أمرا إلهيا يطالبه بتجنب لقائها.

* * *

زاره عدد من تلامذته بعد صلاة الظهر. جلسوا أمامه على السجادة الفارسية السميكة مسندين ظهورهم إلى الجدار. تحدث بعضهم عما يجري في دمشق: تفشي الجوع وارتفاع الأسعار وازدياد عدد القتلى بين المدافعين عند سورها. قال أحد الحاضرين: هذا أسوأ حصار مر بدمشق. تساءل آخر وعيناه متوجهتان إليه مستفهمتين: كيف يمكن تفسير هذا النزاع بين العم وابن أخيه بينما يمنح الأول دون قتال القدس للإفرنج؟ كيف يمكن تفسير تحول الكامل من مدافع عنيد عن حمى المسلمين إلى خائن لأقدس ما يمتلكونه؟

لكن ''محيي الدين'' ظل صامتا، واكتست عيناه ابتسامة ثابتة جعلت بعض ضيوفه يقتنعون أنه في دوامة الشطح. هل سيردد كشفا جديدا. إنهم متلهفون أكثر فأكثر لسماع ما سيقوله. أما هو

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

فكان يسعى لاسترجاع ذلك الحلم الذي حضره مثل البرق ليلة أمس.

"كل النزاعات هي بسبب تفاضل الأسماء الإلهية" ردد بنبرة واهية كأنه كان يقرأ من كتاب مفتوح أمامه: "أين المنتقم والشديد العقاب والقاهر من الرحيم والغافر واللطيف، فالمنتقم يطلب وقوع الانتقام من المنتقَم منه والرحيم يطلب رفع الانتقام عنه، وكلٌ ينظر في الشيء بحسب حكم حقيقته، فلا بد من المنازعة لظهور السلطان فمن نظر إلى الأسماء الإلهية قال بالنزاع الإلهي...الاختلاف والتنازع في الكون ناجم من حقيقة أن أسماء مختلفة تدعو المخلوقات إلى اتجاهات مختلفة"

ها هو يسترجع رؤيا الأمس بعد دخوله في غيبوبة كاملة: أمامه يبرز **العالِم** و**المريد** و**القائل** و**القادر** وهم يمسكون بكائن هلامي معتم يمثل أحد الممكنات. فجأة ينفلق تحت أذرعهم إلى نجوم متوهجة تندفع في شتى الاتجاهات. شيئا فشيئا يمتلئ العماء بالأنوار والرعد والبرق. عالم الحس المولود للتو يمضي صوب تنازع حاد لم تعرفه الأسماء الإلهية من قبل. يرتفع صوت من وسط انشطار الأجسام الناجمة عن تصادم بعضها ببعض: سندخل مرة أخرى العدم إذا استمر نزاعكم بهذا الشكل. من منكم يستطيع أن يرسم لنا حدودا يحفظ علينا وجودنا ونحفظ عليكم تأثيراتكم فينا؟ من بعيد يظهر كائنان متوهجان بضوء ياقوتي مردَدَين بنبرة واثقة: نحن لها. قال أحدهما أنا **المدبِّر** وهذا **المفصِّل** نحن تحت إمرة **الرب** الذي عيننا وزيرين له وعملنا هو وضع المراسم لإصلاح المملكة وحفظها.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

انتابه شعور في البدء أنها ''نظام'' مرة أخرى. لكن حجم التوهج الذي كان الضيف يبثه جعله يكتشف أنه في حضرة كائن استثنائي آخر.

كان جالسا أمامه بثياب ذهبية اللون لم ير مثيلا لها. كانت انعكاسات الضوء القادم من الفِناء تتفكك فوق عينيه لتخلق بينهما وسطا مشبعا بألوان صاخبة. يسترق النظر إليه، لحظة، فيغشي بصره ضباب متألق. يغمض عينيه ويسعى إلى استحضار صورته في مخيلته: إنه شاب يتقطر جمالا وفوق محياه طفحت ابتسامة مشرقة بثت في نفسه طمأنينة لم يعهد مثيلا لها من قبل.

دخل ابنه "سعد الدين" حاملا صينية الطعام. وكعادته تقدم بخطوات حذرة قبل أن يضعها أمام والده ويغادر الإيوان. وحينما همّ ''محيي الدين'' بالأكل، تحدث الضيف لأول مرة بنبرة عتاب خفي: هل تأكل وأنا حاضر؟

كان يعرف أن من يراه لأول مرة في حياته هو كائن متلبس صورة خلقها خياله. حضره ذلك الحديث القدسي كالبرق: "الحق يتجلى يوم القيامة للخلق في صورة منكرة فيقول أنا ربكم الأعلى فيقولون نعوذ بالله منك فيتجلى في صورة عقائدهم فيسجدون"

مع ذلك وجد نفسه مشدودا إليه تماما: قوة مغناطيسية تدفعه للذوبان فيه. يغمره فرح عاصف. كأن مكافأة العمر كله تحققت فقط الآن: حضور المحبوب إليه لأول مرة في أبهى صورة. سمع صوته ينبثق من كل مكان: هل ما زلت تفكر بها؟

"مولاي، ليس لي محبوب سواك".

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

همس الضيف: "بعثتُ لك ''نظام'' كي تدخلك في طريق الحب. هي موقف عابر يصلك بي."

"لكنني ما زلت مشدودا لها".

* * *

انقضت ثلاثة أيام وهو غارق في حيرة من نوع آخر: إذا كان الرب يرفض استغراق عبده كليا في حب إنسان آخر فلمَ زرع في كينونته جذر الحب؟

لكن ''محيي الدين'' يؤمن أن كل آثار الأسماء الإلهية مسبوكة في جبلة الإنسان. وإذا كان الكون مرآة الرب يرى من خلالها صفاته فإن الإنسان هو مجلى هذه المرآة. من دون الرب لن يكون هناك أي وجود للإنسان ومن دون الإنسان لن يتمكن الرب من مشاهدة نفسه عبر العالم الذي خلقه.

هل ذلك يؤول إلى الغيرة الإلهية من أن يُحَبّ سواه؟ أم أن المحبوب هو الله المتخفي في ''زينب'' و''ليلى'' و''سعاد'' و''هند''؟ وحالما يقع المرء في الفخ يكتشف أن صورة المحبوب الوهمية المرسومة في داخله أكبر بكثير من المحبوب نفسه، وعندها يبدأ الملل والبحث من جديد عن شخص آخر يملأ صورة المحبوب. إنه عالم من سراب، كلما اقتربنا من ذلك الماء الوهمي نكتشف أن هناك مسافة أخرى علينا قطعها للوصول إليه.

أليس حاله مع ''نظام'' شبيها بحال ''قيس'' مع ''ليلى''؟ يستطيع أن يتخيل الأخير راقدا على ظهره وهو يصيح: ليلى، ليلى، بينما يضع الثلج فوق صدره فتذيبه حرارة الفؤاد. فجأة تحضر "ليلى": "أنا هنا، أنا مطلوبك؛ أنا محبوبك؛ أنا قرة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

عينك؛ أنا ليلى" لكنه يطردها: "إليك عني، فإن حبك شغلني عنك"

يسترجع جملة شيخه الأندلسي ''العريبي'': "اللهم ارزقني شهوة الحب لا الحب" أن يمس المرء ذلك التوق غير القابل للتشخيص مرفقاً بفقدان الشهية للطعام وقلة النوم والنحول والشوق والقلق؛ أن تنطبق عليه تلك الحال التي وصفها ''محيي الدين'' في بيت واحد بعد عودته إلى مكة من الأناضول: "أصبحتُ فيكِ من الضنا كالنقطة المتوهمة"

آنذاك جاء فتحه الأول: في المرأة تكمن رائحة الخلق. لازمه في تلك الأيام القاسية حديث الرسول الذي لم يتوقف من قبل قط عنده: حُبِّب لي من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت الصلاة قرة عيني.

تحت ذلك الشغف المشتعل في داخله لـ''نظام''، قَبِل بالزواج من أرملة شيخه الشابة. في البدء طلب ''محيي الدين'' يدها على مضض تلبية لرجاء شيخه سودكين برعاية ابنه الصبي صدر الدين. ومع زينب اكتشف روحانية عمل الحب، حينما تعم الشهوة كل أجزاء الجسد فيسعى المرء للفناء الكامل في شريكه، من دون أن يعلم أن الدافع وراء ذلك هو شوق الجزء للفناء في الكل، وشوق الكل لاسترجاع الجزء.

هناك في مكة جاءه ذلك الفتح الذي غيّر موقفه كليا تجاه الارتباط بالمرأة، على الرغم من بلوغه الخامسة والأربعين: الحب مقام إلهي وفي عمل الحب جسدا مع جسد تتضح تلك القوة الخفية عن الوجود: حب الرب لأن يُعرف: كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرَف فخلقت الخلق فبه عرفوني. هنا يكتشف العبد العارف في الدورين المتقابلين للرجل والمرأة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

(الفاعل والمنفعل) سر الخلق. مثلما هي عملية فتح الرب للصور في عالم الطبيعة.

* * *

كان صباحا مختلفا ذلك الذي فتح عينيه عليه. فجأة اختفت الأصوات الحادة التي ظلت تتسلل إلى بيته لعدة أسابيع وحل محلها صمت تقطعه همهمات ماء النافورة الصغيرة. حضر العديد من تلامذته الذين بدا على أساريرهم الانفراج. قال أحدهم: "انتهى الحصار... الناصر استسلم لعمه ". وكأنه كان ينتظر سؤال شيخه الذي ظل صامتا تلوح على وجهه ابتسامة غريبة جعلت الكل يتطلعون في وجهه الشمعي اللون. "لم يفعل الكامل شيئا لابن أخيه. بل سمعت أنه منحه إمارة في الأردن". عبّر آخرون عن إعجابهم بالحاكم الجديد. فهو لم يتعامل مع أهاليها المتمردين ضده كأعداء بل وزع العطايا على الفقراء ونقل الجرحى إلى الماريستانات.

حضرت ''محيي الدين'' صورة انطاكية بعد فتحها. فمع الملك السلجوقي "كيكاوس" دخل المدينة. وهناك شاهد القتلى الروم مختلطين بالجرحى فوق شوارعها. كان الأنين يتصاعد من كل جانب وسط سحب الدخان المتصاعدة وعويل النساء وبكاء الأطفال، بالمقابل كان الجنود المنتصرون يقودون الأسرى المكبلين بالقيود.

في كل بقعة من تلك المدينة، كانت الأسماء الحسنى تفعل فعلها. المذل والمعز؛ النافع والضار؛ المميت والمحيي.

أخبره أحد الشيوخ الذين أفلتوا من يد ملك إنكلترا بعد سقوط

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

عكا كيف رُبِط الأطفال والنساء بالحبال، جنبا إلى جنب، قبل أن يأمر ريكاردوس جنوده بإعمال السيف فيهم.

ارتفع صوت أحد الحاضرين وكأنه كان يقرأ ما يدور في ذهنه: ما تفسير هذه الآية الكريمة من سورة صاد: **"ألا ترى إلى الملأ الأعلى كيف يختصمون؟"**

لكن ''محيي الدين'' غاص في صمت أعمق جعل الحاضرين ينجذبون هم أيضا إلى أغواره. هل عليه أن يجيب عن سؤال مريده في هذا اليوم المبهج أم يتركه إلى يوم آخر؟ هل يخبره أن السلام الذي حل في دمشق هو مجرد لحظة عابرة، فمبدأ الخصام القائم بين الأسماء الإلهية لا يحكم عالم الشهادة فقط بل حتى عالم الغيب. فالملأ الأعلى: عالم الملائكة، هو الآخر محكوم بالمبدأ نفسه لكن بدرجة أخف كثيرا، فليست هناك مثلما هو حال عالمنا دماء ومظالم وعذابات وآلام وكوارث. وماذا لو سأل آخر عن سبب هذا الخصام؟ هل عليه أن يخبره بأن التفاضل بين الأسماء الإلهية هو العلة وراء ذلك، وهو العلة وراء كل أشكال الوجود أيضا. إذ أين الضار من النافع والمعز من المذل والقابض من الباسط؟ وأين النور من الظلمة وأين العدم من الوجود؟ وأين النار من الماء؟ وأين الصفراء من البلغم؟ وأين الحركة من السكون؟ وأين العبودية من الربوبية؟

حينما فتح عينيه لاحت له خمس طبقات مصطفة بعضها فوق بعضها الآخر، وكتب على واجهة أعلاها: ملكوت **الذات** الإلهية، يليها ملكوت **العقول** ثم ملكوت **الأرواح** فملكوت **المُثُل**. وعلى أسفل الطبقات نُقشت عبارة: عالم **الحواس**. ومن هناك كان يسمع ضجيجا، يخف تدريجيا حتى يختفي تماما في الطبقة العليا: ملكوت **الذات**.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

استرجعت الغرفة نفسها أمامه. ابتسم لمريديه الذين كانوا بانتظار أي كلمة منه: الاختلاف والتنازع في الكون ناجم من حقيقة أن أسماء مختلفة تدعو المخلوقات إلى اتجاهات مختلفة. وحينما ران صمت أكثر عمقا بادر بتخفيف ثقله: لنذهب إلى مسجد الأمويين.

* * *

جاءته البشارة أخيرا. ها هو يشاهد الرسول بثيابه البيضاء ووجهه المتلألئ بالأنوار، يحضر إليه وهو نصف نائم. ودون أن ينطق "محيي الدين" بكلمة أجابه الآخر عن سؤاله الذي ظل يعذبه منذ بدء حصار دمشق.

حينما استيقظ من نومه تمكن من استرجاع تلك الكلمات التي نطقها الرسول من دون صوت: لا حياة أخرى للحيوانات.

لكن ندما تغلغل إلى أنفاسه: لمَ لم يسأله عن أولئك الأطفال القتلى: هل يُعتبَرون ممكنات منحت الوجود ثم تم سحبه منها قبل أن تنضج عقولها وتتبلور شخصياتها؟ هل ستكون هناك جنة خاصة بهم وأخرى خاصة بالمجانين؟ وأين الحكمة في كل ذلك حينما يكون الإنسان هو مجلى مرآة الكون الوحيدة التي يرى الرب صورته عبره.

هل تمثل هاتان الفصيلتان نكوصا للممكنات وعودة إلى عالم المُثل الذي انبثقت منه في وقت تظل الأسماء الإلهية تحقق مكنوناتها عبر الإنسان جيلا بعد جيلا؟ كأن كل إبداعاته المتواصلة تكشّف متواصل لبعض صفات الحق، بينما يكشف تنامي الضرر والظلم والقسوة جيلا بعد جيل عن تحقق تدريجي لأسماء إلهية أخرى.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

حضره سؤال كالصاعقة جعله يستغفر في أعماقه دون توقف: لو أن الممكنات كانت تعرف كيف ستتعين الأسماء الإلهية فيها عند تحولها إلى عالم الشهادة، هل ستلح عليها كي تنقلها من كائنات قائمة بالقوة إلى كائنات قائمة بالفعل؛ من فرضيات إلى تطبيقات؟

هأنذا أجدني محاصرا بالسؤال نفسه: هل كان علي أن أسمح لكل تلك الممكنات: ''عبدل'' و''بيداء'' وغيرهما بأن تعيش تحققاتها لو أنني كنت أعلم ما سيحدث مسبقا لها؟

أستطيع أن أرى الطفل ''سليم'' واقفا أمام نافذة حجرته، يتابع قطا كان يتقدم على سياج الحديقة بخفة وحذر صوب شحرور مستغرق في الشدو. هل عليه أن يهبط صوبه من النافذة لإنقاذه. تتفكك الكلمات في فمه حالما يحاول نطقها فتتحول إلى صرير مختنق وهذا ما يدفعه أكثر إلى القفز من النافذة.

وراءه كان أخواه التوأمان يتابعانه. ولا أستطيع أن أجزم إن كانا قد اتفقا فيما بينهما على فتح قفل النافذة الزجاجية؟ أم أنه الأب ''عبدل'' ؟ أم قد تكون ''بيداء''؟ لكنها نسيت ذلك بعد وقوع الحادثة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

صدر للمؤلف

1. **"العبور إلى الضفة الأخرى"** (مجموعة قصصية)، عام 1992، عن دار الجندي، دمشق ـ سوريا
2. **"أحلام الفيديو"** (مجموعة قصصية)، عام 1996، عن دار الجندي، دمشق ـ سوريا
3. **"رمية زهر"** (مجموعة قصصية)، عام 1999، عن دار المدى، دمشق ـ سوريا
4. **"خيانة الوصايا"** (ترجمة)، دراسات نقدية لميلان كونديرا، عام 2000، عن دار نينوى، دمشق ـ سوريا
5. **"مفكرة بغداد: يوميات العودة إلى مسقط الرأس"** (كتاب يوميات)، عام 2004، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان
6. **"كوميديا الحب الإلهي"** (رواية)، عام 2008، عن دار المدى، دمشق ـ سوريا، الطبعة الثالثة 2024، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا
7. **"لعبة الأقنعة"** (مجموعة قصصية)، عام 2008، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا
8. **"حين تغيرنا عتبات البيوت"** (مقالات)، عام 2021، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا
9. **"جاذبية الصفر WEIGHTLESSNESS"** (رواية)، عام 2023، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا. النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net" 2025.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa